

تَجَمُّعُ إِسَالِيْبِ الْقُرْآنِ

على أساليب اليونان

تأليف

ادم أئمة الاجتهاد المطلق . بدر علماء العترة النبوية محمد
ابن ابراهيم الوزير الحسنى النجنى الصنعانى مؤلف إيثار الحق
على المطلق وغيره الموفى ٢٧ المحرم من سنة ٨٤٠
أربعين ومائة هجرة عن

خمس وستين سنة الا

خمسة أشهر ربحه الله

وايانا والمؤمنين

آمين

طبع بالناهرة بان خاس من بعض علماء آل بيت رسول الله لصاحب الفضيلة

مدير

ادارة طباعة الجمعية العلمية الأزهرية المصرية الملاوية

الأستاذ اللغوى الكبير الشيخ (عيد الوصيف محمد) صاحب مكتبة الجمعية

العلمية الكاتبة بشار عرقعة القمع شرقي الأزهر المستعدة لكل ما يطلب

منها بأمانة واعتدال

مطبوعة المعاهد بجوار قسم الجالية بمصر

ن المظهر بن إسماعيل الحسنى المتوفى سنة ١٢٦٨ عن القاضي
هـ محمد بن علي الشوكاني الصنعاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ
هو رويها في كتابه المحاف الاكابر باسناد الدفاتر بالسند المتص

ملى اساليب اليوناني

تأليف

امام أئمة الاجتهاد المطلق . بدر علماء العترة النبوية محمد

ابن ابراهيم الورير الحسنى البني الصنعاني مؤلف إثارة الحف

على الخلق وعير المتوفى في ٢٧ المحرم من سنة ٨٤٠

أربعين وثمانمائة هجرية

خمس وستين سنة الا

حمسه أشهر رحمه الله

وإيانا والمؤمنين

آمين

طبع بالقاهرة بادن حاص من بعض علماء آل بيت رسول الله لصاحب الفصيلة

مدير

إدارة طباعة الجمعية العلمية الأهرية المصرية المأثرة

الاستاذ اللغوي الكبير عيد الوصيف محمد صاحب مكتبة الجمعية العلمية الكائنة

بشارع رقعة القمح شرق في الارهر المستعدة لكل ما يطلب منها بأمانة واعتدال

طبعة القاهرة بمدرسة الجاهية

بروم

يحيى ابن أمير المؤمنين المنصور بالله

جلهم الله في الدارين

(كتاب ترجيح أساليب القرآن لأهل الايمان على أساليب اليونان
في أصول الاديان وبيان أن ذلك اجماع الاعيان بأوضح التبيان وسائر
مؤلفات السيد الامام محمد بن ابراهيم الوزير التي من أجلها

(العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم) في أربع مجلدات
ضخمة بالقطع الكبير (والروض الباسم المنتزع من العواصم والقواصم)
(وايثار الحق على الخلق في رد الخلافات الى المذهب الحق) (والبرهان
القاطع في اثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع) (وقبول البشرى
بالتيسير اليسرى) (وتنقيح الانظار في علوم الآثار) (وكتاب الامر
بالعزلة في آخر الزمان) (وحصر آيات الاحكام الشرعية) (والتفسير النبوي)
(ومجمع الحقائق والرقائق) (والتحفة الصفية) (والتأديب الملكوتية)
(وكتاب القواعد) (ونصر الاعيان على شر العميان) وهو المعرى (والحسام
المشهور) وغير ذلك من مؤلفاته المفيدة ، ورسائله العديدة

عن جبهذا اليمن المولى الحافظ الحسين بن علي العمري وشيخ الاسلام المولى الحافظ
علي بن علي اليماني والحاكم الاول بصنعاء اليمن المولى الحافظ زيد بن علي الديلمي
الحسنى * وثلاثهم أبقاهم الله تعالى يروونها عن السيد الحافظ أحمد بن محمد
ابن محمد الكبسي الصنعاني المتوفى سنة ١٣١٦ هـ وهو عن السيد الحافظ

يحيى بن المطهر بن إسماعيل الحسنى المتوفى سنة ١٢٦٨ عن القاضي الحافظ الشهير محمد بن علي الشوكاني الصنعاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ وهو يرويها في كتابه أنحاف الأكارب بأسناد الدفاتر بالسند المتصل بالمؤلف وهو رضى الله عنه المحيط بجميع العلوم الإسلامية من خلفها وأمامها، والحرى أن يدعى بإمامها وابن إمامها محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل ابن منصور بن محمد العفيف ابن المفضل بن الحجاج بن علي بن يحيى بن القاسم ابن الامام الداعي إلى الله يوسف بن يحيى المنصور ابن أحمد الناصر ابن الامام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن اسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب رضى الله عنهم مولده في شهر رجب سنة ٧٧٥ خمس وسبعين وسبع مائة هجرية - وأخذ في علوم العربية والادب عن أخيه السيد الامام الهادى بن إبراهيم الوزير وعن القاضي العلامة محمد بن حمزة بن مظفر - وفي الأصول والفروع وعلم اللطيف - عن القاضي العلامة علي بن عبد الله بن أبى الخير والقاضى العلامة عبد الله بن الحسن الدوارى الصعدى وغيرها - وفي التفسير وأصول الفقه - عن السيد العلامة علي بن محمد بن أبى القاسم ، وأخذ عن السيد العلامة الناصر بن أحمد بن الامام المطهر الحسنى ، وعن الشيخ نفيس الدين سليمان بن إبراهيم العلوى التغزى وغيرهم من أكابر علماء عصره بمدينة صنعاء وصعدة وسائر المدن اليمنية . وأخذ بمكة المكرمة عن الشيخ المحدث محمد بن عبد الله بن ظهيرة والشيخ نجم الدين محمد بن أنى الخير القوصى الشافعى والشيخ زين الدين محمد بن أحمد الطبرى والشيخ

محمد بن أحمد بن إبراهيم المعروف بأبي الين الشافعي والشيخ على بن مسعود بن علي بن عبد المعطي الأنصاري المالكي والشيخ المعمر أبي الحسين بن الحسين بن الزين محمد القطب القسطلاني والشيخ علي بن أحمد ابن سلامة المكي الشافعي وجار الله بن صالح الشيباني والشريف أحمد ابن علي الحسني الشهير بالفاسي واستجاز منهم ومن غيرهم

ومن أجل تلامذته السيد محمد بن عبد الله بن الهادي الوزير والامام الناصر صلاح الدين محمد بن علي وعبد الله بن محمد بن المطهر وعبد الله ابن محمد بن سليمان الحمزي وغيرهم . وقد ترجمه القاضي الحافظ أحمد بن صالح بن أبي الرجال في مطالع البدور والسيد الحافظ ابراهيم بن القاسم بن المؤيد الحسني الشهاري في طبقات رواة الفقه والاثار تراجم مطولة وترجمه أيضاً القاضي الشهير محمد بن علي الشوكاني في كتابه البدر الطالع ترجمة منها ما نصه هو الامام الكبير المجتهد المطلق المعروف بابن الوزير تبحر في جميع العلوم وفاق الاقران ، واشتهر صيته وبعد ذكره وطار علمه في الاقطار وترجم له السخاوي وترجم له التقي ابن فهد في معجمه وترجم له الحافظ ابن حجر العسقلاني في أنبائه في ترجمة أخيه الهادي

ولا ريب أن علماء الطوائف لا يكتفون العناية بأهل هذه الديار لاعتقادهم في الزيدية ما لا مقتضى له إلا مجرد التقليد لمن لم يطاع على الاحوال فإن في ديار الزيدية من أئمة الكتاب والسنة عدداً يجاوز الوصف يتقيدون بالعمل بنصوص الأدلة ويعتمدون على ما صح في الامهات الحديثية وما يلتحق بها من دواوين الاسلام للشملة على سنة سيد الانام ولا يرفعون إلى التقليد رأساً ولا يشوبون دينهم بشيء من البدع التي

لا يخلو أهل مذهب من المذاهب من شيء منها بل هم على نمط السلف الصالح في العمل بما يدل عليه كتاب الله وما صح من سنة رسول الله مع كثرة اشتغالهم بالعلوم التي هي آلات علم الكتاب والسنة من نحو وضرف وبيان وأصول ولغة وعدم اخلاصهم بما عدا ذلك من العلوم العقلية وبالجملة فصاحب الترجمة ممن يقصر القلم عن التعريف بحاله وكيف يمكن شرح حال من يزاحم أئمة المذاهب الأربعة فمن بعدهم من الأئمة المجتهدين في اجتهاداتهم ، ويضائق أئمة الأشعرية والمعتزلة في مقالاتهم ويتكلم في الحديث بكلام أئمة المعتبرين ، مع إحاطته بحفظ غالب المتن ومعرفة رجال الاسانيد شخصاً وحالاً وزماناً ومكاناً وتبحره في جميع العلوم العقلية والنقلية على حد يقصر عنه الوصف ومن رام أن يعرف حاله ومقداره علمه فعليه بمطالعة مصنفاته فانها شاهد عدل على علو طبقته وهو إذا تكلم في مسألة لا يحتاج الناظر بعده الى النظر في غيره من أى علم كان وكلامه لا يشبه كلام أهل عصره ولا كلام من بعده وقد يأتي في كثير من المباحث بفوائد لم يأت بها غير كائنات من كان، ودون شعره في مجلد ثم انجمع وأقبل على العبادة وتوحش في القلوات وانقطع عن الناس وذاق حلاوة العبادة وطعم لذة الانقطاع الى جناب الحق فصغر في عينيه ماسوى ذلك الخ كلام الشوكاني

وكان صاحب الترجمة رحمه الله تعالى يتكدر من قول بعض حسدته إنه يخالف أسلافه من أهل البيت عليهم السلام ويذب عن نفسه بمثل قوله في قصيدة له

ديني كأهل البيت ديناً قيماً متنزهاً عن كل معتقد ردى
 ويشك في ذوو الجلالة والعمى والشمس لا تبدو لعين الأرمـد
 إني أحب محمداً فوق الورى وبه كما فعل الأوائـل أقـتدى
 وأحب آل محمد (نفسى الفدا لهم) فما أحد كآل محمد
 هم باب حطة والسفينة والهدى فيهم وهم للظالمين بمـرصـد
 وهم النجوم خير متعبد وهم الرجوم لكل من لم يعبد
 وهم الأمان لكل من تحت السما وجزاء أحمد ودّم فتودد
 والقوم والقرآن فاعرف قدرهم ثقلان للشقلين نص محمد
 وكفى لهم شرفاً ومجداً باذخا شرع الصلاة لهم بكل تشهد
 ولهم فضائل لست أحصى عداها من دام عد الشهب لم تتعدد
 سنوا متابعة النبي ولم يكن لهم غرام بالمذاهب عن يد الخ
 ومات بصنعاء اليمن في يوم ٢٧ المحرم سنة ٨٤٠ أربعين وثمانمائة هـ
 عن خمس وستين سنة إلا خمسة أشهر وقبره بقرب مسجد فروة بن
 مسيك شمال مدينة صنعاء رحمه الله تعالى

نلخص هذه الترجمة بالقاهرة في رمضان سنة ١٣٤٩ محمد بن محمد بن يحيى
 زيارة الحسنى اليمنى غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين آمين



بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقى

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين وصحابته الصالحين ، وكافة عباده الأخيار أجمعين .

الحمد لله الذى جمع بالقرآن العظيم لأهل الاسلام بين أصح العلوم وأوضحها فى الافهام ، وأفضل الأعمال وأيسرها على الموفقين من الأنام ، حيث أربى لما أودعه من البراهين العظام على فنى المنطق والكلام ، لما فيه من النفع العام للخواص والعوام ، ولسلامته مما اشتمل عليه فى الجليات من فضلات الكلام ، والتعب الكثير فى مجرد فهم عبارات الفلاسفة الطغام ، وفى الخفيات من التعمق والأوهام ، والمشى وراء الفلاسفة والمبتدعة فى مداحض الأقدام ، ولأمر ما فضل الله سبحانه المهرة من حامله على جميع الاولياء الاعلام ، حيث رفعهم الى مراتب السفارة الكرام ، الذين هم أفضل الملائكة عليهم السلام ، وجعل التفاوت فيما بينه وبين سائر الكلام كالتفاوت فيما بين الرب جل جلاله وبين سائر الانام ، ومثل هذا التفاوت لا تطمح الى دركه الافهام ، ولا تنجح الى تخيله الاوهام ، ويسره سبحانه للذكر على الدوام ، رحمة منه لنا وحجة علينا لا يتغيران لمرور اللبالي والايام ، وجعل العلم بحكماته نوراً ساطعاً يرفع كل ضلال وظلام ، ولم يكلف أحداً ما لا يعلمه من متشابه كلام الملك العلام ، كما سيأتى نصاً جلياً فى كلام أمير المؤمنين على عليه

بيان عمى بصيرة من عادى القرآن

السلام ، ولا عسر سبحانه على المكلف فهم ما خاطبه به من دلائل
الايمان والاسلام ، وشرائع الحلال والحرام ، وقوائد الاخبار وسائر
الاحكام ، وبدائع البلاغة الموصوفة بالتشابه والاحكام ،
والى من نزل عليه ليبتدى به الانام ، فنص من فضائله على ما يكل
الاسنة والاقلام ، أوجه أفضل الصلاة والتحيات والسلام ، وعلى آله
الائمة الاعلام ، الذين رووا من فضائله ما يشفى الاوام ، ويلصق أنوف
الجاحدين بالرغام .

(أما بعد) فانه نبيغ في هذا الزمان من عادى علوم القرآن ، وفارق
فريق الفرقان ، وصنف في التحذير من الاعتماد على ما فيه من التبيان ،
في معرفة الديان ، وأصول قواعد الاديان ، وحث على الرجوع في ذلك
إلى معرفة قوانين المبتدعة واليونان ، متنقصاً لمن اكتفى بما في معجز
التنزيل من البرهان ، مقبلاً لتلقى كثير من محكماته بالقبول والايمان ،
لاجرم أن الله تعالى وإن وصفه بأنه لقوم هدى ، فقد وصفه بأنه على قوم
عمى ، فحسبوه حين عموا عنه وصموا أنه لا أمر يرجع الى ذاته ، وخلل
يعود الى بين آياته ، ولم يعلموا أن ذلك يخصهم لما في قلوبهم من العمه
والعمى ، والرداءة والردى ، فكأنهم المنافقون ريباً وخبثاً وبهتاناً ، حين قالوا
ايكم زادته هذه ايماناً .

ومن يك ذا فم مر مريض * يجحد مرراً به الماء الزلالا

ومن العجب أنه يتعاطى العلم بالذات وبالصفات ، ويتأول جميع
المتشابهات ، كما يعلمها علام الغيوب والخفيات ، مع منعه غيره من الاعتماد

في التوحيد على الآيات المحكمات ، وأمهات المتشابه البينات ، وما هذه الا مضادة للمعقولات ، ومناقضة للمنقولات ، فما أصبح مامنع وعده من المحال ، وأبعد ما تعاطاه من مناسبة الحال : كما يتضح إن شاء الله عند ذكر أدلة الاقوال ، وتنقيح البراهين والاستدلال ، فلولا ذلك لاستوى العالم والجاهل ، وتشابهت المناهج والمجاهل ، وقال من شاء ماشاء ، وعاد الخبر المحتمل للنقيضين كالانشاء . وقد رأيت التقرب الى الله تعالى ببيان نقض ما ادعاه في الامرين . وإفساد جميع ما تعاطاه مفصلاً في فصلين .

رجاء أن أكون من الذين قال الله تعالى فيهم « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد » ولما ورد في فضل من اتهم صاحب بدعة . من غير رياء ولا سمعة . مع الاشارة الى جمل شافية في فضل كتاب الله تعالى وفضل حامله ، وذكر نبذ من الاخبار الواردة فيه ، وبيان بعض ما شتمت عليه من الدلائل ، المغنية في الاعتقاد عن الاشتغال بكتب الاوائل

الفصل الاول

في بطلان ما ادعاه من قصور القرآن عن الوفاء بالدلالة على الربوبية والتوحيد والنبوات . وبيان خلافه في ذلك للمعقول والمنقول واجماع المسلمين

مقدمة

في التنبيه على عظم قدر القرآن وأنه في ذلك أجل نفعاً وخطراً وقدرًا

وأثراً من جميع تصانيف المتقدمين المتعمقين . وتدقيق المتكلمين .
وهو أنواع :

﴿ النوع الأول ﴾ قال الله جل جلاله « لو أنزلنا هذا القرآن على
جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » وقال سبحانه « ولو أن
قرأنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى » فما كان
لعظيم قدره ونفعه وبركته ونوره وهدايته وسره وخاصيته التي لا يحيط
بمعرفتها على التفصيل والتحقيق إلا الله عز وجل بحيث يؤثر في الجبال
الراسيات . والصخور القاسيات . فكيف لا يؤثر في قلب المتدبر له .
المتعلم منه ، المعول في جميع المهمات عليه . الراجع في اقتباس نور الهدى
إليه . وأي كتاب يوجد في العالم موصوف بمثل هذا الوصف ، والواصف
له الملك الرب الجليل علام الغيوب الذي يستحيل عليه الخطأ ، والتعظيم
لما لا يستحق التعظيم ، والغلو القبيح في الكلام بغير الحق . فكيف
يترك ما في هذا الذكر المبين ، من البراهين ، ويعتمد على تأييد
المخلوقين ، وأساليب الجدلين ؟

ثم تورد اشكالات على نصوصه النيرة ، وشكوك في علومه اليبينة ،
ويعاب من دعا إلى الاعتماد عليه ، ويضل من كان رجوعه في المشكلات إليه
﴿ النوع الثاني ﴾ قال الله تعالى « أولم يكفهم أنا أنزلنا إليك الكتاب
يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكري لقوم يؤمنون » وقال عز وجل
« فبأى حديث بعده يؤمنون » وقال تبارك وتعالى « أفلا يتدبرون »



القرآن أم على قلوب أقفالها»

فهذه الآيات وأمثالها الواردة بصيغة الاستفهام المتضمن معنى الإنكار فيها مبالغة واضحة عند علماء البلاغة في وضوح كفايته، ودلالته على وجوب الإيمان وعظم النفع في تدبره بحيث لا يمانئه في هذه الأشياء غيره ولا يقاربه

﴿النوع الثالث﴾ قال الله عز وجل « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » وما في معناها من الآيات

فلاشتغال بالنظر في علوم هذا المعجز الجليل الذي أعجز الخلق أجمعين بالنصوص القرآنية والضرورة العقلية، أولى من الاشتغال بعلوم الامثال والاجناس من سائر الناس. فالعائب لمن دعا إلى هذا خارج عن العلم وأهله لاحق بالعالم البهيمي في فاحش جهله.

﴿النوع الرابع﴾ قوله تعالى « ولقد جئناكم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون » فانظر إلى موقع قوله فصلناه على علم وما دل عليه من مطابقة ما شتمل عليه القرآن من الايجاز في موضعه والاكتفاء بالجملة في موضعه لما تقرر في علم الله تعالى بالغيوب من مصالح المؤمنين الذين خصهم بأنه هدى لهم ورحمة، فأى كتاب فصل على علم مثل هذا العلم الذي صدر عنه تفصيله؟ ونحو ذلك قوله « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً » فان معنى القيم المنفي عنه العوج هو الذي بلغ الغاية القصوى في الأحكام والاتقان، وانتفاء الخطأ والتعارض

والتناقض وإيهام الضلال . والعوج بكسر العين يختص المعاني وبفتحها يختص الأجسام وإنما جمع بين نفي العوج وإثبات القيومية له وأحدهما يغني عن الآخر تأكيداً لذلك ومبالغة فيه فكيف يقوم مقامه سواء أَوْ يساوى كتاب بكتاب الله تعالى

﴿ النوع الخامس ﴾ قوله تعالى « كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » وفي معناها « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » وإنما كانت في معنى الأولى لأن القرآن أكد مما قضى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبعد من كل ريب فمن استراب في شيء منه فهو فيما سواه أعظم ريلاً ومن ولى بالنظر في دقائق الكلام المختلف فيها بين أهله وأعرض عن التدبر لكتاب الله والفرق بين نصوصه وظواهره وخصوصه وعموماته من غير أن يحكم دليل ماقطع به ويستوثق من صحته

ثم يسمع نصوص القرآن تخالف ما هو عليه فيعتقد فيها من تحمل وجوه المجاز ما لا يصح مثله في العربية ولا موجب له لو حقق النظر في الفطرة السليمة العقلية ، وذلك مثل من يقطع على استحالة تسبيح الطير وغيرها من الحيوان مع قوله تعالى « والطير صافات كل قد علم صلواته وتسبيحه » وقوله « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حايماً غفوراً » وقوله تعالى حكاية عن نبيه سليمان عليه أفضل الصلاة والسلام « يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل

شيء ان هذا هو الفضل المبين » وقوله تعالى « وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون » وقوله عز وجل « قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من من قولها » الآية وقوله تعالى حكاية عنه عليه السلام « وتفقذ الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من مغائبين * لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبجنه أو ليأتيني بسلطان مبين * فكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين * إني وجدت امرأة تملكهم » الآيات إلى السجدة وقد تأولها الزمخشري الا كلام النملة والهدهد فلم يستطع ولزمه بذلك الحق وان كان اقراره بكلامهما يدل على جواز الجميع وليس المسوغ للتأويل الا عدم الجواز واعتذارهم بالفرق بأن كلام النملة والهدهد معجز خارق لأن للحيوان البهيمة كلاما مردود بوجوه خمسة: منها أن المعجز لا يكون الا بعد الدعوى للنبوة على وجه يعلمه المكذب والمستدل وعلم كلام الطير والنملة من خواصه عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى « علمنا منطق الطير » ومنها ان قوله في الهدهد لا عذبنه عذابا شديدا أو لأذبجنه يدل على أنه عاقل مستحق للعقوبة . وثالثها ان قوله سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين دليل على أنه متكلم مختار ولو كان ذلك معجزا لكان الكلام في الحقيقة لله تعالى عز و علا ولو كان كذلك لوجب العلم بصدقه . ورابعها ان قوله تعالى في النملة « فتبسم ضاحكا من قولها » دليل على ذلك ولو كان معجزا منسوبا الى الله تعالى لم يكن لضحكه منه وجه ولكان بالروعة

منه والاحلال له أولى. وخامسها انه لا مانع في العقل من صحة ذلك ألبتة ونحن نشاهد لها من الحزم منا والبعد من المضار وحسن الخيلة في كسب المعيشة والتألف والتعارف والتعاون والتفاهم ما يؤيد ذلك مع ما جاء في الحديث على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم البين لكتاب الله تعالى من ذلك وقد ذكر الامام المهدي محمد بن المطهر (١) عليهما السلام جملة صالحاته من ذلك في تفسير قوله تعالى « ويلعنهم اللاعنون » وذكر فيه ما ذكره السيد الامام الناطق بالحق ابو طالب في أماليه من كلام الثعلب وطول الكلام في هذا في قدر كراس في كتابه عقود العقيان ومن مواضع ذلك كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم للقاضي عياض رحمه الله تعالى فانه افرد ذلك في فصل تركته اختصارا والقصد بذكر هذا تمثيل ما حذرت منه من التزم الايمان بما في كتاب الله تعالى مما تناوله بعض المتكلمين ويعتقدون القطع بطلان صحته ويتمحلون له من التجوز ما يتنزه أحدهم عن مثله في كلامه وبيانه

﴿النوع السادس﴾ انه قد اختص من شرائف الصفات بما لم يشار. كفيه غيره من كونه كلام الله تبارك وتعالى، وكونه معجزا ومن أنه قرآن مجيد في لوح محفوظ، وقرآن كريم في كتاب مكنون، وكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وانه نور، وانه شفاء لما في الصدور ومنه قوله تعالى « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد » فجعل أهل العلم الحق الذين هم العلماء حقا هم المختصون بمعرفة ذلك

(١) الإشارة الى كلام الامام محمد بن المطهر في كلام الحيوان البيهقي

وكذلك في الحديث عن علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «القرآن هو الشفاء» رواه السيد ابوطالب في أماليه وابن ماجه بنحوه في كتاب الطب من سننه فماسبب نقصانه وقصوره؟ فان ادعى هذا الجاهل ان السبب انه لم يذكر فيه حجة أو كذبه نصوص القرآن ونصوص علماء الاسلام وان ادعى ان القصور في عبارته أو كذبه الضرورة والاجماع

﴿ النوع السابع ﴾ مما يدل على تعظيم القرآن عقلا ان العقلاء مازالوا يستدلون على حسن الكتب وعظم نفعها بمقدار صاحبها وقالت العرب «وكل اناء يرشح بما فيه» ولا شك ان تأليف العلماء قد تفاضلت على قدر علومهم والقرآن كلام علام الغيوب وقد أنزله هدى وشفاء ونورا وبيانا ولا شك ان في العلوم مصالح ومفاسد كما في قوله تعالى في تعلم السحر «ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم» وقال في الساعة «أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى» وقال «ولو أراكم كثيرا لفشتهم ولتنازعتم في الأمر» وقال تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبدل لكم تسؤكم الى قوله قد سألتها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين» وفي قوله تعالى للجواريين «إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فاني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين» اشارة الى ان زيادة العلم في بعض المواضع قد تكون سببا في زيادة العذاب فيكون مصلحة في طي كثير من العلوم واليه الاشارة بقوله عز وجل «وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون» وفي سبب نزولها حديثان عن ابن عباس وجابر بن عبد الله

رضى الله عنهما ورجال الصحيح كل منهما رجال خرجهما الهيثمي في مجمع الزوائد مفرقين في تفسير سورة هود وتفسير الاسراء فاذا تقرّر هذا فالرجوع الى كتاب من يعلم من مصالحنا ومفاسدنا ما لا نعلمه أولى بنا والله يعزينا وأنتم لاتعلمون وهذا كله بعد علمنا بانه كلام الله بدليل المعجزات وطريقة السلف كما سيأتى بيانه مبسوطا ان شاء الله تعالى

﴿النوع الثامن﴾ ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واهل بيته من الحث على الرجوع الى كتاب الله وتفضيله على غيره مما فيه خير وهدى وتقصى ذلك يطول وعمل فلنقتصر من ذلك على حديث مشهور يذكر بامثاله وذلك مما رواه السيد الامام أبو طالب (١) عليه السلام في أماليه والحافظ المحدث ابو عيسى الترمذى في جامعه من حديث الحارث بن عبد الله الهمداني صاحب على عليه السلام قال مررت في المسجد فاذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي عليه السلام فاخبرته فقال اقد فعلوها قلت نعم قال اما انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « الا انها ستكون فتنة قلت فما الخرج منها يا رسول الله قال كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الالهواء ولا تلبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه هو الذى لم ينته الجن

(١) حديث شريف عن أمالي الامام ابى طالب والترمذى في الرجوع الى القرآن

إذ سمعته حتى قالوا انا سمعنا قرآنا عجيباً يهدي الى الرشداً منا به من قال به صدق ومن عمل أجر ومن حكم به عدل ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم انتهى هذا الحديث الجليل وقد رواه السيد الامام أبو طالب عليه السلام في أماليه بسند آخر من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنحوه ورواه أبو السعادات ابن الأثير في جامع الاصول من طريق ثالثة من حديث عمر بن الخطاب ولم ينزل العلماء يتداولونه فهو مع شهرته في شرط أهل الحديث متلقى بالقبول عند علماء الاصول فصار صحيح المعنى في مقتضى الاجماع والمنقول والمعقول ﴿النوع التاسع﴾ اجماع علماء الاسلام من جميع الطوائف على ان القرآن يفيد ما ادعيت من معرفة أدلة التوحيد من غير ظن ولا تقليد وكما ان المتكلم ينظر في كتب شيوخه ليتعلم منها الأدلة من غير تقليد غيره فكذلك من نظر في القرآن يتعلم منه الأدلة من غير تقليد بل القرآن العظيم هو الذى منه تعلم المتكلمون النظر لكنهم غالوا في النظر ولم يقتصروا على القدر الكافي النافع المذكور في كتاب الله تعالى وذلك يتضح بإيراد كلام علماء الفرق المختلفة في المصنفات الشهيرة وعدم انكار شئ من ذلك على أحد منهم في الازمنة الطويلة والقرون العديدة مع اختلافهم واختلاف المقررين لهم أغراضاً وبلداً وازماناً لم يجمعهم بلد ولا مذهب ولا زمن ولا نسب ولا غرض فأولهم أبو الأئمة وامام الأئمة أمير المؤمنين وحجة المحققين على عليه السلام وهو مشهور عنه في نهج البلاغة وغيره روى السيد الامام أبو طالب عليه السلام من ذلك ما يكفي ويشفى ولم يتأوله كما هو عادة فيما يجب تأويله عنده فقال اخبرنا أبي رحمه الله قال

أخبرنا أبي رحمه الله قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن سلام قال
 أخبرنا أبي قال حدثنا إبراهيم بن سليمان قال حدثنا علي بن الخطاب الخثعمي قال
 حدثنا أحمد بن محمد الانصاري عن بشير عن زيد بن أسلم أن رجلاً سأل
 أمير المؤمنين علياً عليه السلام في مسجد الكوفة فقال يا أمير المؤمنين
 هل تصف لنا ربنا فنزداد له حباً وبه معرفة، فغضب علي عليه السلام
 ونادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس حتى غص المسجد بأهله ثم صعد المنبر وهو
 مغضب متغير اللون فحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله
 عليه وآله وسلم ثم سرد الخطبة إلى قوله أيها السائل اعقل ما سألتني عنه
 ولا تسأل أحداً عنه بعدى فإني أكفيك مؤنة الطلب؛ وشدة التعقب
 في المذهب، فكيف يوصف الذي سألتني عنه وهو الذي عجزت الملائكة
 مع قريش من كرسى كرامته وطول ولهم به وتعظيمهم لجلال عزته
 وقربهم من غيب ملكوت قدرته أن يعلموا من علمه إلا ما علمهم وهم
 من ملكوت القدس بحيث هم من معرفته على ما فطرهم عليه فقالوا
 سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم؛ فعليك أيها
 السائل بما دل عليه القرآن من صفته وتقدمك فيه الرسل بينك وبين
 معرفته فأتم به واستضى بنور هدايته إنما هي نعمة وحكمة أوتيتها نخذ
 ما أوتيت وكن من الشاكرين وما كلفك الشيطان علمه مما ليس عليك في
 الكتاب فرضه ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا عن أئمة
 الهدى أثره فيكل علمه إلى الله سبحانه فانه منتهى حق الله عليك
 وله عليه السلام نحو هذا في وصيته لولده الحسن عليه السلام وهي خير وصية من

خير موص إلى خير موصى إليه وستأتى فينبغى تأملها حق التأمل والعمل
بما فيها ومراغمة المبتدعة بها

ومـنهم من أئمة العترة الطاهرة الامام المؤيد بالله يحيى (١) بن حمزة عليه
السلام فانه ذكر في أوائل كتابه التمهيد في القول بوجوب النظر فقال
إن أكثر القرآن مشتمل على ذكر الأدلة وشرحها . قال عليه السلام
ولنذكر منها آية واحدة ليقاس بها الباقي وهى قوله تعالى « أو لم ير
الإنسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين » إلى آخر السورة
قالتـه تعالى حكى فى هذه الآية انكار المنكرين للإعادة وقرر وجه شبههم
وأجاب عن كل واحدة منها بجواب يخصه وطول فى بيان ذلك إلى قوله
وأما الآيات الدالة على إثبات الصانع وصفاته والنبوة والرد على منكريها
فاكثر من أن تحصى * ومن علماء العترة وساداتهم الذين ذكروا ذلك وحشوا
عليه وصنفوا فيه السيد العلامة يحيى بن منصور رحمه الله تعالى ومن أواخر
ما صنف فى ذلك كتابه المسمى بالجمال الاسلامية فانه شـعنه بالاحتجاج
بالآيات القرآنية * ومن علماء الزيدية وقدماء الشيعة محمد بن منصور الكوفى
المتفق على علمه وفضله وقد بالغ فى هذا المعنى وصنف فيه كتابا مفردا
سماه كتاب الجملة والالفة ونقل منه السيد العلامة أبو عبد الله محمد بن على
ابن عبد الرحمن العلوى الحسنى فى كتابه الجامع الكافى الذى لم يصنف
فى فقه الزيدية مثله فقال فى المجلد السادس منه فى كتاب الزيادات مالفظه
وإنما جاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام بغاية الحجة على من سألها ما بين لله
وأُنزل فى كتبه اليها ولم يعد ذلك إلى غيره ولن تكون حجة أبلغ على الله من

حجج الانبياء عليهم السلام التي بلغوها عن الله تعالى خلقه ولا أهدي لهم إن قبلوها قال الله تعالى «قالت لهم رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والارض» وقال إبراهيم في محاجة قومه «أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآبائكم الأقدمون فانهم عدو لى الا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقنى وإذا مرضت فهو يشفين إلى قوله والذى يميتنى ثم يحيين» فدلهم عليه بالقدره والتدبير - وقال موسى عليه السلام فى مسألة فرعون إذ يقول «من ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» قال فبال القرون الأولى، قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى» الآية وقال فرعون وما رب العالمين قال موسى «رب السموات والارض وما بينهما إن كنتم موقنين» وقال موسى عليه السلام فى آية أخرى «رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون» فلم يتعمد موسى عليه السلام فى الجواب عند مسألة فرعون إياه غير ما أنبأ الله به فى الكتاب ، وفرعون المعين اعلمى العمين وأعتى العاتين وأخبت المتعنتين اجابه موسى عليه أفضل الصلاة والسلام عن الله عز وجل بالدلالة من خلق الله عليه ، وكذلك محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين سأله قومه عن الله عز وجل إذ يقولون من يعيد نافاً مرده الله تعالى بالجواب لهم «قل الذى فطركم أول مرة» وقال من لا شريك له «أولم ير الانسان أننا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم» وقال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم «قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون» فلم يكاف سبجانه نبىه صلى الله عليه وعلى آله

وسلم من الحجة والجواب غير ما قاله في الكتاب وبلغنا أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال له قومه انسب لنا ربك فنزل عليه جبريل عليه السلام بسورة قل هو الله أحد انتهى بحروفه وهذا أيضاً قول المعتزلة ممن صرح به منهم قاضي القضاة عبد الجبار فانه قال في المجلد الرابع من المحيط في النبوات في ذكر إعجاز القرآن ما لفظه واتفق فيه ايضاً استنباط الأدلة التي توافق العقول وموافقته ما تضمنه لاحكام العقل على وجه يبهز ذوى العقول ويحيرهم فان الله سبحانه بينه على المعاني التي يستخرجها المتكلمون بمعاونة وجهد بألفاظ سهلة قليلة تحتوى على معان كثيرة كما ذكره عز وجل في نقض مذاهب الطبيعيين في قوله تعالى « وفي الارض قطع متجاورات الآية » وفي الآيات التي ذكرها في نفي الثاني وفي غير ذلك من الابواب التي لا تكاد تحصى انتهى بحروفه (ومنهم الحاكم أبو سعيد المحسن بن كرامة) فانه قال في شرح العيون في الفصل السابع منه ما لفظه فلا شبهة أنه دعاهم يعنى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى هذه الاصول والنظر في الأدلة بما تلا عليهم من الآيات في أدلة التوحيد والنبوات

ومنهم مختار بن محمود أحد ناصري مذهب ابني الحسين البصري فانه قال في كتابه المجتبى في الاستدلال بطريقة الاحوال في الطريق الرابع من الباب الثاني بعد ذكر الاستدلال وقد جمعها الله تعالى في قوله « إن في خلق السموات والارض الى قوله لا آيات لقوم يعقلون » وقال في مسألة الاطفال إن التمسك بكتاب الله المبين أقوى أركان أصول الدين وكذلك هو قول سائر الطوائف * وقال القاضي عياض في الشفاء في ذكر إعجاز القرآن

ومنها: جمعة لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة ولا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل نبوته خاصة معرفتها ولا القيام بها ولا يحيط بها أحد من علماء الامم ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم فجمع فيه من بيان علم الشرائع والحجج والتنبيه على طرق الحجج العقلية والرد على فرق الامم براهين قوية وأدلة بينة سهلة الالفاظ موجزة المقاصد رام للمتخذلقون بعد أن ينصبوا أدلة مثلها فلم يقدر واعليها كقوله «أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم. وقوله تعالى قل يحيبها الذى أنشأها أول مرة. وقوله لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» إلى ما حواه من علوم السير وأنباء الامم والمواعظ والحكم* وقال الفخر الرازى الاشعرى فى كتابه الاربعين فى الكلام على النبوات فى ذكر المعجزات العقلية: بل أقر الكل بأنه لا يمكن أن يزداد فى تقرير الدلائل على ما ورد فى القرآن* وقال الغزالى وهو من أئمة الطائفة الشافعية فى الفقه والاصول فى الاصل الاول من الركن الاول من الرسالة القدسية فى معرفة وجود الرب تعالى: وأولى ما يستضاء به من الابواب ويسلك من طريق النظر والاعتبار ما أرشد اليه القرآن فليس بعد بيان الله بيان ثم ساق الآيات القرآنية* وقال صاحب الوظائف فى مذهب أهل الحديث والاثر فى الدليل على معرفة الخالق سبحانه ووحدايته وعلى صدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعلى اليوم الآخر: وأدلة هذه الامور فى القرآن. أما الدليل على معرفة الخالق فمثل قوله تعالى «قل من يرزقكم من السماء والارض أم من يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الامر فسيقولون الله»

وقوله «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد) وقوله تعالى (فلينظر الانسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الارض شققاً أنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخللا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا) وقوله تعالى (ألم نجعل الارض مهاداً والجبال أوتاداً إلى قوله وجنات ألفافا) وأمثال هذه الآيات وهى قريب من خمسمائة آية ينبغى للخلق أن يعرفوا جلال الله وعظمته بقوله الصادق المعجز إلى قوله فان الدلالات الشرعية الصادرة عن اللطيف الخبير وعن رسوله البشير النذير صلى الله عليه وآله وسلم تنفع وتسكن النفوس وتغرس فى القلوب الاعتقادات الصحيحة الجازمة . وأما الدليل على وحدانيته فيقع بما فى القرآن من قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) ونظائرها* وأما صدق رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فيستدل عليه بقوله (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ونظائرها وأما اليوم الآخر فيستدل عليه بقوله (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) وبقوله (أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة مخلوق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) وبقوله (يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة الى قوله وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شئ قدير)

وأمثال ذلك في القرآن كثيرة فهذه أدلة قاطعة جلية تسبق إلى الافهام
بيادى الرأى وأول النظر ويشترك كافة الخلق في دركها فادلة القرآن والسنة
مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان بل كالماء الذى ينتفع به الصبى والرضيع والرجل
القوى ولهذا كانت ادلة القرآن سائغة جلية الاترى أن من قدر على الابتداء
فهو على الاعادة أقدر وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه .
وأن التدبير لا ينتظم فى دار واحدة بمديرين فكيف ينتظم فى جميع العالم
وأن من خلق علم ثم خلق كما قال تعالى «الاي علم من خلق وهو اللطيف
الخبير» فهذه أدلة تجري مجرى الماء الذى جعل الله منه كل شىء حيا إلى آخر كلامه
. وبالجمله فتقصى كلام علماء الاسلام فى مثل هذا يمل والحاجة الى الاحتجاج
عليه من عود الدين غريبا من أدل دليل على عناد المخالف .

وليس يصح فى الافهام شىء إذا احتاج النهار الى دليل

﴿فصل﴾ فى ذكر ما تيسر من نصوص أهل البيت عليهم السلام على الاكتفاء
بالجمل والحث على ذلك وكراهة الغلو فى علم الكلام ليعلم بذلك مذهبهم
ويعلم به كذب مدعى إجماعهم على خلافه من ذلك قول على عليه السلام فى
فى وصيته لولده الحسن عليهما السلام «واعلم يا بنى أن أحب ما أنت آخذ
به من وصيتى تقوى الله تعالى والاقتصار على ما فرضه الله عليك والاخذ
بما مضى عليه الاولون من آباءك والصالحون من أهل بيتك فانهم لم يدعوا
النظر لانفسهم كما أنت ناظر وفكروا كما أنت مفكر ثم ردكم آخر ذلك إلى
الاخذ بما عرفوا والامساك عما لم يعرفوا . فان أبت نفسك أن تقبل

ذلك دون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بتفهّم وتعلم لا بتورط
 الشبهات وغلو الخصومات إلى آخر ما ذكره في هذا المعنى في نهج البلاغة.
 وتأوله ابن أبي الحديد بما يستحي من ذكره: من أن ذلك لعلم على عليه السلام بقصور
 ولده الحسن عليه السلام من درك هذا العلم. وكفى شاهداً على بطلان هذه البدعة
 ما أدت إليه من تفضيل شرار القرون في قواعد الإيمان على ریحانة المصطفى
 سيد شباب أهل الجنة المجمع على إمامته بعد أبيه عليهما السلام
 وكونها لا تصح إلا مع تعسف التأويلات الرادة لكتاب الله عز وجل ثم
 لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم لأقوال السلف وأفعالهم
 وتقريراتهم ثم لنصوص الأئمة من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه
 وآله وسلم. وكيف يظن بامير المؤمنين أنه يجعل وصيته لولده الحسن من
 أغمض المتشابهات وأدق الشبهات؟ هيئات هيئات لولا دفع الضرورات.
 وابتغاء الفتنة بالتأويلات. ومن ذلك ما تقدم قريبا عن علي عليه السلام
 في الرجوع إلى كتاب الله. والذي حمل ابن أبي الحديد مع علمه على ذلك
 التأويل ظنه أن ذلك الكلام يستلزم جواز الجهل بالله تعالى وتقليد كل
 أحد لأهله. وليس كذلك لأنه إنما امره باتباع الأولين من أهله وهم
 حجج الآله على البرايا منهم على عليه السلام المنصوب علما عند الاختلاف
 بل منهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي شهدت بصدقه الآيات
 والمعجزات لكنه امره أن يكتفي بالدليل الجلي الدال على صدقه الذي علم
 على عليه السلام أن الحسن قد عرفه ونهاه عن التعرض للتفاضل والله
 أعلم * ومن ذلك قول علي عليه السلام لم يطلع العقول على تحديد صفته ولم

يجبها عن واجب معرفته فهو الذي تشهد له أعلام الوجود على اقرار قلب ذوى
الوجود . ونصره ابن أبى الحديد فى شرحه وعزا نصرته إلى قاضى القضاة
قال وليس هو قول الجاحظ لان الجاحظ ادعى فى جميع المعارف انها ضرورية
وهذا فى معرفة إثبات الصانع فقط ولفظه: ونحن ما دعينا فى هذا القيام إلا
أن العلم بإثبات الصانع فقط هو الضرورى فاين أحد القولين من الآخر
انتهى بحروفه- ومن ذلك ما ذكره المؤيد بالله فى الزيادات فى ذكر مسائل
الاجتهاد فقال مالفظة: والاولى عندى الاحتياط فى مسائل الفقه ما أمكن
والتوقف فى مسائل الكلام . وقال بعد ذلك فى فصل فيما يجب على القاضى
والمستقضى: والاولى عندى ترك الخوض فيما لا تمس الحاجة إلى معرفته من
علم الكلام لان الصحيح من المذهب أن الجهل قبيح ويجوز أن يصير الى حالة
يستحق صاحبها الخلود فى النار وهذا غير ما مون كونه لو نظر فى مسئلة من الكلام
وأخطأ ولم يشتغل بها وترك النظر فيها أمن من ذلك ولو أصاب كان ما يستحق
من الثواب على الاصابة يسيراً . والعاقل إذا اختار الحزم اختار الاعراض
عنها دون النظر فيها وهذا كرجل يقال له: إن خرجت إلى الديلم أعطيتك
ديناراً وهو يملك مائة درهم ولا حاجة له إليه ويكون فى الطريق خطرو وهو
يعلم أنه ربما يناله ضرر يؤدي الى تلف النفس. فالعاقل الحازم يختار فى مثل
ذلك ترك سلوكه . وكل ذلك فيما لا يجب عليه فى الوقت من المسائل . وإن كان
فيما بعد يجوز أن تتفق له شبهة يجب عليه النظر فى حلها وربما يحتاج الى علوم
كثيرة لتحلها بالأهم يجب أن يشتغل

ألا ترى أن من ترك طلب قوت يومه وهو يحتاج اليه واشتغل بتحصيل

قطن يحتاج اليه بعد شهر للبس الشتاء لا يرضى فعله . اه بحروفه
ومن ذلك ما أورد السيد العلامة أبو عبد الله الحسنى في كتابه الجامع
الكافي فقه الزيدية في المجلد السادس منه في ذم ما أحدث الناس من علم الكلام
والامر بلزوم السنة وما درج عليه السلف فانه طول في ذلك ونقله عن عيون
أئمة العترة المجمع على علمهم وفضلهم مثل علي بن الحسين وولده زيد وحفيده
جعفر الصادق وعبد الله بن موسى وأحمد بن عيسى بن زيد والحسن بن
يحيى بن الحسين بن زيد بن علي رضي الله عنهم

ومحمد بن عبد الله النفس الزكية ، و ابراهيم بن عبد الله ، والقاسم بن
ابراهيم ، وأخيه محمد بن ابراهيم ، ورأس شيعتهم العالم الكبير محمد بن منصور
وصنف في ذلك كتاب الجملة والالفة .

قال محمد بن منصور في كتاب أحمد بن عيسى ، كان عبد الله بن موسى
رضي الله عنه يكره الكلام فيما أحدث الناس وكان إذا ذكر له رجل ممن يتكلم
فيما أحدث الناس من الكلام يقول اللهم امتنع على الاسلام ويمسك
وقال محمد في كتاب الجملة ، رأيت أحمد بن عيسى يترحم على من يقول
بخلق القرآن ومن لا يقول به . وكان عنده الاخذ بالجملة محمودا ، وترك
ما فيه الفرقة وهو عنده الاتباع للسلف . وقال محمد بن منصور في كتاب
الجملة وذكر اختلاف الناس واكفار بعضهم بعضا فقال رأيت المتفرقين
وعاشرت المختلفين من الخاصة والعامة من علماء آل الرسول وأهل
الفضل منهم ومن غيرهم من أهل العلم والفضل من الشيعة الموحدين إنكار
المنكر وحياطة الدين فما رأيتهم يكفر بعضهم بعضا ولا يستحلون ذلك

ولا يتبرأ بعضهم من بعض ، بل قد رأيت بعضهم يتولى بعضاً ويترحم عليه بعد المعرفة منهم بمخالفة بعضهم لبعض . ثم سرد أشياء مما شاهده من ذلك عن القاسم وغيره الى قوله وكان عمرو بن الهيثم من أصحاب سليمان بن جرير يقول بخلق القرآن وسمعته يقول لارحم الله ابن أبي دؤاد كان الناس على جملة تؤديهم الى الله فطرح بينهم الفرقة يعني حين أظهر المحنة في القرآن

قال محمد بن منصور وكان عمرو بن الهيثم وبشر بن الحسن ومحمد ابن يحيى الجبجى دعاة لعبد الله بن موسى وهم يقولون بخلق القرآن . قال وكان عبد الله بن موسى قد بعث ابنه أو أحدهما مع بشر بن الحسن الى طاهر بن الحسين يدعوه الى هذا الامر مع معرفة عبد الله بن موسى بقول بشر ومعرفة بشر بعبد الله وقوله بالجل فلم أر أحداً من هؤلاء دان بالبراءة ممن خالفه .

قال محمد وسمعت القاسم يقول ما رأيت كلامياً قط له خشوع ثم قال : الجمل الجمل . وقال محمد وقد عاشرت رؤساء المعتزلة ومن لأحصى منهم ممن يقول بهذا القول (يعنى خلق القرآن) منهم جعفر بن حرب وجعفر بن مبشر القصبى ومحمد بن عبد الله الاسكافى فاسألنى أحد منهم قطع عن ما تختلف الناس فيه . ولا كاشفونى عن شيء من ذلك

وأخبرنى أبو سهل الخراسانى أنه كان رسول سهل بن سلامة وهو من كبار المعتزلة وعبادهم إلى عبد الله بن موسى يدعوه الى أن يتقلد هذا الامر ويكون سهلاً عوناً له عليه .

قال محمد فهدا غير سبيل المتحليين اليوم للدين وغير ما أظهر واو شرعوا من التغاين والبراءة والتكفير . وهذا هو الفرق والاختلاف الذى نهى الله عنهما فى القرآن فى قوله « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » وقوله « وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » فأخبر الله سبحانه أن اختلافهم بنى من بعضهم على بعض

وأخبر عز وجل أن فى الفرقة الضعف والفشل فحذر من ذلك بقوله (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) يقول عز وجل « فتذهب هيتكم » فهذا ما ندب الله إليه مع ما رأينا عليه السلف الصالح المتقدم الذين يصالح أن نجعلهم بيننا وبين الله تعالى لا هم لا يخلون من إحدى منزلتين إما أن يكونوا علماء أن الديانة فيما بينهم وبين الله تعالى القول (١) ببعض هذه المقالة التى تنازع الناس فيها حق واجب لازم وأجزاء من ذلك الاضرار ورأوا الصواب والرشد فى الامسالك عن الاظهار لما فيه من الفرقة والاختلاف الذى نهى الله عنه فرأوا الجمل وهو القول بظاهر القرآن كافياً مؤديا للعباد إلى الله عز وجل فتمسكوا بذلك . فينبغى لمن أم الدين وقصد الى الله تعالى الاقتداء بهم والتمسك بسبيلهم ، أو يكونوا لم يعتقدوا فى ظاهر الامر وباطنه القول بظاهر القرآن والجمل المجمع عليها فقد يجب الاقتداء بهم أيضاً فى ذلك . قال محمد وهذا أحمد بن عيسى قد اجتمع عليه المختلفون واتخذ ممن

(١) لعل القول بالنصب بدل من الديانة وحق واجب اعط خبر أن اه مصححه

يشاركه في أمره جماعة من المتفرقين كتب إليه عبد الله بن محمد بن سليم يسأله عن القرآن وغيره فكان مما كتب إليه : ذكرت اختلاف الناس في القرآن ولم يختلفوا أنه من عند الله فهذا من أحمد دليل على أن الاخذ بظاهر القرآن والجميل المجمع عليها مجزئ مؤد الى الله تعالى وقد علمت أن رجال أحمد ابن عيسى الذين كان يوجههم في أموره مختلفين

منهم حسن بن هذيل على مذهب أبي الجارود ومنهم عبد الرحمن بن معمر وهو يظهر القول بخلق القرآن لا يستتر به ومخول بن ابراهيم وأمثالهم من المختلفين فلم نره بفرقة يخالف فيها أخرى وكان رحمه الله عالما بما يضيق عليه من ذلك وما يتسع له في أمر دينه ولوضاق عليه ذلك لم يفعله

وهذا الحسن بن يحيى أنا متصل به منذ أربعين سنة أو قريبا من ذلك يعاشر ضروبا من المتدينين مختلفين في المذاهب فما رأيت مع قوله بالجملة وكراهته للفرقة امتحن أحدا ولا كشف له عن مذهبه بل قد رأيت يعممهم بالنصيحة ويمحسن اليهم العشرة ويترحم على من مضى من سلفه وأهل بيته ممن يوافقه في المقالة ويخالفه * هذا مع جلاله قدره وكثرة علمه ومعرفته بما يلزمه في ذلك ويجب عليه

قال محمد في كتاب الجملة وأخبرني من أثق به من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن محمد بن عبد الله أنه أوجب على من قام بهذا الامر الدعاء لجميع المتدينين وقطع الالقب التي يدعى بها فرق المضلين وغلق الابواب التي في فتح مثلها يكون عليهم التلف والامساك عما شئت الكلمة

وفرق الجماعة واغرى بين الناس فيما اختلفوا فيه وصاروا أحزابا والدعاء لطبقات الناس من حيث يعقلون الى السبيل التي لا ينكرون وبه يألفون فيتولى بعضهم بعضا ويدينون بذلك فان اجماعهم عليه إثبات للحق وإزالة للباطل. قال محمد وكذلك سمعنا عن ابراهيم بن عبد الله انه سئل عن بعض ما يختلف الناس فيه في المذاهب فلم يجبه فيه وقال أعينوني على ما اجتمعنا عليه حتى نتفرغ فيه لما اختلفنا

حدثنا أبو الحسن محمد بن جعفر بن محمد النحوي قال أخبرنا احمد بن محمد ابن سعيد قال حدثنا محمد بن منصور قال قال لي القاسم بن ابراهيم أخبرني بعض من أثق به من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن محمد بن عبد الله بن الحسن أنه قال يجب على من قام بهذا الامر الدعاء لجميع الناس وقطع الالتساب التي يدعى بها فرق المضلين وذكر مثل هذا الكلام* وروى عن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال الزم ما اجتمع عليه المتفرقون. وروى عن علي عليه السلام أنه قال يا بردها على الكبد إذا سئل المرء عما لا يعلم أن يقول الله أعلم انتهى بعض ما ذكره السيد الامام العلامة أبو عبد الله الحسن في كتابه وهو نبذة يسيرة مما ذكره رحمه الله وما زال في أهل البيت من يدعو إلى هذا ويحث عليه من متقدميهم ومتأخريهم ويوضح ذلك تأليفهم المختصرات وبسطهم في غيره واقتصارهم في العقائد على الاجمال والاشارات ومن أشهر ذلك ما أودعه محمد بن سليمان رحمه الله في أول المنتخب علي مذهب الهادي عليه السلام فانه سأله عما يكفي في معرفة الله سبحانه ودليل ذلك فوجز له الكلام في مقدار عشرة أسطر وتبرأ عليه

السلام في خطبة الاحكام من كل معتزلى غال. وكذلك كتاب البالغ المدرك له عليه السلام أوجزه غاية الإيجاز كما فعل في أول المنتخب. وسيأتي بلفظه وكذلك السيد أبو طالب في شرحه له وكذلك السيد الامام المؤيد بالله عليه السلام له في ذلك كتاب التبصرة مختصر جدا وله في آخر الزيدات ترهيد كثير في هذا الفن كما مر بالفاظه. وقد توسع هذان السيدان الامامان الاخوان عليهما السلام في علوم الفقه وأصوله وصنف في ذلك الكتب الخافلة كشرح التحرير في الفقه والحديث والامالي في الحديث والمجزي في أصول الفقه للسيد أبو طالب (وشرح التجريد في الفقه والحديث للسيد المؤيد بالله) ولم يتوسعا في علم الكلام ولم يصنفا فيه تصنيفا خافلا مع مخالطتهما لأئمتيه. وكونهما كانا في فوره وسورته (١) واعامت لأحد منهم عليهم السلام ولا من ذرياتهم المتقدمين في ذلك تأليفا مبسوطا أما صنفه بعض العجم منهم عليهم السلام وتبع فيه قاضي القضاة من شرح الاصول فانه شيء نادر فيهم ليس من شأنهم مع أنه متأخر وإنما الكلام في قدامتهم والذي يشهد بما ذكرته أن من بسط التأليف في ذلك من متأخريهم على ندوره لم ينقل لهم في دقائق الكلام اختلافا ولا اتفاقا كما لم ينقل للسلف المتفق على صلاحهم وإنما ينقلون كلام شيوخ الاعتزال وانظر الى كتب اللطيف من الكلام مثل تذكرة ابن متوية وما شاكلها فانه لا ينقل عنهم عليهم السلام فيها شيئا وليس لقصورهم في العلم لكن لكرهتهم الخوض في هذا الفن. وقد اشتهرت عنهم الحكايات والوصايا والاخبار

(١) الفوراهيجان والسورة السطوة يريد أنهما متممكتان منه جدا لم يكن اهما مصححه عيد

الاشعار فمن ذلك قول السيد العلامة يحيى بن منصور بن العفيف بن
فضل رحمه الله تعالى في ذكر المعتزلة:

ويرون ذلك مذهبا مستعظما من طول أنظار وحسن تفكير
ونسوا غنا الاسلام قبل حدوثهم

عن كل قول حادث متأخر
ما ظنهم بالمصطفى في تركه ما استنبطوه ونهيه المتكرر
أعلى صواب أم على خطأ مضى

فمن المصيب سوى البشير المنذر

أ يكون في دين النبي وصحبه	نقص فكيف به ولما يشعر
أوليس كان المصطفى ببيانه	وتامه أولى فلم لم يخبر
ما باله حتى السواك أتى به	وقواعد الاسلام لم تتقرر
ان كان رب العرش أكمل دينه	فاعجب لمبطن قوله والمظهر
أو كان في إهمال أحمد غنية	فدع التكلف للزيادة واقصر
ما كان أحمد بعد منع كاتما	لهداية كلا ورب الشعر
بل كان ينكر كل قول حادث	حتى المئات فلا تشك وتمتري
وكذا القرابة والصحابة بعده	ما بين راو ضابط ومفسر
أولين هاد للانام بعلمه	أو مورد لغريبه أو مصدر
كخليفة المختار وارث علمه	رب العلوم ابى شبير واشهر
ما كان منهم من يرى متعمقا	كلا ولا نقلوه عنه فقصر
بل جاء عنه وعنهم متواترا	خطر التعمق والغلو لمبصر

عن خبرة وبصيرة وتيقن لا عن قنوع قاصر وتمذر
لكن تأسي منهم بمحمد وتدبر للذكر أى تدبر
فالزم بعروة دينهم مستمسكا فلقد هديت إلى سبيل نير
لا يخذعنك زخرف متصور شتان بين تيقن وتصور
إن الخلاف بكل فن ممكن إلا الأصول فانه لم يؤثر
فدع الخلاف الى الوفاق تورعا فطريقة الاجماع غير منكر
كم بين معتمد لقول ظاهر ومقال حق واضح لم ينكر
ومجاوز حد الوفاق مخاطر قد صار بين مفسق ومكفر
من خارج أو مرجى أو رافض

أو ذى اعتزال مبدع أو مجبرى
أو غير ذلك من مذاهب جمّة حدثت ودين محمد منها برى
يكفيك من جهة العقيدة مسلم ومن الاضافة أحمدى حيدرى
وقال رحمه الله تعالى

يا طالب الحق ان الحق فى الجمل وفى الوقوف عن الافراط والزال
هى النجاة فلا تبغى بها بدلا بذاتك حديث السادة الاول
وقال السيد العلامة حميدان بن يحيى القاسمى رحمه الله وفى كلامه ما
أذهب اليه من التهمة بتعمد العناد :

زال أهل التفعيل والانفعال وأزيل التطريف بالاعتزال
حرفوا بحكم النصوص فصاروا قدوة التليس والاضلال
ولهم فى التوحيد أقوال زور مزريات فى الزور للاقوال

رائقات بالمين كل محال	فائقات في الذكر كل محال
شاهدات لمفرغ الوهم فيها	باعتداء الحدود والايغال
أصلوا للقياس أصل اصطلاح	جل عن أصل صلحهم ذوالجلال
لقبوا الجسم بالذوات ليقضوا	بإشتراك في حالة وانفصال
وادعوا أن للمهيمن ذاتا	شاركت ثم فارقت في خلال
ثم قالوا ما فرعوه وخابوا	في شروح لهم عراض طواب
باجتراء في قولهم وابتداع	وبطن في زعمهم واتحال
واختيال في فهمهم للمعاني	بين ليس فيه فرق بحال
نحو ما قد جمعت منها مثالا	ههنا فاستمع لضرب المثال
أزلى ثبوته وقديم	ووجود ما إن له من زوال
وكذا الفرق بين أمر وشيء	واشتراك الذوات والامثال
ومزيد على الذوات وغير	واقتضاء الاحكام والاغلال
أى فرق ما بين ثنتين منها	في صحيح الذكا ووضع المقال
ليس ان قيل ثابت أزلى	هو الا كربنا المتعالى
مثل من قال لم يزل كل شيء	ذا ذوات ثوابت الاحوال

ما أتى التكليف قول بهذا

في مقال يروى ولا في فعال

بل أتى الامر بالتفكر في الصن	مع وترك اتباع رأى الرجال
غير من كان مصطفىا اعتصام	أو حكما في قوله غير غال

وقال في أرجوزته التي سماها المتوكل على الله المطهر بن يحيى: المزلزلة
لأعضاء المعتزلة:

وما الذي ألجأهم إلى الخطر	والخوض في علم الغيوب بالنظر
وما يقال فيه للمخطئ كفر	وفي النبي أسوة ومعتبر
وقدوة محمودة لمن شكر	ولم يخالف في الوهوم والفكر
فانه للفكر في الله حظر	وفي عجب الصنع بالفكر أمر
فمن يكون بعده من البشر	أدرى بما يأتي به وما يذر
ليس الإله الواحد القدوس	كما يظنه الذي يقيس
إذ كل فكر دونه محبوس	وكما تخاله النفوس
فدرك مكيف محسوس	فاحذر شيوخا علمها تلبس

وهما التدقيق والتدليس	قد حازها دون الهدى إبليس
ما الفرق بين مقتض وعله	وزائد وكثرة وقله
إلى اصطلاح قادة مضله	قد سلكوا في طرق مذهبه
فاقنع بنحلة النبي فحله	قنوع ذي دين مسلم له
فالمصطفى من أهل كل مله	أعلم باللدلول والادله
وبالفروض الواجبات لله	والشيخ أدنى أن يكون مثله

التي ما ذكره في الأرجوزة وله رسائل كثيرة في مجلد محتو على ترك التعمق

فى علم الكلام والبدع فى الاسلام مما لا مزيد عليه وفى مجموعه هذا تقرير كثير ممن عاصره من أهل البيت عليهم السلام كما ذكره وانه مذهب أهلهم وممن ذكر عنهم الامام المهدي الشهيد أحمد بن الحسين والامام المتوكل على الله المطهر بن يحيى وقرر ذلك بعدم السيد العلامة محمد ابن يحيى القاسمى وصنف فيه كتابا معروفاً، وكتب الامام المهدي محمد بن المطهر على كتاب السيد محمد بن يحيى القاسمى أنه معتقده الا الجوهرفان له فيه نظراً وتابعهم على هذا ولده السيد الواثق المطهر بن محمد بن المطهر وقال فى ذلك فى قصيدته البليغة التى أولها :

لا يستزك أقوام بأقوال ملفقات حريات بابطال

لا تتخذ غير آل المصطفى وزراً

فالآل حق وغير الآل (١) كالأل

ولولا طولها وخوف الاملال لذكرتها كلها فانه روى فيها عن أهل البيت كلهم عليهم السلام انكار مذهب المعتزلة وخوضهم فيما لا يعلمه إلا الله تعالى . وذكر الأئمة بأسمائهم منزلها لهم عن ذلك منهم على بن الحسين ، وولده الباقر ، وزيد ، وجعفر الصادق ، والقاسم ، وابنه محمد ، والهادى ، والمنصور ، وأحمد بن الحسين . والامام الحسن بن محمد . والمطهر بن يحيى . ومحمد بن المطهر نقلت ذلك من شرح هذه القصيدة المسمى باللائىء الدرية فى شرح الايات الفخرية للسيد محمد

(١) المراد بالآل الاول أهل البيت وبالثانى السراب اهم مصححه عيد الوصيف

ابن يحيى بن الحسن القاسمي المتقدم ذكره وقد طول في شرحها وبين فيه طرق الرواية عنهم فأفاد وأجاد رحمه الله تعالى

وذكر الامام المنصور بالله عليه السلام في كتاب المذهب ما يدل على قول أهل الجمل * واحتج بأن رجلاً سأل أمير المؤمنين عن قسم أقسم فيه بالذي احتجب بسبع سموات وحنث فيه ، فقال له علي عليه السلام لا شيء عليك لأنك حلفت بغير الله ثم أمره بالجهاد (١) قال المنصور بالله فلم يأمره بلزوم المدرسة لتعليم الادلة أو كما قال وكان سألت رجل من العامة عن قوله تعالى « أو من وراء حجاب » . وقوله تعالى (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) قال كيف يحيط حجاب بالله تعالى فلم أدر ما أقول حتى نظرت فألهمني الله سبحانه إلى جواب حسن وهو أن الحجاب حجاب للعبد يحيط به فهو المحجوب المحصور لقوله تعالى (إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) ولم يقل إنه محجوب عنهم ثم انى وجدت لى الصنوجمال الدين الهادى بن ابراهيم قصيدة بليغة كبيرة نصر فيها هذا المذهب أولها :

أغنى الصباح عن المصباح فاعتبرى

وأنعم الفكر فى الآيات بالنظر

من سير الشمس تجرى فى مسالكها

وجاء فى ظلمة الديجور بالقمر

من علق الفلك الأعلى وسيره
 من وتدا الأرض بالشم الجبال ومن
 من سخر الريح تجري وهي خافقة
 من أنزل الغيث وقت الاحتياج له
 من أنبت الحب بقلائم أخرجه
 من أبدع الحيوانات التي خلقت
 من أنزل البرد المجلو من سحب
 من أمسك الطير في جوار السماء ومن
 من قدر الرزق في الدنيا ويسره
 مجلجل الرعد فانظر كيف سخره
 ان كنت تجهل شيئاً من بدائعه
 فأين عقلك والفهم المميز
 لا شك في الله رب العالمين فما
 إلى قوله رحمه الله تعالى

إليك والخطر استمسك بعروة من
 قل ربى الله لا تسلك مسالك من
 فكر بنفسك يا مسكين تلق بها
 فكيف تعرف كنه الذات من ملك
 لم يبلغ طالب توحيد إلى الخطر
 لم يلق من سفر إلا عنا السفر
 ما ليس تعلمه من فكرك النظرى
 ملوك يا عبد مأولاك بالقصر

وشمر فردييه بمصنفة الالم التي تنور بين جوانحه .
ولم يشأ أن يطيل عذابه .. فقال له في رفق
— لا تنهني بسىء يالويس .. انما أرجو أن تصفح عين
الالم الذى سأسببه لك .

فمشت في جسد روكاره شمر برة خفيفة . وخيل كان بدىء
ينوء تحت حمل ثقيل

ولكن هذا الضعف الوقتى لم يدم الا طرفه عين ..
ثم ملك الطبيب نفسه واستعاد سلطانه على عواطفه فهاجم الزناد
بقوله :

— اعلم ما تريد أن تقوله يا جان . قد بلغت كل شىء
جاءنى خطاب مجهول . : من صديق مجهول . ذكر
نى فيه كل شىء

— ولكنى سأظل صديقك المخلص الى الأبد يالويس واكثر .
اخلاصا لك من الصديق المجهول الذى عنه تتكلم .. ولذى
أبلغك الخبر بشىء من . بشىء من الخبث بهير ثلث .
فقال روكار .

— أبداً . . انه لم يرتكب أي خطأ انه ذكر الحقيقة مجردة

وذا دليل كلم الله في الشعري
 وقوم عيسى أرادوا منه مائدة
 وعلل الله في القرآن ودهم
 وقوم أحمد لما جاء ذكرهم
 وكان أعظم في الاسلام مرتبة
 وأى معجزة دامت مكلمة
 فلم يجبههم أمين الله مكتفيا
 وانظر كلام علي في وصيته
 وسائر الآل قدأوصوا من العلم
 وأم موسى طالما أنت حين ما طرحت
 أمثل هذا من التدقيق مكتسب
 ومريم حين جاء الروح في مثل
 بأى شيء من الاسباب نزها
 بالخوض في جدليات الاوائل أم
 ومثله في جريج والرضيع وفي
 وقتية الكهف قد قص الآله لنا
 هذى الخصاص والعقول نعمته
 فواضح العقل معروف وغامضه
 إن البصائر كالا بصار ليس ترى
 لذا تخاف أهل العقل واضطربوا
 ووجهة الله في بعث اليامين
 ليطمأنوا بها لاوضع قانون
 لنا وعرفانهم بالسمع واللين
 أغنت طواميه عن طل المساكين
 من كل مامر في ماضى الاحايين
 لنا بكل المعاني والبراهين
 به إذا لم يكن فيهم بئامون
 ريحانة المصطفى خير الرياحين
 منصوب فينا إلى الهادى بصفين
 موسى بوحي وحق غير مظنون
 أم من ابانة قلب غير مأفون
 لها بسر من الرحمن مكنون
 في المهدى مزكى الذات ميمون
 بالاعتزال وذكر الله والدين
 أخذود وهى صحاح فى الدواوين
 حديثهم وأحاديث اليامين
 مبذولة بين مهدي ومفتون
 مواقف ومجازات لذى الدين
 خفى جداً سوى رجم وتظنين
 فيه كعادتهم فى كل مظنون

قلبت ذا العلم من بعد الرسوخ به واعتضت بالذكر منه غير مغبون
ما فيه الا عبارات مزخرفة اتى بهن ابن حزم بالتباين
كم من فتى منطقي الذهن ما خطرت بالبال منه اصطلاحات القوانين
وكم فتى منطقي كافر نجس كالكلب بل هو شر منه في الهون
يرى وساوس أهل الكفر منقبة فهما ويسخر من طه ويس
كذلك الرسل لم يعنوا بذلك إلى محمد من سليل الماء والطين
بل اكتفوا بالذى فى العقل مع نظر سهل بغير شيوخ كالاساطين
مع اعتراض شياطين الخصوم لهم وشهرة الطعن فى كل الاحايين
وربما كان فى التدقيق مفسدة للقلب أو لافراق الناس فى الدين
مثل الغلو بافعال الجوارح كما وصال والاختصاص خوفا من العين
والله أعلم والرسل الاكارم من شيوخ جبة (١) قطعاً غير تخمين

وانما ذكرت هذه الايات لانها لم تحفظ فى غير هذا الموضع مع
غرابة معناها فانى إنما أخذته من كلام أمير المؤمنين صلى الله عليه وسلم
فى كلامه المشهور لسكميل بن زياد حيث قال عليه السلام فى وصف
العلماء: هجم بهم العلم على حقيقة الامر فاستلنوا ما استوعره المترفون ،
وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ووجه الاخذ منه أن لفظ المهجوم إنما
يستعمل فيما حصل دفعة واحدة موهبة من الله من غير كد الخواطر فى الدقائق
والتولج بالانظار فى مضائق المزالق . وقال فى ضياء الحلوم يقال هجم

(١) بضم الجيم وتشديد الموحدة قرية بالعراق منها أبو على وأبو هاشم المعتزليان

وهما المرادان هنا اه

تقسيم المرأة

وَمُ يُجَد فردييه بدا من اطاعتها والنزول على رعبها .
فقص في التوازي عبادة صديقه دوز أن يفكر في الآلام التي
تصيبها اصديقه مثل هذه الدعوة

امارو كار وأنه قابل فردييه بما طبع عليه من اللطاف
ودمائه خفق . وقابل الدعوة بهدوء لانهم سن آلامه فسر فردييه
عانة "سرور"

ومخرج رو كار وهو نبيه الآلام يشيم صديقه الي الباب
الخارجي

وحدهما ترططا الدهليز الكبير فتح 'حد الابواب'
فيجول فردييه رأسه ووتعصره على صبية في مقبل النعم
نخيل ، انا اب انتهى ففتح

فات من رعبها ك انى قصى معها بغمية السهرة
في الليلة التي ادم نيم حمله تر فضه المنفعة . اى الليلة التي
عرب فيها = بوليت نيم مرة .

دكارب امتاء . رتاف الحانة تر تلى مثل الغلالة . ثم
كاتب تردها في لك الليلة . واتي كاتب بكرى عن ساعده .

كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون)

ومما يقوى قول أهل الاكتفاء بالجل وطريق السلف قوله تعالى (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) وقوله تعالى (قالت لهم رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والارض) وقد تقدم ذكرها وقوله تعالى (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) فانه الظاهر من جهة البصائر الجلية الجملية والباطن من جهة الابصار والتفاصيل الخفية فلو خفى من الجهتين معاً لكان باطنا من كل وجه غير ظاهر من كل وجه ويوضحه من السنة على صحتها حديث (كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) بل قد ورد القرآن بان ذلك هو الفطرة في قوله تعالى (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) ويؤيده ان من عاصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الكفار قد ذكروا فيه أنه ساحر وكرروا ذلك ولهجوا به فلم يحرر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا أحد من أصحابه رضى الله عنهم جواب ذلك بذكر الفروق بين السحر والمعجز بل نظموا قولهم انه ساحر في نظام قولهم انه لمجنون وكذب ساحر صانه الله عن ذكر ذلك لعلمهم بتعمد الكفار للعناد والبهتان في جميع ذلك ومن ذلك اسمه تعالى الحق المبين فانه حق في نفس الامر مبين لكونه حقاً بمصنوعاته وألطافه في تعريف خلقه، كل بما يليق بحاله سبحانه وتعالى قالوا يقال للمخالف ما تقول اذا وردت شبهات الملحدين وقد ساعدك

الناس على اجمال النظر في علم الكلام وهل هذا الايكيدي في الدين

والجواب يتم بالكلام في مقامين

المقام الاول دفعنا للشكوك الواردة عن نفوسنا وهو أسهل المقامين
لانه لا مفرع حينئذ الا الى نظر العقل المخلوق كاملا وامداد الرب له بالهداية
وهما حاصلان بفضل الله سبحانه من غير حاجة الى علم الكلام كما حصل للسلف
والذين ابتدعوا علم الكلام ولا يحتاج في هذا المقام الى تحسين العبارة
وقد طولت الكلام في هذا المقام في العواصم

وأربدنا وجهين: أحدهما ما ذكره السيد المؤيد بالله في الزيادات وقد تقدم
قريباً منقولاً بجر وفه وثانيهما أن المتصور ورده مجهول العين ويستحيل الجواب
التفصيلي على شبهة ترد في المستقبل محملة لم تعين ولا يغنى علم الكلام هاهنا وإنما
ينفع علم الغيب، ومن الجائز بالاجماع أن ترد هذه الشبهة على دقائق
علم الكلام وتحير المبرز فيه وتبطل المعجب به وربما تولدت من تدقيقه على
قدره وكان بالنظر فيه كالباحث على حتفه بظلفه

وبيان هذا أن مثل المستعد للشبهة المجهولة بتقديم النظر في الدلائل
مثل من يستعد للسموم القاتلة بشرب الادوية الحادة التي ربما قتلت شاربها
حين لا يجد ضدا يدفع طبيعتها ويستحيل تقديم التداوي من داء لم يتعين ولم
يعرف أهو من قبيل الحرارة أو البرودة أو غيرهما من الطبائع أو هو متركب
من الطبيعتين. وربما ورد داء يعجز عنه الطبيب الماهر باتفاق الاطباء
ولذلك تجدد أكثر الضالين في أنفسهم المضلين لغيرهم من أهل النظر
وأكثر أهل السلامة باقرار أهل النظر من أهل الجمل ولذا قال أبو القاسم البلخي
في مقالته في ذكر العامة هنيئاً لهم السلامة ومن ثم لم يرد عن الرسل عليهم السلام

الخواص الكبير في علمي الطب والكلام .

و خلاصة الكلام أنه لا بد من تجويز شبهة لم يتقدم تحرير جوابها
وإن خاض في الكلام ألف عام وهذا متفق عليه فما كان أن يصنعه
المتكلم والسلف صنعه كل مكلف

﴿المقام الثاني﴾

(في هداية الخصوص والكلام فيه من وجوه)

(الاول) أن الحجة عليهم الله سبحانه قد تمت قبل نصبنا ونصبكم
للبراهين بما خلق الله لهم من العقول وأرسل إليهم من الرسل . وبين لهم
ما في كتبه الكريمة من الأدلة ، فكما أنهم لو ماتوا قبل مناظرتهم لهم حسن
من الله تعالى تعذيبهم لتقدم كمال الحجة عليهم . فكذلك يحسن منا قتالهم
وقتلهم قبل مناظرتهم . وإنما ورد في الشرع دعاؤهم الى الاسلام قبل
القتال فلم يوجبها أحد بالاجماع . ومن جحد آيات الله وبراهين القرآن
الجلية فهو لدقائق الكلام أم أجحد . ومن قبولها أبعد . ولكن المبطلين
كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم في قوله تعالى (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قتلوا هذا
سحرمبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) وقال تعالى حاكيا عن
موسى عليه السلام (قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات
والارض بصائر واني لأظنك يافرعون مشبورا) وقال تعالى (قالت رسلهم أفي الله
شك فاطر السموات والارض) قالوا اذلك لما قال لهم الكفار (إنا كفرنا بما أرسلتم
به) وإن النفي شك مما تدعوننا اليه مريب / وفي قول الرسل عليهم الصلاة والسلام
(فاطر السموات والارض) تنبيهه على الدلالة على الله بذلك وأنه كاف لا يحتاج الى

زيادة عليه . فان كان مرادكم الفصل بين المختلفين وجمع ، كلمة العالم أجمعين ، فذلك غير ممكن لاحد من المخالفين . ولا يقدر عليه الا رب العالمين . كما قال سبحانه وتعالى في كتابه المبين (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شئ عshed) ولهذا سمي الله تعالى يوم القيامة يوم الفصل الوجه الثاني أن في المتكلمين من المعتزلة وغيرهم طوائف لا يوجبون النظر في علم الكلام منهم أهل المعارف الضرورية ولا يلزمهم ترك النظر مطلقا فكذلك نقول فان قيل فيم ينظر الناظر (قلنا) فيما أمر الله بالنظر فيه وفيما نظره السلف . وإن كان المنظور فيه أمرا ضروريا . فان معنى النظر فيه استحضار تصوره ودوام التذكر له وترك السهو والغفلة عنه ولذلك شرع الفكر في الموت والمرض ونحوهما مع انها أمور معلومة بالضرورة فالغفلة عنها أقبح غفلة وأضرها قال تعالى (أولايرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين وقال تعالى (قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وقال تعالى (قل إنما أعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة) وقال تعالى (انظروا الى ثمره اذا أمروا بغيره) ومن ثم حسن الخبر بالموت بل دخول المؤكدات على الخبر في قوله تعالى (انك ميت وانهم ميتون) وقال (تعالى) ثم إنكم بعد ذلك لميتون) فان الاخبار بالمعلومات لا تصح ودخول المؤكدات على الاخبار بها لا يحسن لولا أنه نزل المخاطبين لشدة غفلتهم عن هذه المعلومات منزلة الجاحدين النكرين لها كما ذكره علماء المعاني في قول الشاعر :

جاء شقيق عارضاً رحمه ان بنى عمك فيهم رماح

وغاية ما اشتملت عليه كتب الدقائق المبكية والمواعظ المشجية هو التذكير بالضروريات فكيف يقال فيمن ترك النظر في علم الكلام والتعمق في دقائقه إنه يلزمه اهمال الفكر والنظر فيما ورد في القرآن والخبر والأثر ولقد صنف الجاحظ وهو ممن يقول إن المعارف ضرورة كتاب العبر والاعتبار فأثنى فيه بما يقضى له بعلو القدر في العلم وتعمقه في التفكير في عجائب المخلوقات الضرورية وكذلك النظر في علم التشريح وعجيب خلق الانسان والتأمل لما يدرك من ذلك بالعيان ، وقد حث الله تعالى على النظر في المشاهدات قال تعالى (فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الارض بعد موتها) وقال تعالى (أو لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شيء بصير) وقال تعالى (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير) وقال تعالى (أو لم يروا كم اهلكننا قبلهم من القرون انهم اليهم لا يرجعون) وقال تعالى (وأن لهم الارض الميته أحيانها وأخر جنا منها حبا) الآيات وقال تعالى (خلق السموات بغير عمد ترونها وألق في الأرض رواسي أن تميد بكم) الآية

لكن المخالف يقول ان المراد بالنظر في هذه الأمور نظر مخصوص يبنى على مقدمات مرتبة مركبة تركيباً مخصوصاً على وجه ينتج العلم على سبيل الاختيار وغيره يقول إن المراد بالنظر الفكر الذي يهجم على القلوب بعد

سرف الیقین ورسوخ الایمان و تعظیم المعبود أو اجدهما ویتفاوت
الحاصل من ذلك تفاوتاً لا یقف عند حد ، وربما أبكى أو أقلق أو أصعق على
حسب حکمة الله تعالى فیما یهبه للعبد عقب النظر وعدم الاختیار فیہ عقب
النظر و تفاوته معلوم - وعلى هذا ما قال الشیخ مختار بن محمود المعتزلی فی کتابه
المجتبی فی حد حقیقة النظر: انه تجرید العقل عن الغفلات . وحكى عن
شیخه محمود الملاحی انه لا یشرط فی العلم بالله ان ینبئ على المقدمات
المنطقية والاسالیب النظرية كما سیأتی ان شاء الله تعالى وكيف ینکر هذا
و یتبعه وقد حکى الله سبحانه وتعالى عن الهدهد وهو من العالم البهیمی انه
وحد الله تعالى * واحتج على صحة توحیده بذلك حیث قال سبحانه كما یعنه
(ألا یسجدوا لله الذی یمخرج الخبء فی السموات والارض) یعنی المطر والنبات
فاحتج بحدوث هذین الامرین المعلوم حدوثهما مع تکررهما وحاجة جمیع
الحیوانات الیهما مع أنه ما قرأ فی المنطق ولا عرف علم الکلام . وقد قرر الله
سبحانه وتعالى کلامه وحسنه ، فكیف لا یحسن مثله من انسان ناطق
عقل مکلف مخاطب . وسوف یأتی الدلیل على بطلان قول من
تأول کلام الهدهد . وتوضیح الأمر فی ذلك قال الله تعالى « قتل
الانسان ما أکفره ، من أى شیء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره »
وحاصل هذا أن النظر عند أهل المعارف أو بعضهم شرط اعتباری
ووقوع العلم والیقین بعده ، کوقوع الرقة والبكاء والخشوع ونحو ذلك مما
هو من فعل الله سبحانه وتعالى ، ونفعه معلوم وان لم یقع على ترتیب

أهل المنطق : ومستند العلم التجربة الضرورية فانه يقع للصالحين ممن لا يعرف ترتيب المقدمات بذلك النظر من اليقين والخشوع ما لا يقع للمتكلمين . بل قد قال القاسم عليه السلام ما رأيت كلاما يقطع له خشوع الجمل الجمل

وقد اشتملت خطب أمير المؤمنين ومواعظه وسائر الأئمة على أدلة التوحيد من غير ترتيب مقدمات المنطقيين ولا تقاسيم أساليب المتكلمين ودرج السلف على ذلك . وكان مما استجادوه وسارينهم قول زيد بن عمرو ابن نفيل رحمه الله تعالى :

رضيت بك اللهم ربا فلن أرى	أدين إلها غيرك الله ثانيا
وأنت الذي من فضل من ورحمة	بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت لموسى اذهب وهرون فادعوا	إلى الله فرعون الذي كان طاغيا
وقولا له هل أنت سويت هذه	بلا وتد حتى اطمانت كما هيا
وقولا له هل أنت رفعت هذه	بلا عمد ارفق اذا بك بانيا
وقولا له هل أنت سويت وسطها	منيرا إذا ماجنه الليل هاديا
وقولا له من مرسل الشمس غدوة	فيصبح مامست من الارض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب في الثرى	فيصبح منه البقل يهتز رايبا
ويخرج منه حبه في ربو سه	وفي ذاك آيات لمن كان واعيا

فهذا أسلوب الانبياء والاولياء والأئمة والسلف في النظر . وخالفهم بعض المتكلمين وأنواع البتدعة ، فتكلفوا وتعمقوا وعبروا عن المعاني الجليلة بالعبارات الخفية ، ورجعوا بعد السفر البعيد الى الشك والحيرة والتعادي

والتكاذب وقد اعترف أكثر المتكلمين بالوقوع في الحيرة والأمر
المشكلة المتعارضة فقال ابن أبي الحديد وهو من كبراء المعتزلة بعد عظيم
توغله في علم الكلام :

فاذا الذى استكبرت منه هو ا
جانى على عظام المحن
فظلت فى تيه بلا علم
وغرقت فى بحر بلا سفن
وقال الشهرستاني فى أول نهايته :

وقد طفت فى تلك المعاهد كلها
وسيرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر
على ذقن أو قارعا سن نادم
وقال الرازى فى مثل ذلك :

العلم للرحمن جل جلاله
وسواه فى جهلاته يتغمغم
مال التراب والعلوم وانما
خلقت (١) لتعلم أنها لا تعلم
وله أيضا :

نهايات إقدام العقول عقال
وأكثر سعى العالمين ضلال
وقال صاحب كتاب الامام :

تجاوزت حد الاكثرين الى العلا
وسافرت واستبقيتهم فى المراکز
وخضت بحارا ليس يدرك قعرها
وسيرت نفسى فى فسيح المفاوز
ولججت فى الافكار ثم تراجع اخ
تبارى الى استحسان دين العجائز
وللشيخ العارف القدوة عمر بن محمد السهروردى كلام جيد فى هذا
المعنى ذكره فى الباب العاشر من كتابه عوارف المعارف ومنه :

(١) الضمير فى خلقت للأجسام المخلوقة من التراب ، والمعنى ما للأجسام الترابية
المظلمة ودرك نهايات العلوم النيرة اه مصححه عيد الوصيف

ان الملك طاهر الكون، والملكوت باطنه، والعقل لا يدخل الملكوت ولا يزال مترددا في الملك، ولهذا وقف على برهان من العلوم الرياضية، والعقل لسان الروح، والبصيرة التي هي الهداية قلب الروح، واللسان ترجمان القلب. فكلاما ينطق به الترجمان معلوم عند من يترجم عنه. وليس كل ما عند الذي يترجم عنه يبرز الى الترجمان. فلهذا المعنى جزم الواقفون مع مجرد انقول العربية عن نور الهداية التي هي موهبة من الله تعالى عند الانبياء وأتباعهم الصوان وأسبل دونهم الحجاب لوقوفهم مع الترجمان، وحرمانهم غاية البيان اه مع اختصار بعض ماذ كره نفع الله بعلمه. وكلام هذه الطائفة في مثل هذا الكلام ذوق لاسبيل الى كشف صحته إلا بالتجربة. وهو نظير كلام الاطباء في الطب.

﴿ الثالث ﴾ أنها وردت نصوص تقتضي العلم أو الظن أن الخوض في علم الكلام على وجه التقصي للشبهة والاصغاء اليها والتفتيش عن مباحث الفلاسفة والمبتدعة المشكلة في كثير من الجليات مضرة عظيمة ممرضة لكثير من القلوب الصحيحة. ودفع المضرة المظنونة واجب عقلا وقد شهدت بذلك التجارب مع النصوص وضل بسببه اثنتان وسبعون فرقة من ثلاث وسبعين فرقة وهذه الاشارة بالنصوص اشارة الى مجموع أشياء كثيرة:

(منها) النواهي عن البدع (ومنها) النواهي عن المراءء مطلقا وهو

ما يظن أنه لا يفيد بخلاف المجادلة بالتي هي أحسن (ومنها) النواهي عن المراء في القرآن (ومنها) النواهي عن المراء في القدر خاصة (ومنها) النواهي عن التفكير في ذات الله تعالى (ومنها) الأوامر عند الوسوسة بما ينافي طرائق أهل الكلام وفي ذلك خمسة عشر حديثاً في الكتب الستة وجميع الزوائد أشرت إلى بيانها في العواصم (ومنها) أحاديث الإسلام والايمان المتواترة التي تقتضي قواعد الكلام منافاتها لإلزام التأويلات المتعسفة ويشهد لذلك من كتاب الله تعالى قوله تعالى «إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله أنه هو السميع البصير» فهذا مطابق لما ورد في الحديث من الاستعاذة بالله تعالى عند السؤال عن الشبه وقال تعالى «وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قدينا الآيات لقوم يوقنون» وقال تعالى «قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ» وقال تعالى «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» ولم يقل بعد المتكلمين، والحمد لله رب العالمين* وكيف يطمع الجدلي في هداية المعاندين واعترافهم له، وقد حكى الله أصرارهم على المجادلة بقوله (كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين* ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يرجون لقاولا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) بل حكى الله سبحانه أصرارهم على الجحد والعناد يوم القيامة بما لا يمكن تأويله وذلك قولهم لجوارحهم حين جحدوا فأنطقها الله بالشهادة عليهم فقالوا لعلوهم لما شهدتم علينا

قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء . فمن بلغ هذا الحد في اللجاج كيف يجب في النظر الاشتغال بمناظرته بعد أن جحد الرسل وما جاءت به من آيين الآيات ، ولعلم الله تعالى بذلك ، قال لرسوله خاتم النبيين ومفحم المبطلين والحجة الكبرى على المعاندين صلوات الله عليه وعلى آله وعلى جميع النبيين (وإدع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم * فإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون) وقال « فإن حاجوك فقل أسأمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أتوا الكتاب والأمةين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » فهذه هي المجادلة بالتي هي أحسن الأمور بها وقد حكى الله سبحانه وتعالى مجادلة الانبياء في كتابه لأنواع الجاحدين فلم يكن فيها شيء يتوقف على معرفة دقائق الكلام والتكلمين وقد بسطت هذا المعنى في العواصم فمن لم تكفه هذه الإشارة فليطالعها هنالك والله الموفق وييده الحول والقوة

ولما فرغت من هذا القدر في هذا المختصر بلغني سؤال يتعلق به من بعض المسترشدين فأكملت بالجواب عليه الفائدة بمن الله تعالى ورأيت الحاقه به واتصاله لا ثقا وهو هذا:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي من علينا بالتألف بين قلوبنا بجامع الايمان ، وأمرنا بالتحاب والتعاون بقدر الامكان ، وخص من عموم ذلك ماورد من الامر بالانفراد في آخر الزمان ، رحمة للمؤمنين وتيسيرا من الرحمن ، ونهانا عن التفرق في دين الاسلام والابتداع ، وأنزنا الافتداء برسوله صلى الله عليه وآله وسلم والأتباع ، خصوصا مذكرا

تنصيصةا وتنبها (اليوم أ كملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) فكان في جوامع ما جاء به المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الزواج (لقد كان لكم في رسول أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) وأمره بالاعراض عن الجاهلين، ونزعه سبحانه للمقتدين من تكلف المتنطعين فقال حاكياً عنه (وما أنا من المتكلفين) فمن ثم لم يتكلم في الروح وقد عولت الخصوص عليه تعويلاً، حتى نزل في ذلك (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيت من العلم الا قليلاً) وربما ترك الجواب مع وضوح ماسئل عنه مما لا يحتاج، كراهية لما لا يفيد من الجدال واللجاج، كما فعل نبينا مع ابن الزبعرى عليه أفضل الصلاة والسلام وآله الكرام حين تعرض للقدح في كلام الملك العلام (هذا) وهو المبعوث رحمة للعالمين، والمنصوب ليبيان مشكلات الدين، والموصوف بالخلق العظيم والعلوم انه على الصراط المستقيم، وتلته الصحابة رضى الله تعالى عنهم فأحسنوا في الاقتداء بخاتم الرسل وأقروا عمر بن الخطاب على مثل صيغة ابن عسل (١) انتهاء بنهي وطاعة أمره وخوفاً من الدخول في وعيد الذين يخالفون عن أمره، وكيف لا يحافظون على ذلك وقد قال سبحانه تبجيله وتكرمه (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) فلولاً ما استثناء الله سبحانه من المجادلة بالتي هي أحسن . على ما تبين من الآيات والآثار والعرف المستحسن .

لتركوا الجلى كما تركوا الخفى عملاً باطلاق النهى الصادر من اللطيف الخبير . والصلاة والسلام الايمان الا كمالان على صاحب بيعة الرضوان

(١) كذا وفي أخرى بضيع بن عسل . وأخرى بن يصنع عسل اه مصححه

وعلى آله حماة الاسلام. والهداة الى الايمان، ما كرا الجديدان واعتقب الملوآن.
 (وبعد) فانها لما وصلت إلى الاسئلة الخفية عن وجه تتجني لنا هيج أهل
 الكلام الخفية. صادفت منى قلبا قد غلق أبواب الدقائق. وترك الاستعداد
 للقاء فرسان هذه الحقائق. وصم عن الداعي إليها مسمعا. ولم يتمن ما تمنى
 ورقة بن نوفل من كونه فيها جذعا. وكيف وقد رجحت الصوارف عنها
 وجاء المثل: حسن قدح ليس منها. ومن أعظم الصوارف دنوا لاجل، والهم
 بالاستعداد للقاء الله تعالى عز وجل، فإن لكل مقام مقالا. ولكل حال
 أعمالا. وإن كنت لم أفعل جميع ما وقع به الاهتمام. وما أملت إثاره
 بين يدي الحمام. فالهم القوى كاف في الصرف عن الاقبال. فكيف وقد
 تشاغلت ببعض ما تعلقت به الآمال. وتعللت على أكرم الاكرمين وأرحم
 الراحمين بالوقوف في أبوابه. ومداداة قاسى طباعى بلطيف خطابه. وإثارى
 فى خاتمة عمرى لسنة رسوله وكرم كتابه، ثم لزمت البيت وآثرت
 الخمول. وتركتم لو تركت الفضول. وتمثلت بقول الزمخشري رحمه الله
 حيث يقول :

أطلب أبا القاسم الخمول ودع	غيرك يطلب أساميا وكنى
شبه ببعض الاموات شخصك لا	تبرز إن كنت عاقلا فطنا
علك تطفىء ما أنت موقده	إذا أنت فى الجهد تخلع الرسنا
إدفنه فى البيت قبل ميته	واجعل له من خموله كفنا

وعملت على كلام السيد العلامة الامام المؤيد بالله فى استحباب ترك
 ما لا احتاجه من الخوض فى علم الكلام. وترك احتجاجى بما لا ينازع فيه عاقل.

ولا يخالف فيه الا جاهل أو متجاهل ، من اثار الضروريات اليومية على الحاجات الاملية ، فان الضرورية بلا قيد أقدم من الحاجة . كيف إذا تعينت الضرورية وتضيقت . وتأخرت الحاجة وتوسعت . وعلى ذلك درج السلف الصالح ، ومن اقتدى بهم من المناظرين في ترجيح متعارضات المصالح * ومن الصوارف عن ذلك شدة المحبة لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم . وعلى ذلك من الاثر ما لا ينكره منصف ولا يمجده الا متعسف . ولا شك أن كل مسلم يحب كلام الله تعالى ويعظم كلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ولكن للمحبة والتعظيم مراتب متفاوتة ومقامات متباينة . ولا ريب أن بعض الفنون أحب إلى بعض الناس من بعض . بل بعض كتب الفن الواحد أحب إلى بعض أهلها فيه من الخواص وإذا علمت بأنه متفاضل فاشغل فؤادك بالذى هو أفضل

وقد وضعت كتابا في تفضيل الاقبال على هذين العمودين والاستضاءة بأوار هذين النيرين . وذلك من دلائل شغفي بهما ، وذى لمن استقصر قدر معارفهما ، وبغى سبيلهما عوجا ينفر عنه قاصديهما ، ومن ولع بشيء ولع بتمهيد الوسائل اليه ، وقطع شبه الصادقين من التعويل عليه ، ولم يكد ينتفع بسواه ، ولا يهتدى إلا بهداه ، وهذا معروف في طبائع المخلوقين ، كما قال بعض المحبين :

ولو داواك كل طيب داء بغير كلام ليلى ماشفا
فاذا تقرر هذا في غير حب الله سبحانه فالذين آمنوا أشد حبا لله
وسياى كلام الهادى فى الحث على ذلك ، والتفضيل لهذا المسلك على

سائر المسالك ، وخشيت أن أقطع العمر في الوسائل وما وصلت الى المتوسل اليه ، وتوقفت في العوائق والعياذ بالله عما لا يعول إلا عليه ، فأكون ممن بالغ في الوضوء وابتدع ، حتى خرج وقت الصلاة وضاق عليه ما اتسع * وقد رأيت الزمخشري رحمه الله خص هذين العاملين الشريفين بالتوسل بهما الى الله سبحانه في رقائق أشعاره ولم يذكر في توسله غير الكشف والفائق من محاسن علومه وآثاره فأحييت أن أختم عمري من طيبهما بما هو أحسن من ختام المسك . وأستحضر من مقدماتهما ما ينتج الرفق والنسك ، وقرعت في أوقات الرقة أبواب المنح ، ومن دق باب كريم عليه فتح ، ولا ينبغي أن يضرب عما عن ويحتجب في الحديث (يستجاب للعبد ما لم يقل قد دعوت ودعوت فلم أجب) ولا يرد على هذا مناقضته بسوء ما أنا عليه من الحالة بالنظر الى الاخبار . فذلك هو الموجب للاهتمام باقرب الطرق إلى النجاة من النار ، والتشبه بما كان عليه الابرار من العزلة والفرار . والاشتغال بالقرآن والآثار . والاذكار والاستغفار . بلسان الانكسار والاضطرار :

وهم الاساة فناد في عرصاتهم أضحي بيا بكم العليل فمضوا

ومن الصورarf عن ذلك ، الموعرة لسلوك هذه المسالك ، عدم وجدان الصديق الصدوق البرى من الجفا والعقوق ، القائم بما لا أخوة من اللوازم والحقوق ، ميمون الخلائق ، مأمون البوائق ، رباني الهمة رهبانيها ، برهاني المعارف قرآنيها

صموت إذا ما الصمت زين أهله وفتاق اكلام الحديث المحكم

وعى ماوعى القرآن من كل حكمة ونيطت له الآيات باللحم والدم
وما تركت الطلب حتى طال ارتيادى له بالجد والجهد . فكنت كلما
وجهت أملى الى وجهة لم ألق إلا بنى سعد لعدم الحظ لا لعدم المطلوب . فكم فى
الباب من علم منصوب ، ووجيه محبوب . وصادق مجذوب . حتى
عاد البصر خاسئاً حسيراً . كأنما سمته أن يرينى فى خلق الرحمن تفاوتاً وفطوراً .
ولا منى فى الطمع كل عارف نصيح ، وأنشدونى فى ذلك كل قول فصيح
ومعنى صحيح : فمن ذلك قول الزمخشري :

تيممت أسأل من عنى من الناس هل من صدوق صديق
فقالوا عزيزان لا يوجدان ن صديق صدوق ويض الانوق
وقول الآخر :

صباد الصديق وكاف الكيمياء معا لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا
وكم سعى لهما قوم وكم جهدوا فما أظنهما كانا ولا اجتماعا
وقول الآخر :

من لك بالمهذب النذب الذى لا يجد العيب إليه مختطى
وقول الآخر :

ولست بمستيق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب
وقول الآخر وهو الذى اطرب الرشيد :

غديرى من الانسان لا إن جفوته صفا لى ولا إن صرت طوع يديه
وانى لمحتاج إلى ظل صاحب يرق ويصفو ان كدرت عليه
وأحسن منه :

ومن عدم الانصاف أنك تبتغى المذهب فى الدين ولست المذهب
وما زلت فى زمن الحداثة وايام الغزارة أسد سمعى عن كل نصيحة.
وأرد بطبعى فى هذا كل حجة صحيحة، وحبك الشئ يعنى ويصم . ولا ينجو
من الهوى الا من عصم . حتى أسفر لى وجه الخبرة عن أحوال الرجال . فنادى
مؤذن التجارب الصلاة فى الرحال، وأمر الفصحاء برفع الاصوات بالندارة
من كل منارة، فتارة وعيت، فتول عنهم فأنت بلوم (واذكر فى الكتاب
مرىم إذا انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . وإذا اعتزلتموه وما يعبدون إلا
الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا)
وتارة أسمع (يوشك أن يكون خير مال الرجل المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال
ومواقع القطر . يفر بدينه من الفتن ، إثمروا ينكم بالمعروف وتناهوا عن
المنكر حتى إذا رأيت شحاطعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة واعجاب كل
ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة واعتزل تلك
الفرق كلها . ولو أنك تعض على جذر شجرة حتى يأتيك الموت وأنت
على ذلك . والزم بيتك وخذ ما تعرف واترك ما تنكر . ليسعك بيتك
وابك على خطيئتك)

وتارة أتأمل قول على عليه السلام : ووالله لولا رجائى الشهادة عند
لقاء عدوى لو قد حم لى لقاءه لشخصت عنكم ثم لا أسأل عنكم ماختلف
جنوب وشمال، وشاع هذا المعنى وذاع . حتى نظمه البلغاء على أساليب
تهنئتها الطباع . وتلتذ بها الاسماع . مثل قول بعضهم :

كيف التخلص والبسيطة لجة والجواسم بالمصائب مشجم

أُسرج وألجم في الفرار فكلهم فيما يسوءك مسرج أو ملجم
وقوله :

نهيتك عن خلاط الناس فاحذر أقاربك الاداني واحذرني
صديقي ماهويت لك اقترابا وصنتك عن مخالطتي فصني
وقوله وأجاد فيه :

وماعت وردى لارتواء وجدته بنفسى ولكن المياه أجون
فلا تشغلني بالحديث وخلى وأشجان قلبي فالحديث شجون
فعمدت على ذلك اعتقادي . وعزمت على لزومه بعد أن همت في
كل وادي (١) وقنعت من الغنيمة بالاياب . حتى سلمت في سفرى من الذئاب
المدلسة بلبس الثياب . وانها والله بدليل العقل والحس ، أخبت نوعى هذا
الجنس . لا سيما من كان ظاهره بالزهادة متحليا . وباطنه من حلية
الاخلاص متغليا ، وقد أبدع الزمخشري وأجاد في قوله في هذا الجنس من
العلماء والزهاد :

إني على ما أراكم لا احذركم معرفة اللص (٢) والا كراد والفسقة
لكن أحذركم من ينبرى لكم في هيئة الزهد لكن همه السرقة
صلاته الرمح والتسبيح أسهمه وصومه سيفه والمصحف الدرقه

فبقيت في هذه المدة المديدة سنين عديدة .

قد اعتزلت الرافضى جانبا والناصبي والمجترى والمجير
واعترضت عن خطاب كل جاهل خطاب فكرى أو خطاب دفتري
وقلت لا تقترى في خبرى فقد نبذت كل خل مفتر

(١) أثبتت ياء المنقوص للسجع (٢) وفي القاموس أمعره سلبه ماله اه مصححه

وقد قلت في ذلك محييا على من لاموعاب ، من الاهل والاحباب
 لامنى الاهل والاحبة طرا في اعتزالى مجالس التدريس
 قلت لاتعدلوا فما ذاك منى رغبة عن علوم تلك الدروس
 هى رياض الجنان من غير شك وسناها يزرى بنور الشمس
 غير أن الرياض تأوى الافاعي وجوار الحيات غير انيس
 حبذا العلم لو أمنت وصاحبه مت إماما فى العلم كالقاموس
 غير انى خبرت كل جليس فوجدت الكتاب خير جليس
 ورضيت المروى عن جدى القا سم من جامع علوم الرسوس
 فدعونى فقد رضيت كتابى عوضالى عن أنس كل أنيس
 ولملم أسلم من القيل والقال ، بعد الفرار والاعتزال ، أعجبنى أن أصل هذه
 الايات بقول من قال :

لو تركنا وذاك كنا ظفرنا من أمانتنا بعلق نفيس
 غير أن الزمان (أعنى بنيه) . حسدونا على حياة النفوس
 وهذان البيتان زادهما قائلهما على قول بعض العارفين :

ان صحبنا الملوك تاهوا علينا واستبدوا بالرأى دون الجليس
 أوصحبنا التجار عدنا إلى اللو م وصرنا إلى حساب الفلوس
 فلزمتنا البيوت نستعمل الحب رونظلى به وجوه الطروس
 ونناجى العلوم فى كل فن عوضا عن مناديات الكؤوس
 وقنعنا بما به قسم الا ولم نكثر بهم وبؤس
 وفى هذا المقام بنيت دور المنى ، وثنيت ببدور الهنا ، وفطمت نفسى عن
 الطمع فى الناس ، حتى طعمت لذة الياس ، ولم أقل :

ولا بد من شكوى إلى ذى حفيظة يواسيك أو بأسوك أو يتألم
ولكن قلت إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، وأقبلت على ربي وحده
بكلى وأخلصت له تفويضى وتوكلى
وكاد سرورى لا ينى بندامتى على ماضى من عمرى التقدم
ولما عز على حق الولد أيدى الله لحسن أدبه فى سؤاله، وأكيد محبته
وأهله لمحمد وآله، وطول غربته فى طلب العلم بالجهد، ولطيف نظره فى
مواضع النقد، قسرت طبعى على الجواب. وإن قل فيه الصواب. فما يكاد
المكره على الأمر يوجد فيه ويحقق. ولا يعلو فيه ويخلق. ولكن الخيرة فى
المكاره. ومن ثم جرت البركة فيما عملت وأنا كاره. وقدمت من صفة
حالى فى مقام الدقائق ما لا يليق بخوافيه، إذ كل إناء يرشح بما فيه، ولن يخلو
ذلك من شبه إن عدمت المناسبة لأعدل بذلك سواء الجدال وقساوته.
وغلظته وجفاوته، إذ كانت كراهة القسوة المحضة قد تمكنت من قلبى تأثما
وبغضة، وكى أعذر فى التقصير. حين أمشى فى هذا الميدان بالباع القصير.
قائل لا أيدى الله تعالى حين بان عن ملائمة حالى وبعد، زادك الله حرصا ولا تعد
كراهية منى المرأ لا تبلى وتعرف ما عندى بومض حراى
وملء جفون العين للحل مقنع كمل جفان أو كمل جوابى
وما يلام الامن ترك المقدور من الخير وإن قل، وعاند الحق وإن جل،
وأعوذ بالله من العناد، وأسأله السداد، ولا بد قبل الجواب،
وبعد خطبة الكتاب، من الايماء إلى أمر لا يخفى على ذوى الالباب.

زائد على ما في المبتدأ من التنبيهات . الذي كان يطرد الولد أيده الله فيه أصل البحث عن هذا السؤال . مثل التحذير من إفتاء الرد والقبول وترجيح العوائد على أدلة المعقول والمنقول وذلك أن الخلاف بين الخصمين إذا كان في الأمور الخفية، لم يحسن من واحد منهما أن يتهم الآخر بالعناد والعصية ووجب اجتناب ما يدل على ذلك من التلون في العلل وإنكار المعلومات لأقامة العدل، فإن حصل الاتفاق مع لين الجانب وسهولة الاخلاق والاحتجاج إلى حاكم يقطع الشجار غير متهم بشيء من الجهل والهوى والاستكبار، والاعتذار بالطبع المحبول على الاحتقار بمن جاء بمافيه أدنى استنكار . الا ترى أن داود عليه السلام لما أخطأ في التأويل وكان هو الحاكم والرجوع اليه في التنزيل علم الرب اللطيف سبحانه وتعالى أنه قد تعذر على خصمه التوصل إلى عتابه، والتوصل إلى الانتصاب من عزيز جنابه، فأرسل الله تعالى ملائكته فتلطفوا حتى حكم بالظلم على من فعل مثل فعله وانطلق بالتصريح بذلك مسرعاً إليه بمحض عقله وعدله، ولو سئل عن ذنبه بالتصريح ولم يتوصل إليه بذلك التدريب والتلويح، عارضه بمعلق بطباعه من تمهيد لهذره بالتأويل المرجح له ما كان من أمره فلم يثو من أن يبطن بالافرار ولا يبادر بالاعتراف حق البدار وأصرح من ذلك وأولى بالاعتبار، ما قصه الله سبحانه علينا من استنكار كلمه لما فعله الخضر عليهما السلام بعد الاخبار والاعذار على أن المخبر له بتفضيل الخضر عليه السلام هو الصادق الذي لا يجوز عليه الخلف في الاخبار ما ذلك إلا لغلبة الطبع البشري لما يطراً عليه من المعارف المخالفة لحيلته البعيدة عن مألفه وعادته فكيف لا يتهم المصنف

نفسه ، ويوقظ للاحتراز من هذا الطبع القوي حسه ، ولا يأنف ان طلبت منه البينة على أقواله والمحكمة إلى خير أجناسه وأمثاله *

ولما طلب الامام المهدي على بن محمد للمناظرة والاختبار ، طلب البداية بنصب حاكم يقطع الشجار عند اختلاف الانظار ، وقد تنازع على عليه السلام وأخوه جعفر بن أبي طالب الطيار مع الملائكة الكرام وزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما اعترف أحد منهم لخصمه بعد أن أدلى كل واحد منهم بحجته ، بل بقى كل على استرجاح حجته حتى حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحكمه وأثنى على كل واحد منهم بفضله فقال لعلي عليه السلام (أنت منى وأنا منك) وقال لجعفر عليه السلام (أشبهت خلقى وخلقى) وقال لزيد رضى الله عنه (أنت أخونا ومولانا) وهذا مما اتفق على صحته من الاحاديث فلم يكن فى بقاء كل على حجته بعد سماع حجة خصمه ما يدل على عناد ، ولا أطالوا الخوض فى المراءى على جهة اللجاج ولا على جهة الاسترشاد * أما المراءى فانه لا خير فيه لانه اسم لما نطن أنه يفيد ، وأما الاسترشاد فانه عبارة عن طلب الرشاد ، وهو يحصل فى الظنيات باول اماراة ، والاشارة تغنى فيه عن تطويل العبارة ، والمراد من كل واحد ما قوى فى ظنه . ورجح فى فهمه والتكير عليه بعد ابدائه لمستنده وابقائه عليه خروج عن منهاج السلف الصالح ومخالفة لاجماعهم العقلى فى هذه المسالك ، وقد يقوم الود والعدل والتناصف والعقل إذا صفت مواردها عن أكدار المعارضات . وأشرب الخصمان حب النظافة من رذائل القرائن المنفرات . مقام الحاكم العادل الجامع

الكامل فلا ينبغي حينئذ أن يكون أحدهما صاحب قطيعة ولا ريبة؛ فضلا عن أن يكون صاحب بغض وغبية، ولا يكون أحدهما صديقا لعدو ولا عدوا لصديق ولا مجهول الخبرة محتاجا إلى تعديل وتوثيق، ولا منقطعاً إلى خصوم صاحبه في ليله ونهاره ومحله وقراره وتدريبه في العلم وانظاره.

ثم لا يجوز أن يحكم وهو غضبان لأن الحكم في الأديان أكد من الحكم في الأموال والأبدان وقد علم جرح الثقات بالتهم والإحسان هنالك وإن خفيت في الدلالة عليها المدارك* وعلى طالب العلم الصادق حين يخلو من الخصومة ويريد أن يحكم بين المتخاصمين كالناظر بالانصاف في مقالة أبي هاشم والامام يحيى وأبي الحسين وابن تيمية وأتباعهم من الطوائف في ألا يكون أن ينزل نفسه منزلة الحاكم بينهما بالعدل فلا يحكم لأبي هاشم حتى يطب مذهب الامام وأبي الحسين كطلبه (١) ويعمن النظر في مصنفات كتبه ويتعلم ذلك بالقراءة على أئمة مذهبه ويعتبر ذلك بحاله في مذهب أبي هاشم فإنه أول ما خلق كان خاليا من معرفة صحته واعتقاد قوته حتى قرأ في كتبه على رجاله، وقطع عمرا في تعرف قواعد أقواله، فصادف قلبا خاليا فتمكننا، فلا بد أن يكون في قلبه بطبع البشر ميل إليه، وتعويل عليه كما تقدمت الإشارة إليه في قصة الكلام مع الخضر عليهما السلام

وقرينة هذا أنك ترى الطائفة العظيمة في الأزمان الطويلة على مذهب بعض المتكلمين في المشكلات الدقيقة والمعضلات العويصة لا يخالفه منهم

(١) أي لمذهب أبي هاشم يريد أنه لا يحكم بالترجيح بين الثلاثة إلا بعد اطلاعه وفهمه لمذاهبهم ضرورة أن الحكم على الشيء مطلقا فرع تصوره اهـ مصححه عيد الوصيف

ناظر مدقق، ولا يميل عنه في جميع خفيات مداركه محقق، مع مخالفة من هو أعلم منهم له وأخص منهم به كوالده الشيخ أبي علي فإنه كثير الخلاف لوالده الشيخ أبي هاشم، ماذا لا يخرج شائبة التقليد من بينهما. ودخولها من غير شعور على من دونهما. ولذلك ترى كبار العلماء الشيخوخة يختلفون كثيراً. وألوف الألوف من الأتباع على منهاج رجل واحد لا يخالفونه يسيراً بل يجتمعون على لوم من خالفه . وذهم من نازعه *

واعلم يا ولدي أنني كنت مثلك طالب علم صغير السن، كثير الجدل . قليل التجارب ، وما كنت مثلي طالب سلامة كبير السن قليل الجدل طويل التجارب. وأعني بقولي طالب سلامة. أنني غير ملتفت إلى غيرها من الفوائد على حد قول القائل « رضيت من الغنيمة بالأياب » ولذلك قيل « طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم » والمجرب لا يعدل بالسلامة ولا يرتاع من عدوان الظلامة والملامة،

ومن كملت فيه النهي لا يسره نعيم ولا يرتاع للحدثان فأنت في مناظرتك تطلب مني تجريب المجرب . ومالي داع بعد تقديم تجربتي إلى تجريب لولا محبة الاسعاف لك على سبيل التقرب إلى الله تعالى والتقريب . وربما انتفع غيري وغيرك بما داريني وبينك وقد أحسن من قال في طلب المآرب

* أرى غفلات العيش قبل التجارب *

وسوف إن طال بك الزمان ، وجمعت بين البرهان والقرآن، والاخبار إلى الرحمن والزيادة في الايمان ، تذكر ما قلته لك من الفرق بين الحالين، والتمييز

بين المقامين ، وهذا مقام لادليل فيه التجربة المتزهة معارفها عن طرو
الشبه ، وهو مقام الرياضات والتجربيات ، وهى أحد أقسام العلوم الضروريات
والمدارك العقلية ، يختص بعضها بمن يختص به من العقلاء كـ بعض التواترات
والكلام فى هذه الامور وإن طال ، فهو مناسب لمقتضى الحال ، فانه أيدته الله
طول وكثر فى السؤال ، مع أنه من فرسان هذا المجال ، والعارفين بما يحل
به الاشكال ، وحينئذ عرفت أنه أراد بسؤاله (١) ما أرادته من قال :

نحن أدرى وقد سألنا بنجد أقصير طريقنا أم طويل
وكثير من السؤال اشتياق وكثير من رده تعليل

﴿السؤال الاول عن مرادى بقولى﴾ *

أصول دينى كتاب الله لا العرض وليس لى فى أصول بعده غرض
وقد طول أيدته الله فى التفاسيم وإيراد الأدلة على كل ما يمكن ذكره وكان
يكفيه فى ذلك سؤال الاستفسار ، وهو أول ما يراعى عند النظر ، وتطويله أيدته
الله فى ذلك مما أفاد فيه وأجاد ، ودل على ماله من الانتقاء والانتقاد . لكنه
فى غير محل النزاع ، وفيه تعريض بانكار منكر لجميع تلك الأنواع ، كما ذكره
أهل علم المعانى فى دلالة دخول المؤكدات فى الاخبار ، على أن المخبر بذلك من
أهل الجحد والانكار

ومع تطويله أيدته الله فى السبر والتقسيم ، وتوكد كائه فى ملاحظة كل
صحيح وسقيم ، فأنى أعاتبه فى ترك جليات المحامل الجميلة ، التى بها تنقطع
الخصومة بيننا فى هذه المسئلة الجميلة مع انها أجلى من أن تخفى على من

(١) أى السؤال الاول عن المراد بقوله عليه السلام أصول دينى كتاب الله الخ .

عرف بعض ماعلمه الله سبحانه وسلك سبيله التى طلب فيها أن
يرضى الله تعالى *

وبيان ذلك أن الاشكال انما نشأ من اعتقاده أن اللام فى العرض
لا تقيد شيئاً غير العموم ، من جميع فوائد المنطوق والمفهوم ، وهو أجل
من أن يجهل احتمال خلاف ذلك عند جميع أهل العلوم * فان للام أربعة معان
مشهورة عند أهل العربية والمعانى والبيان وأوضحها وأشهرها وأثبتها
وأكثرها (افادة العهد) الذى قصده فى أيبانى ، ودلت عليه القرائن من
كلامى وغير كلامى ، وقد تكون (للماهية) كقولنا الرجل خير من المرأة

وقد تكون (بمعنى النكرة) حيث يكون لمعهود فى الذهن وليس بمعهود
فى الخارج ولا هو للماهية كقول القائل أدخل السوق فانه لم يرد للماهية
لانها لا تدخل ؛ ولا أراد كل سوق ولا سوقاً معيناً فهو فى معنى النكرة

وقد تكون (للعوم) على اختلاف كثير فى ذلك وهو رابع معانيها
وأخفاها حيث اختلف فيه أهل العلم عامتهم وخاصتهم من جهتين
أما العامة فانهم اختلفوا هل للعموم صيغة تخصه أم لا ؟

وأما الخاصة فان المثبتين لصيغ العموم اختلفوا هل تقيده مع دخولها
على الجمع ذكر ذلك الجوينى فى كتابه البرهان ، وتقصى الخلاف فى ذلك
السبكى فى جمع الجوامع ولفظه : أوجز ماعلمت فى هذا فلنكتف به

قال فيه . والجمع المعروف باللام للعموم مالم يتحقق عهد خلافاً لابى هاشم
مطلقاً ولا مام الحرميين اذا احتمل معهوداً . والفرد المحلى مثله ، خلافاً

للإمام مطلقاً ولامام الحرمين إذا لم يكن واحده بالتاء اه ويعنى بالمحلى :
المحلى باللام أى المعروف به وبالامام : الفخر الرازى

ولنجم الدين فى كلامه على مقدمة ابن الحاجب اضطراب فيما تفيد
اللام الجنسية وكلام مختلف ومناقشة لابن الحاجب ، وهذا أجل ما يحتمله
كلامى ، وهو المحمل الاول فان قلت هذا صحيح إلا أنها لم تدل عليه قرينة
فالجواب من وجوه : أحدها أن القرينة على ذلك ظاهرة من كلامى وكلام غيرى - أما
من كلام غيرى فان العرض الذى جرت عادة المتكلمين باختصاصه واختياره
للاستدلال هو العرض السكونى دون السمعى والذوقى واللوئى *

والسكونى هو المنتقسم إلى الحركة والسكون والاجتماع والافتراق
والكون المطلق ، وزاد أصحاب أبى الحسن فيه البعد والقرب ، فهذا الجنس
من الاعراض هو المذكور فى صدر كل كتاب من كتب الكلام حتى
فى المختصرات كالمسائل الثلاثين ، وحتى ذكره أيدى الله فى أسنائه هذه
المختصرة وخصه بالاحتجاج به دون غيره كما اختصه بذلك سائر المتكلمين
حتى ذكر ابن متويه فى المحيط سؤالاً فى ذلك ، فمن لفظه فيه . قوله
فهل سلكتم فى ذلك غير الدلالة التى تذكرها مشايخكم من البناء على
الدعاوى الأربع ، وإذا أيتم إلا أن تصدروا الكتب بذكرها فما فيها من
زيادة الفائدة على غيرها إلى آخر ما ذكره ، وإنما قصدت الاستشهاد بكلامه
على ما ادعيت من أن دليل الاكوان هو المعهود فى الاستدلال بالاعراض
على حدوث الحادثات ، وأما ما يدل على ذلك من كلامى فهو انى عطف

الكلام على هذا البيت بالاسئلة القادحة في دليل الاكوان بخصوصه .
ولو أردت ابطال جميع الاعراض وهي عامة لم يكف بطلان بعض خاص
منها، ولا يخفى مثل ذلك على أحد، ويسمى هذا الجنس من الاعراض
بالاكوان لانه مأخوذ من كون الجسم في المكان *

﴿ الحمل الثاني ﴾ ان أكون ما أردت العهد بادخال اللام على اسم
الجنس فانه لا يتعين التعميم بذلك ولا يتبين لان شرط التعميم في ذلك عند من
ذهب اليه أن يكون في الاثبات دون النفي، لان قولنا ما جاء الرجال
لا يفيد أنه ما جاء رجل واحد وإنما يفيد نفي المجيء عن جماعة الرجال
بخلاف قولنا جاء الرجال بالاثبات، وهذا واضح، وقد نص عليه البيضاوى
في كتابه المنهاج في أصول الفقه * وذكره أهل المعاني والبيان الا في
صورة واحدة وهي اذا تقدم لفظ كل مضافا الى مفرد مثل كل رجل لم
يقم، فانه يتوجه الى الافراد دون الشمول، بخلاف ما لو قدم النفي فقلنا لم
يقم كل رجل فانه ينصرف الى الشمول ولا يدل على انتفاء المجيء عن
كل فرد، وقد اضطرب صاحب التلخيص في الفرق بينهما، وتوهم بعضهم ان العلة
مجرد تقديم المسند اليه وتأخير النفي وليس كذلك فانك لو قدمته وجعلته جمعا
لا نصرف الى الشمول لقلنا كل الرجال لم يقوموا، وإنما هو عرف لغوى
مقيد بقيدین أحدهما تقديم المسند اليه، وثانيهما افراده مؤكدا بكل
وأحسن ماوجه به أنه حينئذ نفى لفعل الكل أى لفعل كل واحد
وقولنا لم يقم كل أحد نفى الكل عن الفعل . وهذا الثانى، هو الذى دل
عليه الباب لم يخرج منه الا تلك الصورة الواحدة وجميع الامثلة وان

كررت من هذه الصورة كقوله صلى الله عليه وآله وسلم (كل ذلك لم يكن)

وقول أبي النجم

قد اصبحت أم الخيار تدعى على ذنبا كله لم أصنع

يرفع كل ولو نصب انصرف الى الشمول كانه يخص المبتدأ والخبر

وكذلك يجب افراد الخبر من قولنا كل رجل قائم ويمتنع قائمون

وهو يحتمل زيادة في النظر والله الفتاح ومنه :

ما كل ما يمتنى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن

ومنه ماجاء القوم كلهم ولم آخذ كل الدراهم وكل الدراهم لم آخذ ، النفي فيه

متوجه الى الشمول خاصة كما قاله عبد القاهر ، وقولنا ماجاء القوم كلهم ممانص

عليه عبد القاهر وهو نظير قولي لا العرض متى كان بمعنى الاعراض

كلها الا اني لم أؤكد به بكل ، وكل في هذا الموضع للتوكيد لا للتأسيس قطعاً

وفاقا لانها متأخرة فلا يحل سقوطها بمعنى ما قبلها ولا بغيره بدخولها

قال صاحب التلخيص ويفيد (يعنى نفي الشمول) ثبوت الفعل أو الوصف

لبعض أو تعلقه به ، وقد نقل الجويني في باب العموم من البرهان عن سيبويه

أنه يجوز ان يقول مارأيت رجلاً قائماً وإعمارأيت رجلاً ، وهذه الصورة التي

جوز سيبويه فيها ما يجوز هي أصرح عموم النفي فكيف مانحن فيه

ويوضح ما ذكرت انك إذا قلت في النفي ماجاء رجل أفاد العموم

فاذا جعلت الرجال موضع رجل تغير المعنى فيتغير العموم وقد ذكره

مختار في المجتبى وقال هو مثل ما جاء عشرة رجال لا يفيد نفى مجيء التسعة فما دونها وأجاب عن قوله تعالى (لا تدركه الابصار) بأن العموم مستفاد من معنى المدح كقولنا فلان لا يفعل القبائح فانه يعلم من معنى المدح انه لا يراد أن يفعل بعضها

﴿ المحمل الثالث ﴾ لو قدرنا انه لم ترد اللام الا للعموم وانه في كلامي يفيد العموم بالاجماع فلا شك ان العموم يختص بالقرينة ولا سيما الجلية المتصلة به ، وفي كلامي قرينتان لذلك ، احدهما ما قدمته من عطفي على ذلك بالاحتجاج على بعض أنواع الاعراض ، ولا سيما أن تلك الاعراض التي ذكرتها هي الموهودة المشهورة *

فالتخصيص بها كثير قريب حتى منعت الحنفية من ارادة غير الموهود كما هو مذكور في موضعه من كتب الاصول ، وثانيتها ، تقديمي الاحتجاج بكلام الله وهو من الاعراض فانه ظاهر في ان قدحى في بعضها وإن اثبت بلفظ عام كما يعرف ذلك في قول من قال : ربى الله لا إله إلا هو أو قال الله ربى لا الارباب ، أو قال أهلى بنو هاشم لا الناس وامثال ذلك فهاتان قرينتان قد حققنا هذه اللفظة الضعيفة الدالة على العموم أولاً وآخراً كيف مع ما حفها من القرائن من بين يديها ومن خلفها ومتصلابها ومنفصلاتها

ولقد وجدت أيدك محملاً سائفاً للامام يحيى بن حمزة المؤيد بالله في قوله ان

اجماع التأخرين لا يصح مع أنه قال لا يصح قطعاً بالضرورة على جهة التحقيق هذه ألفاظه عليه السلام في كتابه المعيار، فأمكنك تأويل القطع والضرورة والتحقيق بالتجاوز بها عن الاستبعاد الذى ليس بحجة عند أحد من المحصلين كما سيأتى، وما أمكنك أن تصرف كلامى عن جهة العموم والشمول والاستغراق المحقق بوجه من وجوه الاشتراك الذى فى اللام ولا وجه من وجوه المجاز الذى يدخل العموم المجمع عليه وأنا أخرج الى الحمل على السلامة من الامام عليه السلام وان كان أحق به منى، وذلك لنقصانى وكماله وكون الكل حامل له على السلامة مسامحة منصبه من كمال مناصب العلم والامامة، وقليل من يحملنى على السلامة فحملنى على ذلك كالصدقة على الفقير البائس، بل قد رأيت المسئلة لا تزال دائرة بين علماء الاسلام لانكارها فيها ولا متعرضاً لافرادها بالبحث والتأليف حتى اذهب اليها ولحظتها احداق النظر وتواترت فيها التاكيف بالانكار ما ذلك الا لما وعد به الصادق الامين صلى الله عليه وآله وسلم من عود الدين قريباً كابدأ، وحسبى الله وكفى لا اشرك به أحداً.

﴿المحمل الرابع﴾ لو قدرنا النزاع فى جميع ما تقدم مادل كلامى على نفى ذوات الاعراض على جهة التصوصية وان فى كلامى ما يستلزم التوقف فى ماهية بعضها، وإنما منصوص عبارتى هذه فى هذا البيت ان الاعراض ليست أصول دينى، ويجوز فيما ليس أصلاً لدينى أن يكون ثابتاً فى نفسه لكننى مع ثبوته لم أبين نظرى عليه لاستغنائى عنه بما هو أجلى منه وأولى كما أشرت اليه فى آياتى حيث قلت :

وما لهم عن دليل المعجزات أما

في طلعة الشمس عن نور السهي عوض

فجعلت دليل المعجزات أقرب وأقوى وأجلى، وأقطع للحجاج وأولى
كما أتمدها إن شاء الله تعالى عند القصد إلى إفحام الخصوم وقطع اللجاج وكذلك
الاستدلال بما في هذا العالم من عجائب المصنوعات، وغرائب المخلوقات
وما في جميعها من الأحكام والاتقان المعلوم بالفطر حاجته إلى صانع أحكمه
وعليم قدره وهذان الطريقتان صحيحان؛ أما الاستدلال بالمعجز فلا أعلم
فيه خلافاً، وأما الاستدلال بالأجسام من جهة الأحكام فكذا لا أعلم وجها
للخلاف فيه، إلا أن في عبارة ابن متويه اشعاراً بخلاف أبي هاشم وحده
في ذلك وما هو عندي بصحيح عنه إن شاء الله تعالى كما دل عليه ابن متويه
في أوائل المحيط وذلك يأتي قريباً إن شاء الله تعالى *

وهذان الأمران هما مرادى بقولي *أصول ديني كتاب الله لا العرض*
أعني الاستدلال على أصول ديني بأعجاز القرآن وأحكام خلق المخلوقات
لجلالتهما لا العرض الكوني لاستغنائي عنه مع كثرة الشبه فيه كما نص
عليه ابن متويه في أوائل المحيط، وقد قال الإمام يحيى بن حمزة من أئمة
العترة وكثير منهم عليهم السلام، والشيخ أبو الحسين وكثير من أئمة
الكلام، والشيخ ابن تيمية وكثير من أصحابه من جميع طوائف الإسلام
بأن لا يكون غير ذوات حقيقة، قال الشيخ العلامة مختار بن محمود المعتزلي
في كتابه المجتبى في خاتمة أبواب العدل أن ذلك مذهب أكثر شيوخ المعتزلة

من البصرية والبغدادية، وانهم يقولون بانتفاء الاكوان، ولم يحك القول بثبوتها إلا عن أبي هاشم وأصحابه، وذكر أن لهم في ذلك خبطا كثيراً ومغالطات وترددات لاتندفع الا بتحقيق ما ذكره، ثم ذكر الادلة في ابطال قولهم وطول وجود، فنأجب الانصاف حقق أدلة الجميع. وكان أبو هاشم رحمه الله يقول: إن الاكوان ثابتة بالضرورة ثم رجع عن ذلك، وكان والده أبو علي يقول: انها محسوسة بالعين وبغيرها من الحواس ذكر ذلك عنهما بن متويه في المحيط. وهذا غاية الاضطراب في دليل الاكوان وإذا حملنا على السلامة والجلالة مع هذا الاضطراب العظيم فيما هو عند أحدهما من المحسوسات المشاهدات وفيما قطع أحدهما على أنه كان مخطئاً قطعاً في دعوى أنه من الضرورات وأن والده مصر على الخطأ المقطوع به في أنه من المحسوسات الجليات، فحمل ان شاء الله على السلامة أيسر من ذلك وأسهل على من سلك هذه المسالك *

وكيف يستنكر الشك مني فيما اضطرب فيه الشيخان هذا الاضطراب حتى تردد أبو هاشم فيما كان قاطعاً أنه من الضروريات واعترف آخراً أنه كان أخطأ خطأ قاطعاً في قوله إنه من الجليات وحتى استمر على التنازع فيما هو عند أكثرهما من المشاهدات مع خلاف عيون النظر لهما فيما اتفقا عليه، وأعجب من هذا وأغرب حصر السائل أيده الله جميع طرق معرفة الرب الجليل المسمى بالحق المبين، في هذا الامر المشكل عندهم يصححه من الاقلين، الباطل عند من ينكره من الاكثرين والمحققين

وإذا جاز الخطأ على أبي علي فيما يقطع فيه أنه من المشاهدات وعلى أبي هاشم فيما كان يقطع على أنه من الضروريات فالخطأ عليهما في الاستدلاليات الخفيات أقرب، وحصر الطرق إلى الله تعالى في هذا الأمر الخفي أغرب وأعجب، وليس القصد بهذا إخفائي رفيع منزلتهم ولا القدح في عظيم علمهما، وإنما القصد أمران: أحدهما تهوين أمر المخالفة في هذه الدقائق على السائل، وأن المخالف فيها جدير أن يسلك به مسالك من تقدمه من المختلفين في هذه المسائل في تطلب وجوه المحامل، وأن لا يخص بذلك الاوائل، وثانيهما ان لا يرجع على جميع من خالفهما من الأئمة وعلماء الامة، ولا تغتر بكثرة مقلديهما في هذه البلاد، ممن ادعى أنه لا يقلد في الاعتقاد، وهو لهما أولاهما أو لمن لا يساوى آثارهما أتبع من الظل، وأطوع من النعل، بل كيف لنا أن لا نعارض بهما رحمهما الله الرسل الكرام، عليهم الصلاة والسلام والبراهين العظام، وما أشد كراهتهما لذلك، وللسالكين هذه المسالك، فلو اقتدى بهما مقلدوهما ما قلدوهما ولولم يقلدوهم لاختلّفوا كما اختلفوا، وتحيروا وترددوا كما تحيروا وترددوا، على ما جرت به العوائد في احوال الخائضين في هذه الدقائق والله أعلم

﴿ فصل وفي كلام السائل أيده الله ﴾ تنبيه لي على أن اعتمد على النظر فيما نبه عليه القرآن من الأدلة الجسمية لا يصح الا مع اثبات العرض الكوني بخصوصه وقد كبر على أن يكون مثله من طلبه العلم المنقطعين اليه مع فرط ذكائه وشدة رغبته وطول غربته بظن مثل هذا الظن، خصوصاً من المدققين المحققين في هذا الفن؛ ولقد خشيت أن يكون هذا الذي ذكره أيده الله قد شاع في أهل العصر فأحببت أن أذكر من نصوص مشايخ المعتزلة وأئمة الاسلام وأدلتهم ما يعلم به بطلان ذلك

وأورد بعض أفاضلهم وأنسبها إلى مواضعها المعروفة ليعلم باختباري بالبحث عنها صدق كلامي . فاني الآن مخاض ولا يصح أن أحكم لنفسي ولا أزيها بل أحيل النظر في الرواية الى مواضع النقل ، وفي الدلالة إلى محض العقل ، وجزى الله السائل عن المسامين خيراً لقد نبهه على أمر ما حسبت أن أحداً يشك فيه ، والله يأجرني على يئاني له ان شاء الله تعالى ، ويسان ذلك يظهر في مقامين :

﴿المقام الاول﴾ في بيان الحجة على الله تعالى من غير طريق الاكوان ومن قال بذلك قال الشيخ المحقق أبو محمد الحسن بن أحمد بن متويه في باب اثبات المحدثات الدالة على الله في كتابه المحيط مالفظة : والمعتبر فيما يجعله دليلاً على الله تعالى هو ماله صفة مخصوصة (الى قوله) في بيان ذلك إنه ما يتعذر على القادرين بقدره ، فكما اتصف بهذه الصفة : فهو دليل على الله سبحانه وتعالى . فاذا أردت كشف هذه الجملة قلت : إن الذي يدل عليه إنما هي أفعال الحوادث ، وكلها لا تخرج عن أن تكون جوهرًا أو عرضًا ، فما كان من باب الجواهر فهو دليل على الله تعالى لا محالة ، لتعذره على القادرين بقدره وما كان من باب الاعراض فإنه يتقسم ، إلى قوله بعد أن ذكر ثلاثة أسئلة وجوابها : فالذي ذكره أبو هاشم في الجامع الصغير وغيره أن لا طريق يستدل به على حدوث الجسم إلا بالبناء على الاصول الاربعة ، وذكر أن باقي العرض لا يمكن به الاستدلال على حدوث الجسم ، قال ابن متويه : ولكن الذي عليه شيوخوا وأشار اليه في الكتاب أن الاستدلال بغيره صحيح ، وهو أن في القول بعدم الجسم إثباتاً له فيما لم يزل على صفة واجبة

من هذه الصفات من نحو كونه في جهة مخصوصة، إذ لا يجوز أن يقال: إنه فيما لم يزل يحصل في جهة، وقد كان يجوز أن يكون في أخرى بدلا منها، لأن قدمه يوجب أن يكون في جهة معينة لا يصح انتقاله عنها، وقد عرفنا أن من حكم تميزه صحة تنقله في الجهات، وإنما يجب كونه في جهة ما لا بعينها فلا يصح إذاً أن تكون قديما ويجب أن تكون هذه الصفة متجددة له، وهذا يوجب تجدد الوجوده أيضاً، يبين هذا أن كونه كائناً إذا كان متجدداً، وتميزه لا يظهر إلا بذلك وجب تجدد التحيز له، ووجوده لا ينفك عن تميزه، فيجب تجدد وجوده أيضاً، فهذه طريقة يمكن سلوكها اه كلام ابن متويه بحروفه، وفيه ما ترى من نسبة أبي هاشم في هذا إلى الشذوذ، وهذا كلام أحرص أصحابه على نصرته، وهذا شذوذه بالنظر الى أهل مذهبه المشغولين بأقواله وكتبه فكيف شذوذه بالنظر الى سائر أهل الكلام، بل بالنظر الى السلف الكرام وسائر علماء الاسلام، وقد اختار ابن أبي الحديد في شرح أول خطبة في نهج البلاغة الاستدلال على حدوث الاجسام بتركيبها لاستلزامه أنها ممكنة غير واجبة وان واجب الوجود غير ممكن، والاستدلال على حدوث الاعراض بافتقارها الى الاجسام، وواجب الوجود غير مفتقر، وذكر غير هذا من الأدلة دون دليل الاكوان، فلم يذكره ولم يعرض به ولم يلتفت اليه، وهو علامة المعتزلة وخاتمة محققين ومن المعظمين لأبي هاشم، ثم نتقل من أخص خواصه من الجبائية والبهاشمية الى سائر شيوخ الاعتزال مثل أبي الحسين وأصحابه، وقد ذكرنا في حصر الأدلة على

الله على جهة الاجمال أنها ستة أجناس كل جنس يشتمل من الأنواع على مالا حصر له ولا حد، ولا حساب له ولا عد، وهذه الستة الاجناس (الاول) امكان الذوات (الثاني) حدوث الذوات (الثالث) مجموعهما (الرابع) إمكان الصفات (الخامس) حدوث الصفات (السادس) مجموعهما، فمن ذكر هذه الاقسام وأجاد الكلام في كل واحد منها الشيخ العلامة الزاهد المحقق مختار بن محمود في كتابه المجتبى (قلت) وقد ذكر العلماء تقسيم بعض هذه الاجناس على جهة الاجمال أيضاً لكنه أبسط قليلاً من هذا ذكره لتنبية الناظر على عظيم ملك مال كها ولطيف حكمة خالقها وعظيم إحكام صانعها، وأخصر ما قيل في ذلك أن نقول: الممكن إما أن يكون متحيزاً، أو صفة للمتحيز، أو لا متحيزاً ولا صفة للمتحيز، هذه ثلاثة أقسام:

(الاول) المتحيز وهو إما أن يكون قابلاً للقسمة أولاً (الثاني) الجوهر الفرد عند من يقول به (والاول) الجسم عند من لا يشترط تركيبه من ثمانية جواهر، والمشرطون لذلك هم المعتزلة أو جمهورهم، وذكر مختار أنه بحث لغوى وهو: إما أن يكون من الاجسام العلوية وهي الافلاك والسكرالك والعرش والكرسى واللوح والقلم وسدرة المنتهى والجنان وإما أن يكون من الاجسام السفلية، وهي إما بسيطة وإما مركبة: فالبسيطة العناصر الاربعة: الارض والماء والنار والهواء، وقد قيل إنها كلها كرية ولم يصح هذا في السمع ولا طريق له سواء، وأما المركبة فهي المعادن ثم النبات ثم الحيوان على كثرة أقسامها (والثاني) وهو الذي يكون صفة

جردت كل مايج من ملاحظته لم تتق الله في ظي ولا غصن
 فاستبق للبدر بين الشهب رباته تملكه في أوجه عبدا بلا ثمن

وقال رحمه الله حين بعث شوقي بك الى الكاتب الكبير
 الاستاذ داود بركات رئيس تحرير الاهرام بيتين وطلب اليه
 عرضهما على الفقيه ليبدى رأيه فيهما . فلما عرضهما عليه جادت
 قريحته بثلاثة أبيات في معنى بيتي شوقي بك ثم بتحية منه .

بيتا شوقي بك

يا ساوي البرق يرمى عن جوانحنا بعد الهدوء ويرى عن ما قين
 يفرق الماء في دمع السماء دما غاض الأسى نخضبنا الأرض باكيننا

جواب صبري باشا

يا وامنض البرق كم نهبت من شجن في اضلع ذهات عن دأشها حين
 فالما في مقل والنار في مهبج قد حار بينهما امر الحبين
 لولا قد كر ايام اناسلفت ما بات يبكي دما في الحي باكيننا
 يا آل ودى عودوا لاعدمتكم وشاهدوا ويحكم فعل النوي فينا
 يا نسمة ضمخت اذيالها سحرا ازهار اندس هي بوادينا

﴿الآية الثانية﴾ «وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون» (الثالثة) وما ذراً لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآيات لقوم يذكرون ﴿الرابعة﴾ «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون» ﴿الخامسة﴾ «أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنتبنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنتبوا شجرها إلا مع الله بل هم قوم يعدلون» ﴿السادسة﴾ «أم من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون» ﴿السابعة﴾ «أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون» ﴿الثامنة﴾ «أم يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرأين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون» ﴿التاسعة﴾ «أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» ﴿العاشرة﴾ «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون» ﴿الحادية عشرة﴾ «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» ﴿الثانية عشرة﴾ «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين» (الثالثة عشرة) «ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون» (الرابعة عشرة) «ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن

في ذلك لايات لقوم يعقلون. (الخامسة عشرة) « ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الارض إذا أنتم تخرجون. (السادسة عشرة) « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (السابعة عشرة) « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج (الثامنة عشرة) « والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » (التاسعة عشرة) « وأنزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد » (العشرون) « والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » (الحادية والعشرون) « قتل الانسان ما كفره من أى شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره » (الثانية والعشرون) « فلينظر الانسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلًا وحناثًا غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولانعام » (الثالثة والعشرون) « قول نوح لقومه « ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا » الآيات (الرابعة والعشرون) « ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعمم القادرون ويل ويؤمئذ للمكذبين »

ومما هو أوضح في هذا قوله تعالى في هذه السورة « ويل يومئذ للمكذبين . فبأي حديث بعده يؤمنون » (الحجة الخامسة والعشرون) ما ذكره الله

تعالى في أول سورة النبأ . وما أعظم الحجة بقوله سبحانه فيها «وبنينا فوقكم سبعا شداداً وجعلنا سراباً وهاباً وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً» لأنها شهادة كاذبة عليه في قوله تعالى «الذى رفع السموات بغير عمد ترونها» ولا شك أنها وسائر العالم العلوى والسفلى (١) في الهواء باجماع العقلاء وإقرار الجاحدين. وفيه غاية الثقل. وطبع الثقل الهوى إلى الأسفل لولا أمسكه الله عز وجل إلى أمثال ذلك مما يطول ذكره . والقصد التبرك والتشفي بذكر الله تعالى وذكر آياته، وليس من الواجب أن لا تخاطب به الامن هو أهله . فان الخطيب يوم الجمعة المشروعة باجماع المسلمين يخاطب كبراء المسلمين بذلك على جهة التذكير . وكم من مذكر لا ذكر منه ، وحامل فقه الى أفقه منه . والاعمال بالنيات * وليس في شيء من هذه الآيات وأمثالها ما تنبئ صحة الدلالة فيه على ثبوت العرض الكونى . والذى يدل على ذلك وجوه (أحدها) خلو تفاسير القرآن من التنبيه على ذلك في تفسير هذه الآيات وأمثالها بخصوصها من لدن الصحابة الى يوم الناس (٢) هذا (ثانيها) أنه لا خلاف بين المسلمين والكافرين في كمال عقل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان فهمه أما المسلمون فظاهر، وأما الكافرون فعندهم أنه بكمال عقله وحلمه استمال الخلاق. واستعمل بهذه المربية الكبرى، فكيف يشتمل الكتاب الذى جاء به على أدلة قاصرة ما فيها دلائل واحد يشفى ولا يكفى !! وكيف لم يقدر بذلك أحد من اهل عصره لا من اعدائه ولا من أصدقائه مع ما في الفريقين من الاذكياء

(١) كلمة السفلى ثابتة في ثلاث نسخ خطية ولعلها زائدة او العالم السفلى وهو الارض وما عليها في الهواء كالعلى ولولا امساك الله لها هوت اه مصححه عيد

(٢) يريد يوم القيامة اى ويستتم ذلك الى يوم يقوم الناس لرب العالمين اه مصححه

النبلاء حتى يأتى بعض الشيوخ المتأخرين بعد ثلثمائة سنة من الهجرة فيستدرك على الله ورسله صلوات الله عليهم أجمعين* وجميع العقلاء ما كانوا عنه غافلين . (وثالثها) ما يأتى من تحرير الدليل العقلى فى كلام السيد المؤيد بالله عليه السلام* ثم نأظرنا الى هذه الطريقة المسماة بطريقة الاحوال فوجدنا الاحتجاج بها هو سنة الانبياء والاولياء والاسلاف الصالحين . وكما احتج الله به على عباد الاصنام من الاجسام ، وكما احتجت عليهم الرسل الكرام صلوات الله عليهم فماذا كروا فى شىء من ذلك دليل الاكوان* إما خلفائه أو لبطلانه ، ألا ترى أن الله تعالى احتج على بطلان ربوبية العجل بانه لا يرجع اليهم قولا ، وإبراهيم احتج على قومه بقوله أتعبدون ما تعبدون والله خلقكم وما تعملون . وبقوله بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون . وقال تعالى فى الاحتجاج على ذلك «والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون ايان يبعثون» وكذلك احتج موسى صلوات الله عليه على فرعون وهو مدع للربوبية بالآيات دون الاكوان فقال تعالى «ولقد آتينا موسى آيات بينات فاسأل بنى اسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الارب السموات والارض بصائر وانى لأظنك يا فرعون مشبورا» وكذلك الأئمة عليهم السلام أما على عليه السلام فكلامه فى النهج معروف وله فى ذلك خطبة الاشباح التى لم يعلم لاحد ما يقاربه فكيف ما يماثلها ، ومن كلامه عليه السلام فى أول خطبة من النهج : فبعث فيهم رسله ليستادوهم ميثاق فطرته إلى قوله ويروم آيات المقدره من سقف

فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع . ومعاش تحييمهم . وآجال تقنيهم .
وأوصاب تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم، ولما كان كلامه عليه السلام معروف
الموضع في النهج لم أستكثر منه خوفا من الاملال، والارشاد الى
موضعه كاف لاسيما مع مطالعة شروحه كشرح الامام يحيى عليه السلام وشرح
ابن أبي الحديد رحمه الله وجزاه عن آكل على خيرا، فلقد أفادوا جادو يذبحي
أن ينظر في كلامه في هاتين الخطبتين خصوصا* وقد احتج ابن أبي الحديد في
شرح الخطبة الاولى بدلالة التركيب . كما احتج بها على عليه السلام ولم
يتعرض للاكوان بتصريح ولا تلويح ولكل من الأئمة عليهم السلام في
هذا المعنى كلام تركت سياقه كذلك خوف الاملال . ولكني أذكر
اليسير من كلام عيونهم* قال القاسم بن ابراهيم عليه السلام ما رأيت كلاميا
قط له خشوع الجمل الجمل رواه عنه محمد بن منصور، قال الهادي عليه السلام في
كتابه المسمى بكتاب البالغ المدرك بحج على البالغ المدرك: ان تنظر الى هذه
الاعاجيب المختلفة المدركات بالحواس من السماء والارض وما بث فيها من
الحوانات تعلم انها محدثة لظهور الاحداث فيها معترفة بالعجز على انفسها انها
لم تصنع شيئا ولم تشاهد صنعتها وتعجز أن تصنع مثلها. وتعجز أن تصنع ضدها
فلما شهدت العقول أن هذا هكذا ثبت أن لها مدبرا حكيما . ومعتمدا
اعتمدها وقاصدا قصدها ليس له شبيه ولا مثيل اذا مثل جائز عليه ما يجوز
على مثله من الانتقال والزول والعجز والزيادة والنقصان إلى قوله عليه السلام
واجب على كل عاقل ان ينظر في نجاته ولن ينتفع ناظر بنظره الا بسلامة قلبه من
الزيف وطهارته من الهوى وبرائه من الف العادة التي عليها جرى، والقصد
بارادته ونيته الى العدل والنصفة وإصابة الصواب وترك التقليد ويكون

طالباً لقيام الحجة لازماً لمنازل القرآن متمسكاً به مؤثراً له على ماسواه ملتصقاً للهدى فيه فلن يعدم الهدى من قصده لان الله جل جلاله ضمن لمن اتبع هداه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة فبمثل هذه الشروط يستبان البرهان ويستشف الغامض من الصواب وتستبان دقائق العلوم وتهجم به على مباشرة اليقين بربه فتهتك الشكوك عن قلبه *وقد شرحه السيد الامام أبو طالب عليه السلام فجود شرحه وقال عليه السلام : وتبرأ المهادي عليه السلام في خطبة كتاب الاحكام من كل معترى غال وفي كتاب الجامع الكافي من هذا ما ليس في غيره فليطالع فيه أو في الكراريس التي نقلتها منه وأشهدت على ذلك خوفاً من همة المتعصبين *وقال الامام الناصر للحق الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر الاشرف بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام في كتاب البساط : وشهادة كل مصنوع بان له صانعا مؤلفا، وشهادة كل مؤلف بأن مؤلفه لا يشبهه، وشهادة كل مؤلف بالاقتران والحدوث؛ وشهادة الحدث بالامتناع من الازل فلم يعرف الله تعالى من وصف ذاته بغير ما وصف به نفسه، وحكى عنه مصنف المسفر أنه قال: المفروض معرفة الاسم والمسمى وأن الاسم غير المسمى لان المسمى يعرف بالصنع والدليل، والاسم يعرف من طريق السمع، وقال في كتاب الكنز والايمان. ثم انصدعت من هذه الامة طائفة تحلت باسم الاعتزال الى قواه بعد ذكره لكثير من تعمقهم حتى خاضوا في صفات ذاته وضربوا له الامثال وقد نهى الله سبحانه عن ذلك بقوله تعالى «فلا تضربوا الله الامثال» وقوله «إنما حرم ربى الفواحش» الآية إلى قوله «وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون» وبالغوا في خلاف ذلك ولم يرضوا حتى تعدوا إلى الكلام

في كل مالا يعلمون ولا يدركون رمياً بعقولهم وحواسهم من وراء
غاياتها إلى قوله وتكلموا من دقائق الكلام بما لم يسلكوا وبما
لعل حواسهم خلقت مقصرة عن درك حقيقتها ومأجزة عن قصد
السبيل بها ومن شعره عليه السلام في هذا المعنى قوله فيها :

قد اعتدى الناس حتى أحدثوا بدعاً

في الدين بالرأى لم تبعث بها الرسل

حتى استخف بحق الله أكثرهم وفي الذي حملوا من حقه سعل
وقوله :

فجاهد وقلد كتاب الآله لتلقى الآله اذا مت به

فقد قلد الناس رهبانهم وكل يجادل عن راهبه

ولالحق مستنبط واحد وكل يرى الحق في مذهبه

وللقاسم بن علي عليه السلام كتاب الأدلة من القرآن على توحيد الله وصفته
قال فيه ولا بد من معارض لنا في علم القرآن ممن اكتفى بأفانين الكلام
إلى ما ذكره من كون القرآن معجزة وصنعا لله تعالى يدل عليه كسائر
مصنوعاته ، ذكر هذه الاشياء وأضعافها السيد العلامة الامام المقتصد
والعالم المجتهد ، نور الدين أبو عبد الله حميدان بن يحيى بن حميدان بن القاسم
ابن الحسن بن ابراهيم بن سليمان بن القاسم بن علي بن محمد بن القاسم
بن ابراهيم من مجموعته المعروف من المنتزع الثاني في ذكر
بعض ما اختلف فيه أهل علم الكلام من الاقوال في الذوات والصفات
والأحكام وهو المجموع الذي كتب عليه جماعة من أئمة العترة عليهم السلام انه
معتقدهم منهم الامام أحمد بن الحسين والمنصور بالله الحسن بن محمد أخو الأمير

الحسين مصنف شفاء الأوام والامام المطهر بن يحيى والامام محمد بن المطهر
إلا أن الامام محمد بن المطهر استثنى الجوهر قال فان لى فيه نظراً ، والحسن
ابن محمد استثنى الارادة فانه كان يتوقف فى كيفيتها والمراد ان هؤلاء كلهم
سلكوا طريق الاستدلال بالاجسام المحكمة المعبر عنها بالصنع وحكموا بما
تحكم به العقول من دلالة المصنوع المحكم على صانعه الحكيم وأن هذه الطريقة
هى التى كان عليها الصدر الاول الذين شهد لهم الرسول الصادق الامين بانهم
خير القرون بل شهد لهم بذلك كتاب الله تعالى حيث يقول «كنتم خير أمة
أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» وقد اجتمع المختلفون
على انهم كانوا على الصواب ، ولكن ادعى المتعمقون من أهل كل بدعة
انهم كانوا لهم سلفا وأبى الله الا أن يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو
زاهق وعندى أن البدع كلها معلوم ابتداءها بالضرورة التى لا يستطيع
أحد النزاع فيها ولكن كل مبتدع يعتذر لبدعته فنترك الاعذار سلك
الجدادة لا ترى أن الصوفية لا يستطيعون يدعون أن رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم ولا أصحابه ولا التابعين كانوا يصنعون صنعمهم فى السماع لكنهم
يعتذرون بانه يصلح قلوبهم ويقويها ولا يقوم غيره مقامه مع وجود
الاختلاف فى جوازه بين أهل العلم وتعارض الاخبار فيه ونحو ذلك
والملوك لا يقدرّون على دعوى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء
بعده كانوا على مثل أحوالهم فى الرسوم الملكية والامور المصاحبة لكنهم
يعتذرون بفساد أهل الزمان وقصد التهيّب والتوصل إلى المصالح على

حسب الرأي تارة وعلى حسب الضرورة أخرى، وكذلك أهل الوسوسة في الوضوء من المتعبدین والعارفين وأهل التدقيق فيما لا يقع غالباً بين الفرضيين والمتفقهين* وكذلك علماء الكلام والجدليون والمنطقيون لا يستطيعون أن يدعوا على السلف أنهم خاضوا في علمهم ولا مهدوا القاعدة ولو كان شيء من ذلك لنقلوا انصوصهم في ذلك ولو وافق الجبائين الصحابة والتابعون في إثبات الاكوان ومن قال بقول الامام يحيى وأبي الحسين لنقلت أقوالهم في ذلك كما تقامت في الفقه والتفسير ولما أطبقوا على تغليق هذه الابواب كما أطبقت الرسل صلوات الله عليهم وخلت عنه كتب الله المنزلة أولها وآخرها ولم يحسن من المسلم المظم اسكتب الله ورسله صلوات الله عليهم والسلف الصالح أن يقطع على قببح حال من تشبه بهم في هذه الخصلة وإن كان مقصراً في غيرها فالسيئة لا تقببح الحسنة لصدورهما عن فاعل واحد، والعاقل يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال* وانما ذكرت الحجة بالكتب والرسل والسلف لان المخاطب بحمد الله يعرف أنهم على الحق وانا كذلك وليس يحسن منا أن نفرض أنفسنا من جملة أهل الجاهلية بعد أن من الله علينا بالاسلام ولو فرض ذلك جاهل لدلته البراهين الصحيحة على ملازمة من ذكرته للحق، وعلى كل حال فالقصد أن يالحقني السائل أيده الله وغيره بحكم من قلت بقوله فيما يستحقه: من قال بذلك القول فالنظر إلى ذلك القول

خصوصاً والذي اخترته من هذه الطريقة هو بعينه الذي اختاره المؤيد بالله في كتاب الزيادات في فصل عقده عليه السلام في سكون النفس ومعرفة الله واختار فيه الاحتجاج بما في العالم من الاحكام فان معرفة احتياج الاحكام الى محكم من العلوم الضرورية الاولى قال لأنه يجوز من طريق الاتفاق أن يسقط كوز من علو فينكسر ولا يصح من طريق الاتفاق أن يصير الخشب دواة* والفرق بينهما أن في الدواة آثار الحكمة ولا يوجد ذلك في انكسار الكوز، فاذا ثبت ذلك فآثار الحكمة في خلق بني آدم وغيرهم من الاشياء أكثر. واحوج الاشياء اليه هواء، لانه لو اقطع مات الانسان سريعاً فجعله الله مباحاً واسعاً، وبعد ذلك الماء فالحاجة اليه وإن اشتدت فهودون الهواء. وكذلك الطعام بعدهما فان الرجل لا يموت باقطاعه يوماً ويومين فلم يوسع الله سعة الماء والهواء، وكلما نخرين والفم فان فيهما مجرى الانفاس ولو أصاب بعضهما شيء تنفس بالآخر ولو علا حتى جنى عليه الربو تنفس بهما* والفروخ لما لم يجعل الله للدجاجة الشفقة المفرطة عليها جعلها قوية ناهضة بأمرها تلتقط الحب حين مفارقتها للبيضة، وعكس ذلك بنوا آدم جعل للوالدين من الشفقة والعطف عليهم ما ترى لانهم لا ينهضون بأمورهم. ولو قال قائل إن هذه التراكيب حادثة فمن اين أن تلك الاجزاء المركبة حادثة مثلها؟ قلنا اذا علمنا أن للعالم صانعا يصنعه على هذه الاحوال صح أن نقول بعد ذلك أن محدث هذه الاشياء المدبر لها والمركب

لهاعلى هذه الاحوال يعرف بطريقة السمع اهلامه وقد صنف الجاحظ فى هذا كتاب العبر والاعتبار وأجادوا بدع رحمه الله تعالى * وقال المؤيد بالله فان قيل من أين انهما من صنع القادر المختار وما أنكرت انهما من طبع (١) قلنا لان الطبع ان سلمنا وجوده فانه لا يحصل به الشئ على قدر الحاجة وانما يكون بمقدار قوته وضعفه * الا ترى أن النار تحرق لاعلى قدر الحاجة بل على قدر قوتها وتقصر عن الحاجة ان ضعفت وكذلك الماء الجارى ، والحكيم يجريه ويقطعه على قدر الحاجة ، وكذلك البناء وغيره يعلم ضرورة وجوده بمتصرف وحصوله به انتهى كلامه * ومن جوز فى بدع خلق الانسان أنه من طبع كمن جوز فى كتابة المصحف المحكم أنه بمنزلة جمود المداد فى الاستناد الى الطبع فهو معاند موسوس لا يداوى بالنظر * وكما قدر رأينا موسوسين فى الوضوء ينكرون الضرورة ولا ينفعهم علم العلماء وقد قال تعالى «فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا» (فقف على كلام المؤيد بالله) فى كتاب الزيادات موقفا وانظر كيف عدل عن الاستدلال بطريقة الاكوان الى طريقة الاحكام الذى فى العالم ، ثم استدل بالسمع على حدوث كل شئ ووجد سبيلا الى الله تعالى غير الاكوان ، وكذلك فعلت حين استدلت بالاحكام الذى فى القرآن واخترته لانه معجزة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم والاعجاز صفة لا عرض * ومعرفته حاصلة بمعرفة العجز عنه لا بمعرفة حقيقة ذات الكلام لأننا لو عرفنا ذات الكلام ولم نعجز عن مثل القرآن لم يكن معجزا ، ولو عجزنا ولم نعرفها كان معجزا فقدر الكلام على العجز لاعلى

(١) ما: اسم موصول والمعنى من أين أنها بصنع المختار والذى تنكر أنها بالطبع اه مصححه

معرفة ماهية المعجوز عنه ونحن نعلم بالضرورة عجز ناعن بعض صفات الاصوات
 وأحوالها فنعلم عجز ناعن مثل صوت الرعد القاصف ونعلم أن علمنا بعجز ناعن ذلك
 لا يتوقف على معرفة ماهية الصوت وحده الاصطلاحي بعدم معرفة الصوت
 على سبيل الجملة كما أمكننا معرفة صفات الله تعالى بعدم معرفة ذاته على سبيل الجملة
 فان أهل عصر النبوة عرفوا الاعجاز وما خاضوا في ذلك وهو أمر
 لا يدرك بالفطرة ولا آيين من أمر يعلمه الخصمان جميعاً ، وأنت أيدك
 الله تعلم وأنا أعلم أنا كنا قبل أن تتلقى كلام المتكلمين في الكلام والا كوان
 لا نعرفها بالفطرة ولا يخطر لنا ببال على ذلك الترتيب الذي يفيد معرفة
 الادلة والحدود، ومن أنكر ذلك الحال الذي كنا عليه لم يستحق المراجعة
 فحمل الصحابة على معرفته رجالهم ونسائهم وفطنائهم وبلدانهم من غير
 تعلم مما يبان طرائق الانصاف فان اختصاص جميع العقلاء في ذلك
 الزمان بأمر لا يوجد في واحد من العقلاء في هذا الزمان من خوارق
 العادة الممتعة عقلاً ولم تختلف إلا في اللغة العربية وقد كانوا في
 البلادة بحيث عبدوا الجهاد الذين هم أشرف منه بالضرورة وكذلك غير
 المؤيد بالله من القدماء والمتأخرين يسلك المسالك السهلة في النظر* وكذلك
 اعتمد هذه الطريقة محمد بن منصور الكوفي المرادى بحب أهل بيت رسول
 الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي سأله الناصر الكبير أن يجمع له اختلاف
 آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ذكره المؤيد بالله في لزيادات* قال محمد
 ابن منصور في كتاب التوحيد والجملة بعد المبالغة في الاكتفاء بما في كتاب

الله تعالى من الأدلة مالفظة: وقد أوضح الله حجته على خلقه بما جعل فيهم من تركيب الخلق وآثار الصنعة والتحرير والتأليف واختلاف الحواس وقوام بعضها ببعض وإدراك بعضها ما لم يدركه بعض إذ خلقها سبحانه لذلك وجعلها تقوم بجزأين مختلفين نفس وجسد، ثم ألف بينهما بلطف تديره؛ وأحكم تركيبهما بحسن تصويره؛ فجعلها شخصا واحدا مكتملا لازيادة والتقصان عالما بنفسه عاجزا عن اجتلاب محابه ودفع مكروهه فمن كان بهذه الصفة علم عالما يقينيا واجبا اضطراريا انه مبتدع مصنوع مملوكة عليه أموره وأن صانعه غيره، وأن صانعه بأئن من جميع صفته انتهى بحروفه* وقد جمعت كتابا في طريقة أهل البيت والسلف في الاستدلال، ووقوف الولد عليه أسهل من نقله الى هنا، وأشارت فيه الى احتجاج الهادى في هذه المسئلة في كتاب البالغ المدرك وتقرير السيد ابى طالب له في شرحه وذكر ما يجرى المكلف في أول المنتخب كما ذكر ذلك المؤيد بالله في آخر الافادة وآخر الزيادات، وغيرهما من الأئمة السابقين والسادات، فقف عليه أو على ماشرت اليه في هذه المصنفات (واعلم) ان معرفة الله تعالى اجلى وأظهر من دليل الاكوان والقطع بتوقفها عليه يستلزم القطع بانها أخفى منه لان الدليل اجلى من المدلول عليه ولذلك كان له معرفا وقد حكى الله في كتابه العزيز عن رسله الكرام الذين هم خيرته من الانام ما يدل على ذلك حيث قال الله تعالى (قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والارض) * وقد أجمع أهل الملل الدينية وأهل الفرق الاسلامية على وضوح الطريق الى معرفة الله سبحانه وتعالى واشتد اختلافهم في الاكوان وعلمت دقته بالضرورة عند من حققه فكيف يكون

ما اشتهد اختلافهم فيه وعلمت دقته وغموضه كاشفا وموضحا ومجليا لما
أجمعوا على وضوحه وسهولته * وقد نص ابن متويه على كثرة الشبه في دليل
الأكوان * وقد استحسن علماء النظر قول بعض الأعراب وقد سئل
بم عرفت ربك ؟ فقال البعرة تدل على البعير ، وأمار الخطى تدل على المسير
فهيكل علوى ، وجوهر سفلى ، لم لا يدلان على العليم الخبير !! وإلى هذا
أشارت الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما حكى الله تعالى عنهم في قوله (قالت
رسلم افى الله شك فاطر السموات والارض ، فقولهم فاطر السموات
والارض اشارة الى استنكار الشك فيمن هذا صنعه وأثره ، والاثار الخفية
يدل على صاحبه . فكيف لا يدل هذا الامر العظيم بما شتمل عليه من
الآيات والاعاجيب على صانعه ، وبأى شئ أعظم منه يناظر من أنكره
ولقد قالت طائفة منهم جليلة من شيوخ النظر والاعتزال بأن المعارف
ضرورية غنية عن القيل والقال . ولو ذهب اليه ذاهب كان قويا مع
طرح النظر لكن مع القول بأن النظر شرط اعتبارى كما هو قول محققهم
خفيفة النظر على هذا القول تجريد القلب عن الغفلات كما قال مختار وقد
أشار اليه الجوينى فى برهانه ، والمقويات لهذا القول كثيرة من الآيات
والآثار ، وأحوال السلف الأبرار ، فلقد كانوا أشد الناس يقينا مع عدم
خوضهم فى ترتيب الأدلة وشروط الانتاج وتقسيم الاشكال وتحرير
الجواب والاشكال . ولولم يرد فى ذلك الا قوله تعالى (فاقم وجهك للدين
حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)
وقوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة) الحديث متفق

على صحته ، واليه أشار على عليه السلام بقوله: (فبعث فيهم رسله ليستادوهم
ميثاق فطرته كما شرحه ابن أبي الحديد في أول خطبة في النهج في قوله الذي
شهدت له اعلام الوجود على اقرار قلب ذى الجحود ، ومن ذلك قول
الرسول عليهم الصلاة والسلام انى الله شك وقوله تعالى (الم ذلك الكتاب
لا ريب فيه هدى للمتقين) وفي الحرز لا ريب فيه من رب العالمين . فان قيل
إذا تم قليل النظر فكثيره أولى قلنا هذا صحيح اذا كان المنظور فيه هو ما نظر
فيه السلف من عجائب الخلوقات ، اما إذا نظر فيما نظر فيه غيرهم مما لا طريق
إلى معرفة كيفيته ، وهو النظر فى الله وخفيات صفاته ودقق ذاك خيف
عليه ، وقد قيل من نظر فى الخالق الأحد ، ومن نظر فى المخلوق وحده ، وروى
النهي عن هذا واشتهر التحذير عنه . وما نظر الخليل عليه السلام فى
كيفية فعل واحد من أفعال الله وهو كيف يحيى الموتى ولم يهتد اليه بعقله
وهو من أفضل العقول وأكملها حتى سأل الله أن يره ذاك ليطمئن
قلبه ، فكيف من نظر فى كيفية القديم وإحكامه ، وهو لا يالف الا الحدوث
وبهذا تعرف أن الخليل عليه السلام لم يطلب طمانينة قلبه بوجوه دربه بل معرفة
كيفية خفية من كفيات أفعاله ألا امر جهم إلى ربه وسأله تعريف تلك الكيفية
لكمال يقينه بوجود ذاته ومعرفة أنه الذى يهب المعارف وكله ربه وراجعها وأجابه
وربما كان ذلك فى أول أحوال تكليفه كقوله لئن لم يهدنى ربى لاكون من القوم
الضالين . وما أشبه قول ل خليل عليه السلام كيف يحيى الموتى بقول زكريا عليه
السلام انى يكون لى غلام وقد بلغت من الكبر عتيا ، وقول مريم انى يكون لى ولد
ولم بمسنى بشر ولم أك نبيا ، فان كلهم سأل من الله زيادة من العلم وهى موهبة
من مواهبه وكذلك سألت الملائكة ذلك فى قولهم أنجعل فيها من يفسد فيها

(ومن أصعب) ما يرد على المتكلمين من أدلة القائلين بأن المعارف ضرورية أو ظنية وأنها حاصلة عقب النظر لأنه شرط اعتباري أمران (أحدهما) أن الفرق عند المتكلمين بين الضروري والاستدلالي حصول التجويز منا أن ترد شبهة تقدر في الاستدلال وهذا التجويز وإن كانت صورته في الظاهر خاصة بالاستقبال إلا أنه يلزم من كل نوع خاص حصول جنسه العام ويستحيل وجود النوع الخاص مع امتناع جنسه العام اذ لو استحال وجود جنس الحيوان لاستحال وجود نوع الانسان وكذلك لو استحال في مسئلتنا وجود جنس الشك في الاستدلالي لاستحال وجود نوع الشك المستقبل وهذه طريقة للمتكلمين في الاستدلال: وفيها عندي نظر ليس هذا موضع تحقيقه، وأوضح من ذلك أن تجويز ورود الشبهة لا يختص بوقت معين في البعد والقرب فذلك يجوز في كل وقت مستقبل وحاضر، ودخل في ذلك حال العلم وما بعده وذلك مستلزم تجويزه في الحال وإنما اختص الاستقبال بمعرفة الوارد من الشبه بعينه وتأثيره ومعرفة أثره لأن كل واحد منهما ينقسم أما الوارد فقد يكون من البراهين وهي اقترانية واستثنائية وكل منهما ينقسم، وقد يكون من الاعتراضات فهي نوعان: معارضة وقدح وينقسمان إلى عشرين. وأما أثره فقد يكون شكاً وقطعاً والقطع إما بالبطالان فقط وإما بصحة نقيض أو مخالف معه وبالجملة فتجويز بطلان العلم وانعكاس الاعتقاد شك باخرينا في اليقين الجازم وينافي البيان بكل حال عند التشكيك. والعلم الحق ما جمع ثلاثة أشياء (النجزم) و (المطابقة) و (الثبات عند التشكيك) وبطلان واحد منها يبطل العلم فتأمل ذلك وجود فيه النظر، فإن قيل انما أرادوا (م - ٧ ترجيح)

أنه يجوز نسيان بعض مقدمات الدليل اذا كثرت ، وأما مع استحضارها فلا يجوز (قلنا) هذا غير صحيح لعدم النقل ولا اختلال المعنى . أما عدم النقل فواضح وعلى الناقل البيان . وأما اختلال المعنى فمن وجهين : « أحدهما » أن النسيان ضروري وهذا القدر يجوز في العلوم كلها ضروريا ونظريها ، وتجوز النسيان كتجوز زوال العقل أو استغراق الفكر بحادث ضروري كالمشغول بمفاجأة سبع قتال أو عدو صوال فان اشتغاله بالنظر في نجاة نفسه في الحال يمنع بالضرورة من تذكر العلوم الضرورية بل قد يشغله ذلك عن إدراك كثير من المدركات الحاضرة البينة « وثانيهما » أن المتكلمين انما ذكروا ذلك لانه موجود مع أهل العلوم النظرية بالضرورة فان هذا التجوز ضروري ومستنده التجربة المستمرة في ذلك . ومعنى هذا الشك أن الناظر يجوز ورود شبهة قاذحة في أحد أركان دليله المستحضرة ، ولولم يجوز ذلك لعلم الانتفاء ، ولو علم الانتفاء لكان علمه ضروريا أو نظريا وكلاهما ممتنع ، أما الضرورى فبالاتفاق وأما النظرى فلمدم وجود دليل على ذلك الا عدم الوجدان ، وهو لا يفيد القطع بالوفاق والتجربة وكمن طالب أمر لا يجده في وقته ثم يجده بعد مدة خصوصا في الانظار والمعارضات ولذلك كثر رجوع العلماء وتعارضهم في ذلك . فدل هذا على أن أدلة المتكلمين المتنازع فيها بين عقلاء علماء الاسلام بعد تكرار النظر وقصد الانصاف لا تفيد العلم اليقيني الا ما انتهى منها الى الضرورة بحيث يقطع العالم به على استعالة شكه فيه مادام حاضر الذهن صحيح العقل وهذا يرفع كثيراً من علم الكلام (وثانيهما) أنا وجدناهم لا يزالون يخوضون في النظر في الدليل

على الامر الجلى حتى ينتهوا إلى دعاوى محضة في أمور دقيقة خفية هي أخفى مما جعلوا الخوض فيها وسيلة الى معرفته، وانما جعل الدليل معرّفا للمدلول فلا يصح أن يكون أخفى منه . ألا ترى أن البهاشمة تقول أنا بعد العلم بحدوث العالم نحتاج الى البحث عن دليل يدل على أن له محدثا، مع أن العلم بحاجة الحادث إلى المحدث ضرورى عند أبي الحسين وكثير من الشيوخ وهو الامر المتعارف بين العقلاء حتى أن الصبيان والبهايم تدرك ذلك، ومتى طلبت دليلا على ذلك لم تجده قط الا تكثيرا أو تطويلا في العبارة . وحاصله يرجع الى دعوى الضرورة في مثل هذا بل لا يجب عندهم الوصول الى سكون النفس فقط، ثم اذا ثبت أن لهذا العالم صانعا احتجنا عندهم الى دليل آخر يستدل به على أنه موجود ليس بعمدوم وهذا أعجب من الاول فالاعتقاد الجازم باستحالة عدم الصانع المحكم ووجوب وجوده ضرورى وهو أجلى من الدليل المستنبط عليه واذا أمكنت المنازعة في هذا أمكن النزاع في دليله . وأنا أورد لك كلام علماء الكلام في هذه المسئلة لتعرف صحة كلامى وتعتبر ولا أنقل الا ألفاظ المعتزلة من كتبهم المشهورة فأقول :

قال الشيخ العلامة مختار بن محمود في المجتبى في المسئلة الثالثة من خاتمة أبواب العدل ما لفظه :

﴿ المسئلة الثالثة في اثبات أن صانع العالم موجود ﴾

الكلام في هذه المسئلة يختلف باختلاف الناس في الوجود . فمن قال وجود الشيء ذاته وحقيقته . قال إذا دلنا على أنه لا بد للعالم من صانع علمنا أنه موجود لان الشك في عدمه بعد العلم بثبوته شك في انتفائه بعد ثبوته وانه خاف وانما

قلنا انه شك في انتفاءه لان أهل اللغة يستعملون في لفظ العدم لفظ النفي بالترادف، والنفي والثبوت يتقابلان فكذلك العدم والثبوت، فكل ما كان ثابتا لا يكون معدوما. وإذا لم يكن الباري معدوما كان موجودا، فصح ما ادعينا أنه اذا ثبت أنه لا بد من صانع للعالم ظهر وجوده. وإليه ذهب كثير من المشايخ كأبي الهذيل وهشام الفوطي وهشام البرذعي وأبي الحسين البصري وشيخنا ذكي الدين محمود الخوارزمي رحمهم الله تعالى ومن السنية أبو بكر الباقلاني وأتباعه ومن قال وجود الذات زائد على حقيقتها غير منفك عنها. وهذا قول أكثر الفلاسفة والاشعرية ومن تابعهم فيه قالوا أيضا الدليل على ثبوت حقيقته دليل على وجوده لان وجوده عندهم لا ينفك عن حقيقته. وأما من قال وجود الذات زائد عليها ومنفك عنها زعم أن الحقائق متقررة مع انتفاء الوجود عنها وهم جمع من المشايخ كأبي يعقوب الشحام وأبي علي الجبائي وأبي هاشم وأبي حسين الخياط وأبي القاسم البلخي وأبي عبد الله البصري وقاضي القضاة وأبي رشيد وابن متويه وأتباعهم، وزعموا أن المعدومات قبل وجودها ذوات وأعيان وحقائق وأن تأثير الفاعل في جعل تلك الذوات على صفة الوجود لا على الذوات. ثم اتفق هؤلاء على أن الذوات لا تختلف الا بالصفات واختلفوا في أنها هل هي موصوفة حال عدمها قال ابن عياش والكعبي انها غير موصوفة بشيء من الصفات قال خاتمة أهل الاصول تقي الاثمة العجالي وما نقل عن الكعبي أن المعدوم شيء، يريد به أنه معلوم قال على ما ذهب إليه أبو الحسين البصري وهو غير كونه دائما ذاتا. وقال غيرهما من هؤلاء المشايخ انها في حال عدمها موصوفة فقال أبو علي وأبو هاشم بالصفات وقامى

القضاة . وتلامذتهم إن للجوهر أربع صفات الجوهرية وهى :
 صفة ذات ، والتحيز ، وهى صفة مقتضاة عن الجوهرية ، والوجود ، وهى
 الصفة التى بالفاعل ، والكائنية ، وهى الثابتة بالمعنى عندهم وكذا سائر الذوات
 موصوفة بامثال هذه الصفات إلا الكائنية فانها لا تصح فى الاعراض والسواد
 له صفة السوادية وهى تقتضى هيئة السوادية عند الوجود ، وبعضهم جعل
 صفة التحيز والجوهرية واحدة . وقال أبو الحسين الخياط إنه متحيز ومحل
 للمعانى وجسم حال العدم وجوز أبو يعقوب رجلا راكباً على فرس فى العدم
 ثم انهم بعد اختلافهم اتفقوا بان للعالم صانعا محدثا قادرا عالما حيا
 سميعا بصيرا حكيما محسنا باعنا للرسول مقيما للقيامة مثيبا معاقبا نشك
 أنه موجود أو معدوم وانما يتبين وجوده بدلالة مستأنفة وكذلك
 اتفقوا على أن فى العدم أنواعا وأجناسا مختلفة بالصفات ويكون من كل جنس
 أعداد غير متناهية تكثر الاشارة العقلية الى كل واحد منها والى مائتها ونحوها
 قال تقي الأئمة العجالى إن كل من سمع ذلك من العقلاء قبل أن
 يتلوث خاطره بالاعتقادات التقليدية فانه يقطع ببطلان هذه المذاهب
 ويتعجب أن يكون فى الوجود عاقل تسمح نفسه بمثل هذه الاعتقادات
 ويلزمهم أن يجوزوا فيما شاهدوه من الاجسام والاعراض أن تكون
 كلها معدومة لان الوجود غير مدرك عندهم والالزم أن يرى الله لوجوده
 بل انما يتناوله الادراك للصفة المقتضاة عندهم وهى صفة التحيز وهيئة
 السواد والبياض فيهما ، غاية الامر أن الجوهرية عند بعضهم تقتضى التحيز
 بشرط الوجود ولكن الترتيب فى الوجود لا يقتضى الترتيب فى العلم كما

في صفة الحياة والعلم فيلزمهم أن يشكوا بعد هذه المشاهدة في وجودها وكل مذهب يؤدي الى هذه التمحلات ، والخصم مع هذا يريد سفاهة ولجاجة فالواجب على العاقل الفطن الاعراض عنه والتمسك بقوله تعالى «واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما» ومن ذم من السلف الصالح الكلام والمتكلمين إنما عنوا أمثال هؤلاء ظاهرا والله الموفق انتهى بحروفه . وهذا كلام أئمة الاعتزال بعضهم في بعض وفيه اعتراف بدم السلف الصالح للكلام والمتكلمين . وتأويل ذلك بالغلو في الكلام ومن ذلك ما قدمنا من القاسم والهادي والناصر من ذم الكلام وما ذكره صاحب الجامع الكافي عن متقدمي العترة من ذلك كزين العابدين وزيد بن علي والصادق والباقر وعبدالله بن موسى وأحمد بن عيسى والحسن بن يحيى وصنف محمد بن منصور في ذلك كتاب الجملة والألفة ونقل عن هؤلاء وغيرهم النهي ، الكراهية للكلام والخوض فيه وكذا فقهاء الاسلام وأئمة الحديث وجميع السلف المتقدمين كانوا على ترك هذا وبعضهم ينهى وبعضهم يقرر الناهي وهو من أصبح الاجماع السكوتية والله أعلم فمن عرف أن الموجب لهذه الامور هو عدم القنوع بما في الفطر من اليقين بأوائل الأدلة الجلية ، مثل كون الحوادث اليومية ، وخصوصا المعجزات فانه لا بد لها من محدث موجود قادر عالم وان المصنوعات المحكمة تحتاج الى أمثال ذلك وان الخائضين في هذه المجازات أرادوا تصحيح هذه الجليات فوقعوا في أخفى منها لم يستنكر كلام أهل المعارف * وقد قال مختار في الفصل الثامن من مقدمات المجتبى مالفظة: وقال شيخنا خاتمة أهل

الأصول ركن الدين الخوارزمي رحمه الله في الفائق في الجواب عن شبهة المعجزاتهم كلفوا أن يسمعوا أوائل الدلائل التي تتسارع إلى فهم كل عاقل فإن فهموا ذلك كفاهم علما، ولسنا نكلفهم تلخيص العبارة كما يقول العلماء وذلك ممكن لكل عاقل فإن لم يمكنهم الوقوف عليها فاتهم غير مكلفين أصلا * قال مختار وثبت بما أشار إليه أن الوقوف بأوائل الدلائل كاف لأهل الجمل ولا تلزمهم الأبحاث العميقة في غوامضها وأن تركيب الأدلة على ترتيبها المنطقي أو النظري ليس بشرط للعالم بالله تعالى وبصفاته ، وأن من يعجز عن النظر في أوائلها والوقوف عليها غير مكلف مثل كثير من العوام والعبيد والنسوان انتهى بحروفه وهو شبهه بكلام أهل المعارف ، ولقائل أن يقول : الوقوف على أوائل الدلائل هو الذي كان عليه السلف بل الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء وسائر العقلاء ومن شك فيها فهو أولى بالشك في المباحث العميقة التي هي عند المتكلمين معارف، لثبوت أوائل المباحث الجليات ، وكيف يعرف الجلي بالخفي والبحث لا يزيد الأمر الأدقة كما قال ابن أبي الحديد

فإذا الذي استكثر منه هو الـ جاني على عظام المحن

وما صارت السوفسطائية إلى إنكار العلوم إلا من شدة البحث بدليل أنه ليس في أهل الجمل من ينكر الضرورة ولا من ألزم إنكارها، ولعل كل طائفة من المعتزلة وغيرهم تنكر شيئا من الضروريات أو تلزم ذلك، لا ترى إلى ما تقدم من إلزام أصحاب أبي الحسين للبهاشمة الشك في المشاهدات كلها، وكذا أبو علي يلزم هؤلاء مثل ذلك لأنه يقول ألا كوان مشاهدة وهم ينكرونها

بل يلزم أن يلزم ولده أباهشم وأصحابه وأكثر المعتزلة إنكار المشاهدة
الضرورية لانهم ينكرون مشاهدة الاكوان وينكرون ثبوتها إلا
أباهشم وأصحابه * وقول الخوارزمي بالتزام عدم تكليف من لا يفهم أوائل
الأدلة مستلزم تجويزه وجود من لا يفهم وذلك ممنوع ، لانا نعلم عموم
التكليف لمن ليس بمجنون وذلك يستلزم انهم يفهمون ذلك القدر
ومن قال انه لا يفهمه . علمنا أنه معاند وان صدق فلانه لم يلتفت الى
ذلك فعدم فهمه لعدم التفاته واصراره على تعمد الاضرار عن الشرائع
وأهلها ومما يوضح ما ذكرته من أن التعمق هو سبب الشكوك والحيرة أنا
جربنا ذلك في أجلى من العلوم الدقيقة وهى الطهارة والنية وهما من الامور
الضرورية والوجدانية وما شك فيهما إلا من تعمق ولم يسلك مسلك
السلف فيخرج بذلك من صفات العقلاء ويشك فيما يرى وهو مشاهد
وفما يرى وهو وجدانى وهذا فى العقول كأمراض الاجسام فنسأل الله العافية
من كل مرض ، ومن كل غلو فى جسم أو عرض ، ومن لم ينفعه الدواء
الربانى والنبوى لم ينفعه الدواء الجبائى والمتوى * لا يقال أبطلتم النظر
كله ببعضه لانا لم نفن النظر كله بل أثبتنا النظر فى أوائل الأدلة على
طريقة السلف كما نبه عليه القرآن ، وانما منعنا التعمق فى اثبات الأمور الجلية
فى النظر بطرائق أخفى منها وبيننا بالتجارب وغيرها أن شدة التعمق
لا تنفع فى الوسوس ولا تداويها بل تزيدها ولو فى حق كثير فيترك
التعرض لما يجب من ذلك ويتعين ويتضيق حتى يكون ذلك فيداوى
بأسهل الادوية وأقربها كما قال المؤيد بالله فى الزيادات وقد تقدم

نصه في ذلك

«وحدثني حي الفقيه العلامة امام علوم المعقولات (١) انه وقع منه في بعض أوقاته وساوس وشبه في كل دليل من أدلة علم الكلام فسأل الله أن يلهمه إلى دليل لا يكون للفلاسفة فيه تشكيك فرأى في منامه قائلاً يقول له «مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان» قال فانتبه مسروراً وعرف ان الله تعالى قد استجاب دعوته لان أحدهذين البحرين عذب فرات وأحدهما ملح أجاج والعذب يمضي في وسط المالح ولا يخالطه منه شيء من غير حاجز بينهما إلا حاجز القدرة الربانية التي عبر عنها بقوله «بينهما برزخ لا يبغيان» قال وهذا مما لا تدخله شبه الفلاسفة لان مبنى شبههم على الطبع وطبع الماء الاختلاط، وهذان البحران معلومان بالتواتر لمن بحث الاخبار، يشاهد هما التجار وأهل الاسفار، كما تعلم قاصيات المدائن والامصار* وكان رحمه الله تعالى يحكى هذا كثيرا ورام خيرا من سائر أدلة علم الكلام مع أنه الذي قطع عمره في دقائق هذا العلم فلم يقل ان هذا دليل ضعيف لانه لم يبين على الاكوان ويشغل بتصحيح كلام الشيوخ وتأويل نصوص القرآن* وعندي أن الاستدلال بكل معجز معلوم بالتواتر كذلك لان شبه المعاندين منحصرة في القدم والطبع، والمعجز حادث بالضرورة ومخالف للطبع والعوائد بالضرورة، ولو كان قديما أو موافقا لمعوايد كطلوع الشمس من المشرق في وقت طلوعها استحال أن يكون معجزا فلذلك احتجت الرسل بالمعجزات على أشد الخلق عنادا وكان هذا هو الذي أحفم به ابراهيم عليه السلام خصمه الكافر الذي زعم أنه يحيى ويميت فقال له ابراهيم عليه السلام «إن الله يأتي

(١) هو الفقيه علي بن عبد الله بن أبي الخير اه من هامش الاصل

بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر » وهذا الذي احتج به موسى عليه الصلاة والسلام على فرعون وسماء موسى شيئاً مبيناً كما حكاه الله تعالى في سورة الشعراء حيث قال فرعون له «لئن اتخذت آلها غيرى لأجعلنك من المسجونين» قال موسى عليه الصلاة والسلام «أولو جئتكم بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين الى قوله فالق السحرة ساجدين» ولم يقل أحد من جميع فرق المسلمين من المتكلمين وغير المتكلمين إن النظر في فعل الله تعالى المعجز ليس بطريق الى معرفة الله تعالى ولا قال أحد إن الاعجاز عرض ولا إن معرفة الاعجاز مستحيلة ممن لم يعرف ماهية العرض الاصطلاحي، وما يشغب به المبطلون من التباس المعجزات بالسحر مدفوع بمثل ما تدفع به شبه منكرى العلوم الضرورية سواء، فكما أن نظر الكل الظل ساكناً وطعم المريض العذب مرّاً لا يقدح في الضروريات المكتسبة من الحواس كذلك هذا وهذه معارضة والتحقيق أن الفرق ضروري الاترى أن المشركين قد لهجوا بهذه الشبهة وقالوا إنه صلى الله عليه وآله وسلم ساحر فلم يلتفت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا أحد من الصحابة الى الجواب عليهم ولا ذكر الفرق بين السحر والمعجز على طريقة المتكلمين لوضوح الامر بل نزلوا قولهم إنه ساحر منزلة قولهم إنه كذاب وقولهم انه مجنون علما منهم انهم قد عرفوا الآيات فجحدوها واستيقنتها أنفسهم، وظهر أن الفرق بين النبي والساحر ضروري لكنه (تارة) يرجع الى العلم ببراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من علم السحر كما

يعلم الانسان براءة كثير من أهله وصحبه من ذلك وهذا يحصل لمعاصريه بالخبرة ولنا بالتواتر واليه الاشارة بقوله تعالى (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) وقوله (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك اذا لا رتاب المبطلون). وذلك لان السحر ليس من علوم العقل ولا بد من تعلمه من شيوخه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يلق أحدا من علمائه ويتعلم منهم ولم يكن يقرأ فيتعلمه من كتبهم ، وهذا مع قرأتين صدقه وأحواله وإرادة الله تعالى لاقامة الحجة يفيد العلم بل نحن نجد العلم بذلك في بعض الاشخاص ممن لم يرد الله به اقامة حجة . وقد الفت في هذا المعنى مصنفامفردا سميته البرهان القاطع في معرفة الصانع وجميع ماجاءت به الشرائع . وذكرت فيه كلام الرازي في كتاب الاربعين له ورأيت الشيخ مختارا قد نقله في المجتبى * ومن كلام مختار في الفروق بين السحر والمعجز ما لفظه: على أن صاحب المعجز والسحر يفارق صاحب الحيل في الزى والرواء والهيسة والكلام والافعال في كافة الاحوال، وأنوار العبادة تتلأل في وجه صاحب المعجزات وآثار الصلاح تلوح في جباه أهل الخيرات سميتهم التحلم والاصطبار ودينتهم الصنفح والعفو والاستغفار والجود والسخاء والايثار، والمصافاة مع المساكين والفقراء والحنو والحدب على الضعفاء ، والاعراض عن زخارف الدنيا واتباع الشهوات والاهواء * وأما أصحاب السحر والحيل فردائل التزوير لأثمة في وجوههم ، ومخايل الحيل والختل واضحة في جباههم، قصارى همهم استمالة الاغنياء وايثار مواطن الملوك والامراء ، وغاية أمنيتهم نيل العز والجاه في الدنيا والظفر بما يوافق النفوس والهوى

انتهى* ومن جود ال كلام في النبوات الجاحظ فيبحث عن كتابه في ذلك وكذلك السيد الامام المؤيد بالله عليه السلام جود الكلام فيها في بعض كتبه ومن الاحاديث الماثورة في هذا المعنى حديث هرقل مع أبي سفيان الذي أخرجه البخارى فينظر فيه - وتارة - يرجع الى الفرق بين المعجز والسحر بان يكون المعجز محكما باقيا كالقرآن فلا يجوز فيه السحر والا لجوزنا في جميع ما يحكى في الكتب من الاشعار أنها سحر بل في جميع الضروريات - وتارة - يرجع إلى مجموعهما فيكون أقوى كما في القرآن العظيم ، وبقية الفروق بين السحر والمعجز ليس مما يختص باهل التدقيق في العقليات بل هو من أوضح المعارف مثل كون اسحر في من تعلمه علمه وكونه لاحقيقة له ولا آثاره في فيل ولا سبع وانه لا يكون بحسب الاقتراح ولا يكون إلا بشروط مخصوصة في بعض الاوقات ومن الفروق الواضحة بين الانبياء وسائر أهل الخوارق : اتفاق الانبياء فالاول يبشر بالآخر والاخر يصدق الاول ، ودعائهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته ، ووعدهم بدار الآخرة ، وتخويفهم من عذاب الله تعالى ، واطاعتهم في رحمة الله ، وأماسائر أهل الخوارق فيختلفون في العقائد قطعاً فمنهم الجهمي والجبيري والاشعري والحنبلي والمعتزلي والمرجئي والرافضي والناصبي بل منهم النصراني واليهودي والمجوسي والفلسفي والدهري والبرهمي وقد ذكر صاحب العوارف طرفاً من ذلك صالحاً في الباب السابع والاربعين من العوارف وصنف شيخ الاسلام ابن تيمية مصنفاً في ذلك سماه الفرق بين الاحوال الربانية والاحوال الشيطانية وهو كتاب نفيس في هذا المعنى والله الحمد وانظر بانصاف هل جاء أحد من أهل هذا الحيل

والخوارق والطالسم والاسحار بمثل هذا القرآن العظيم فى جزالته
وبلاغته وجلالته وكثرة علومه وإخباره بالغيوب وصدقه فىما قد وقع
منها وإخباره عن أحوال المتقدمين وعدم تمكن أعدائه من تكذيبه فى
شئ من ذلك مع عدم علم النبى صلى الله عليه وآله وسلم بذلك ضرورة
وهو معنى تصديق القرآن لما مضى بين يديه من كتب الله تعالى ثم انظر
الى عجز جميع الخلائق فى جميع هذه الاعصار المتطولة عن الاتيان
بمثله أو بسورة منه والى بقاء رونقه وجدته على مرور الازمان فالحمد
لله الذى من علينا به وجعلنا من أهله * وقد ذكر الشيخ العلامة مختار
ابن محمود المعزلى المتكلم أحد أئمة أصحاب الشيخ أبى الحسين
البصرى من الأدلة القاطعة على حدوث العالم ستة براهين غير
دليل الاكوان كما مضى ثم ذكر فى الاستدلال على أن الله تعالى محدث العالم
أربع طرائق بعد أن اختار أن العلم بأن المحدث لا بدله من محدث ضرورى
كما هو مذهب أبى الحسين وجود الكلام فى ذلك، ثم قال الطريق الرابع
فى إثبات الصانع فهو الاستدلال بحدوث الصفات وسمى هذه طريقة
الاحوال قال وهى الاوفق والاجدى لاكثر العوام والنسوان والجهلة الفارغة
من أهل الوبر والعبدان لسرعة وصولهم إلى معرفة المعبود وهذه
الاحوال والصفات منحصرة فى دلائل الانفس والآفاق أما دلائل
الانفس فكما يعرفه كل عاقل من أحوال نفسه أنه كان نقطة فتغيرت
به الاحوال فعاد عاقبة ثم مضى ثم لحا وعصبا وعظاما وآلات وحواس حية
موافقة لمصالحه، ثم بعد الانفصال من قرار مكين تعاقب عليه الكبر

والصغر والضعف والقوة والجهل والعقل والمرض والصحة والشهوة والنفار (١) إلى أن صار ذاقامة حسني مشتهية مشتهاة قادرة عالمة فلا بد لهذه التغيرات من مغير قادر عالم مخالف لها * وأما دلائل الآفاق فما يحدث ويتجدد في العالم من طلوع القمرين والكواكب وغروبها ومن دوران الافلاك الدائرات، والسفن الجاريات، والرياح الداريات، والشهب والصواعق في الهوى وتغير أحوال الماء وإنشاء الغيوم الثقالب؛ وانزال الامطار على الوهاد ورءوس الجبال، لتسقى الزرع والاشجار، وتزينها بالازهار والثمار واختلاف الليل والنهار، والفصول والاحوال وقد جمعها الله تعالى في قوله: (أن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس) الى أن قال (لايات لقوم يعقلون) وإذا عرف كل عاقل تجدد هذه الامور وتغير هذه الاحوال وعجز الاجسام عنها عرف معرفة ظاهرة أن لها محدثا مخالفا للاجسام والاعراض هذا كلام الشيخ مختار بحروفه ولو لا خشية الاطالة والاملال لذكرت جل البراهين الستة وبقية الطرق الاربعة فليطالعها الولد في كتاب المجتبى موفقا إن شاء الله تعالى وينبغي أن يذكر هنا آيات زيد بن عمر وابن نفيل رحمه الله تعالى في هذا المعنى، وللجاحظ في هذا المعنى كتاب العبر والاعتبار مختصر نفيس وللرازي في هذا المعنى المجلد الاول من أسرار التنزيل فانه يشتمل على الاستدلال على الله تعالى بانواع الادلة الجملة غير المعتادة وكذلك أجاب عن سؤال الطبيعيين بأن الطبيعة لو كانت مؤثرة لكان أثرها واحداً، ولما كان بعضها عسبا وبعضها لحاودما وبعضها عظما فعلمنا أنه مختار وقد رأيت كم

جمع في الائمة الواحدة من الاصبع من الاشياء المختلفة فوضع فيها
جلدا ولما وعصبا وعروقا وشحما ودماء وعظما ومخا وظفرا وشعرا وبلة واحد عشر
لونا لكل واحد منها لون يخالف لون الآخر قدرة وحياة وعضبا واستواء
وارتقا وانحداراً وخشونة ولينا وحرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة
وصلابة ورخاوة ، ثم خلق في بعضها الحياة دون البعض كالشعر والظفر
والعظم وجعلها مدركة لامور شتى كالحرارة والبرودة واللين والخشونة
والقلة والكثرة والرطوبة واليبوسة فتبارك الله أحسن الخالقين انتهى
ما ذكره رحمه الله تعالى وقد أشار الله إلى بطلان مذاهب الطبيعيين
بهذا المعنى ونبه عليه سبحانه وجعل العقل قابلاً لذلك مقرا به فقال تعالى
(وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان
وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في
ذلك لآيات لقوم يعقلون) ولا شك أن الفلاسفة وأهل الشكوك الذين
تشككوا في الضروريات لا يكتفون بهذا * وقد ذكر الغزالي شبه
السوفسطائية وذكر أنه لم يتمكن من دفعهم من نفسه إلا بنور قذفة الله تعالى
في قلبه وقد شاهدنا من شك في الضروريات من الموسوسين : فإن أصغينا
أسماعنا إلى دقيق الشبه ووقفنا جلي معرفة الله على ذلك حصل منه أمور
(أحدها) مرض القلوب حيث توقفت معرفة الله على القطع في مواضع
مشكلة لا يخلو القلب من شك فيها لدقتها فترتبط معرفة الله بها ويستلزم
الشك في بعض تلك المشكلات المشتبهات الشك في معرفة الرب الجلية بنص
كتاب الله وإجماع السلف فإن الله تعالى قال « قالت رسلهم في الله شك فاطر

السموات والارض* (وثانيها) مساواة الفلاسفة والكفرة لنا أو مقارنتهم في تلك الأدلة على الحق في تلك الدقائق وعدم وضوح عنادهم فيها وقلمنا تسلم تلك الدقائق من اختلاف علماء الإسلام فيها فتقول الفلاسفة لأبي هاشم وأصحابه مذهبنا بطلان طريقكم في الاستدلال كمذهب مخالفكم من المسلمين وأنتم لا تكفرونهم ولا تنسبونهم إلى العناد فسووا بيننا إن كنتم عدلية كما زعمتم وكذلك تقولون للفريق الثاني* (وثالثها) ما قدمنا من لزوم الشك المطلق لأن كل ناظر يجوز أن يعرض له الشك في تلك الدقائق في المستقبل لسبب، وهذا يستلزم الشك الخاص بالمستقبل وهو بالضرورة يستلزم الشك المطلق، وقد تقدم ما في هذا من النظر والتحقيق، وتوقف معرفة الله تعالى على ذلك يستلزم أنه أجلى منها فيكون الشك فيها أجدر ونحن نحمد الله لنجد شكاً في الله لا محققاً ولا مجوزاً ولا مقدراً وذلك دليل على أن المعارف ضرورية عادية بعد النظر السهل وأنه لا يجب سواه وإن اختلفت المذاهب عقيه لحكمة الله والله أعلم* (ورابعها) الأزرار بالسلف الصالح ومن اقتدى بهم واعتقاد قصورهم* (وخامسها) التسبب إلى الاختلاف والتفرق المحرم بنص كتاب الله تعالى* (وسادسها) تكفير من لم يعرف تلك الطرق الدقيقة معرفة محققة مع ما جاء في التكفير من التشديد وأنه من كفر من ليس بكافر كفر ويشهد لذلك أخبار الخوارج الموارق فإن الذي اختصت به الخوارج دون سائر الداخلين في الفتن هو تكفير المسلمين وقد عظم القول فيهم حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد) وقال على عليه السلام: لولا أن تتكلموا على العمل لا خبرتكم بمالككم من الاجر في قتلهم، وتواتر الحكم عليهم بالمروق من الإسلام في الاخبار

كما يعرف ذلك من طالع كتب السير والتواريخ والجوامع والمسانيد وكان أصل قولهم تكفير المسلمين بالذنوب فكيف تكفير المسلمين بالايمان بكتاب الله والبقاء على ما عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعدم الدخول في غرائب البدع المبتدعات والعجب الكبير بذلك، والزراية بالؤمنين وان لم يكفروهم بعد سلوك تلك المسالك، والى هذه الطريقة التي اخترناها أشار التنزيل في قوله تعالى (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين) وبذلك استدل الخليل عليه السلام وقد غلط عليه من قال إنه أراد بالافول دليل الاكوان لان دليل الاكوان شيء واحد ونسبته إلى القمر والشمس مثل نسبته الى النجم فلو استدل به لنفسه أو على غيره حين رأى النجم لما انتقض برؤية القمر ثم برؤية الشمس ولا كان لقوله (هذا أكبر) في حق الشمس معنى بالنظر الى دليل الاكوان فتأمل ذلك بانصاف وانظر معنى الافول هل يطابق معنى الكون في الجهة وما الفرق بين الافول والبروز في لزوم الكون للمتجهيز ثم ما الفرق بين الافول الاول الذي كان قبل طلوع هذه النيرات وبعده بالنظر الى دليل الاكوان، والله يحب الحق وهو المستعان، وإنما الدليل الواضح هو قوله (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين) فجعل علة علمه ويقينه نظر المالكوت والعرض الكونى لا يسمى ملكا. فكيف ملكوتا والمالكوت اسم مبالغة في الملك، ولا فرق بين النظر في أحقر مخلوق وبين رؤية العرش والكرسى وجميع المحجوب من المالكوت والملائكة عند الخصم فلم يختص القرآن

بالامر بالنظر في ملكوت السموات والارض وتكرر هذا وترك ذلك الذي عندكم انه لا يعرف الله بسواه ، وكيف يجوز في العادات أن تنصرم الدهور وكتب الله خالية عن التصريح بأمر لا يعرف الله بسواه ورسله المبعوث بالهدى لا تذكره لاحد ممن اتبعها وتعلم الهدى منها وكذلك من عاصروهم وكلام الله أبلغ الكلام ، والبلاغة مشتقة من بلوغ المتكلم بكلامه الى بيان مراده ووضوح مقصده وتخليصه من نقص الخطأ والتقصير عن اصابة الشوا كل (١) ولصق الفاصل ، فما الملجئ الى ترك التصريح بل ترك التلويح الى ما لا يعرف الرب جل جلاله بغيره ، أما ترك التصريح فبين وأما ترك التلويح فلانه ليس بعد النص الى الفهوم وله أقسام وشروط لم يأت ذكر الاستدلال بالاكوان على قوى منها ولا ضعيف ، ومن العجائب أنهم يحتجون بما ليس لهم فيه حجة ولا شبهة كما تقدم في قصة ابراهيم عليه السلام وكما يذكرون في قوله تعالى (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت) الا تراه انما ذكر ما ليس يكون عند الخصوم وإنما ذكر الاجسام والاحوال* أما الاجسام فالابل والسماء ، والجبال والارض* وأما الاحوال فالخلق والنصب والرفع والسطح فهذه أحوال مختلفة وهي مع اختلافها محكمة واختلافها وإحكامها مناسب للمصالح وذلك دليل على حكيمة صنعها لان العقول تقضى بذلك في أدنى من هذه الامور وأدنى ما فيها من الاحكام العظيم فلو أراد ما ادعوا من الاشارة الى الحركة والسكون ما خالف بين العبارات في الجبال والارض والسموات لانها كلها ساكنة فيما يرى فلم سمي سكون السماء رفعا وسكون الجبال نصبا وسكون الارض سطحا وما الحامل على هذه واين هذا من علوم

المعاني والبيان ولذلك قال الزمخشري رحمه الله في كشفه في رد بعض تأويلاتهم مما لا يطابق البلاغة وما هذا الا من ضيق الفطر والمسافرة عن علم البيان مسافة أعوام، وبالجمله فالقوم من علماء الاسلام ولكل خطأ وصواب، وفي كل كلام قشر، ولباب وكل أحديث أخذ من قوله ويترك الا من عصم الله تعالى، ولنا من الخطأ أكثر مما هو لهم وليس القصد تركية النفس والازراء بمن لانسأوى ولا تقارب أدنى مراتبه، وانما القصد ترك الغلو منهم المخرج لهم في المعنى عن حد البشر وان كان المعظم لا يصرح بذلك في لفظه فقد كاد يعاملهم تلك المعاملة أو يخاف من وقوع ذلك من غيره ولو في المستقبل فان المحقرات وسائل الى العظام * وقد روى أن أصل عباد الاصنام في قريش أو في العرب كانوا يحملون في أسفارهم من حجارة الحرم يتبركون بها، وقد فسر قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم (لا تتخذوا قبري عيداً) بنحو ذلك وقيل انما لم يبرز قبره حيث قبر في بيته خوفاً من ذلك، ولذلك قال عدى بن حاتم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) يا رسول الله إنهم لم يعبدوهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ألم يحرموا ما حرموا ويحلوا ما أحلوا قال بلى قال هو ذاك) وانما استكثرت من نسبة الادلة الى العلماء وإن كانت الادلة كافية بانفسها لما رأيت في طباع الناس من الاستثناس بالقائلين بالادلة وجربت ذلك والله تعالى يسامح الجميع ويهدينا ويلهمنا الى الصواب، والذي أظنه في الشيخ أبي هاشم رحمه الله تعالى انه لا ينكر أن الحوادث المعلوم حدوثها لنبى آدم والسحاب والمطر والنبات تدل على

الله تعالى من غير حاجة الى الاكوان وان كانت الطبائعون تشعب في ذلك
 فالجواب عليهم الحق لا يقدر في الاستدلال كما أن التشعبين في دليل
 الاكوان من أئمة الاسلام والفلاسفة كثير لم يقدحوا فيه عند الشيخ وأبعد
 من ذلك من القدرح والريب دليل المعجزات ، وكيف يقدرح الشيخ في هذه
 الاشياء مع تنبيه القرآن الذي لا يمكن تأويله على أنها أدلة ، وكيف يمكن
 الجمع بين الايمان بالقرآن وبأن هذه الامور لا تدل على الله وانما أراد الشيخ
 نفي الأدلة العامة لكل متحيز من جسم وجوهر محكم وغير محكم على نظره
 وطريقته ، فهذا يتمشى فيه اختلاف الانظار دون ما ذكرناه والله سبحانه
 أعلم بل نص ان متويعه في أول المحيط على أن ابا هاشم رحمه الله انما قال
 إنه لا طريق عند أبي هاشم يستدل بها على حدوث الجسم غير الاكوان ولم
 يقل على وجود الرب فوضح ما ذكرته نصا وكان ظنا والله الحمد والمنة
 وأستغفر الله العظيم من كل خطأ في عمل أو نظر قصرت فيه وهذا تمام المقام
 الاول في ذكر الحجة على الله تعالى من غير طريق الاكوان ومن قال بذلك
 (المقام الثاني) في ذكر الوجه في عدولي عن دليل الاكوان وما عرض لي فيه من
 المباحث والكلام في ذلك يطول وقد كنت ناظرت في ذلك مناظرات طويلة
 وكتبتها وذهبت عنى وبقي منها شيء وقد رأيت أن أقصر على ما ذكره من
 هو أعض منى بالنواجد على هذا العلم وأغوص منى على اللطائف في هذا
 البحر معترفا بالتقصير في معرفة بعض عباراتهم في مقاصد الدقيقة ، واقفا
 على سواحل هذه البحار العميقة ، مكتفيا منها بما عرفته مستعينا بالتمسك
 بالعروة الوثقى عما لم أعرفه معرضا للسائل أيده الله تعالى الى النظر بالعدل

والحكم بالانصاف بين هؤلاء المختلفين وإن كان لسان حالهم ينشد للمتعترضين

أقول لمحرز لما التقينا تنكب لا يقطرك الزحام

قال الشيخ العلامة مختار بن محمود في خاتمة أبواب العدل والتوحيد المشتملة على أربعين مسألة مما اختلف فيه المعتزلة وألها مسألة الاكون قال فيها رحمة الله تعالى

(المسئلة الاولى في الاكون) قال أكثر شيوخ المعتزلة من البصرية والبغدادية

بانتمائهم وهو اختيار ناصر الاسلام ابى الحسين وقال أبو هاشم وأصحابه بثبوتها

ولا بد من بيان المراد بالكون في المقام أولاً وتلخيص محل النزاع فنقول: كل

من أراد تحريك الجسم أو تسكينه يفعل اعتمادات من الجذب أو الدفع أو

الامساك فيحصل التحرك وهل يفعل شيء آخر حتى يحصل التحرك والسكون

أم يحصل بتلك الاعتمادات؟ فذهب أبو هاشم وأصحابه إلى أنه يحصل معنى آخر

غيرهما يحصل التحرك والسكون به وسموه الحركة والسكون، وذهب سائر

الشيوخ إلى نفيه - والحاصل - أنه ليس بين اعتماد القادر في محل قدرته

والتحرك والسكون واسطة ومعنى زائد به يحصل التحرك والسكون، عندنا

خلافهم وكذلك من رمى حجراً أو سهماً تولد هذه الاعتمادات الحاصلة في

الجهة الاولى اعتمادات أخرى في الجهة التي تليها إلى أن يصل المرمى. وعند

البهشية الاعتمادات الاول تولد اعتمادات ومعنى حتى يتحرك من الجهة الاولى

إلى الثانية ثم تلك الاعتمادات لتولد اعتمادات وحركة وهكذا إلى أن

يصل إلى المرمى أو نفي الاعتمادات فيسقط ولا بد الخائض في هذه المسئلة

من تحقق ما ذكرناه فإن للبهشية فيها خبطاً كثيراً ومغالطات وترددات

لا تندفع إلا به فالحجة لأصحابنا في ذلك من وجوه (الحجة الاولى) أنه

لوثبت هذا الزائد وهو فعل القادر وجب أن يعلمه فاعله جملة أو تفصيلاً

واللازم منتفٍ فينتفى الملزوم، وإنما قلنا بأنه لو فعله لعلمه جملة أو تفصيلاً لأن القادر هو المؤثر بحسب الداعي، والداعي إلى المدعو إليه لا يتصور بدون علمه جملة أو تفصيلاً فثبت أنه لو كان فعل القادر لعلمه جملة أو تفصيلاً، وإنما قلنا ان اللازم منتفٍ لأن هذا المعنى الزائد لا يخطر ببالنا عند تحريك الأشياء وتسكينها وجذبها ودفعها أصلاً فضلاً من أن يعلمها خصوصاً في حق العوام فانهم لا يفهمونه بالتفهم البليغ فضلاً من أن يعلموه بالمشاهدة (الحجة الثانية) أنه لو ثبت هذا الامر الزائد لزم أحد أمور ممتنعة وهو اما تخلف اللازم عن الملزوم أو مخالفة الاجماع أو التناقض لانه لو ثبت هذا الامر الزائد ففعله لا يخلو اما أن يتوقف على الداعي أو لم يتوقف فان لم يتوقف يلزم تخلف اللازم عن الملزوم، لأن الداعي يلازم فعل القادر المختار وإن توقف فلا يخلو اما ان يكون شاملاً للفعل المباشر والمتولد أو لا يكون فان لم يكن يلزم مخالفة الاجماع لان ثبوت هذا المعنى الزائد غير شامل منتفٍ بالاجماع، أما عندنا فلا تنفائه أصلاً وأما عندنا البهيمية فثبوتها شاملاً وان كان شاملاً يلزم مباشرة هذا المعنى الزائد بالداعي فيكون معلوماً للمباشر إجمالاً وتفصيلاً مع أنه غير معلوم له فيلزم التناقض وما يؤدي الى الممتنع فهو ممتنع (الحجة الثالثة) أنه لو ثبت ذلك المعنى الزائد فاما أن لا يحصل في الجسم المتحرك ولا سبيل اليه بالاجماع أو يحصل فيه ولا سبيل اليه لانه حينئذ لا يخلو إما أن يحصل فيه في الحيز الاول ويوجب كونه كائناً في الحيز الثاني أو يتوقف حصوله فيه على حصوله في الجهة التي توجب كونه كائناً فيها لا سبيل الى الاول بالاجماع ولا سبيل الى الثاني لانه إذا توقف حصوله فيها على حصوله في الجهة التي توجب كونه كائناً فيها لتوقف حصول ذلك المعنى على الكائنة فيها توقف

المشروط على الشرط وتوقفت كائنته فيها على ذلك المعنى الموجب للكائنة فيها توقف المعلول على العلة فيلزم توقف وجود كل واحد منهما على وجود الآخر فيلزم الدور وأنه باطل على ما مر تقريره ، فإن قيل لا نسلم بأن القادر هو المؤثر بحسب الداعى وهو مختلف فيه ولئن سلمناه ولكن لا نسلم بأن الداعى يستدعى العلم بل الظن ، والتجوز يكفى داعيا كنصب الشبكة للصياد أو التجارة للربح ولئن سلمناه ولكن لا نسلم انتفاء العلم الإجمالى بل هو ثابت للعلماء والعوام لأنهم يعلمون عند التحريك والتسكين أنهم يفعلون أمراً من الأمور وأنه علم إجمالى كمن علم أن زيدا فى العشرة وإن لم يعلمه على التفصيل ، ولئن سلمناه ولكن الكون الذى يثبت به مسبب الاعتماد ، والداعى إنما يحتاج إليه فى المباشرة دون المسبب كمن رمى أذية من داره أو حجراً من طريقه لا يتوقف على الداعى إلى المرمى هذا على الحجة الاولى ، وأما على الحجة الثانية لا نسلم بأن الداعى لازم فى فعل القادر المختار وليس كذلك ألا ترى أن اختيار المضطر أحد الطريقين المتساويين أو أحد البابين أو العطشان أحد القدرين المتساويين فعل القادر المختار وإن لم يوجد منه داعى الترجيح وكذلك فعل النائى والساهى فعل القادر المختار وإن تجرد عن الداعى ولئن سلمناه ولكن لا نسلم بأنه يلزم مخالفة الإجماع بتقدير عدم الشمول ولا نسلم بأن هذا الإجماع حجة هذا على الحجة الثانية ، وأما على الحجة الثالثة فلا نسلم بأن احتياج كل واحد منهما إلى الآخر منتف وجاز أن يحتاج كل واحد منهما إلى الآخر فى وجوده ثم يوجدان معاً كالعلة والمعلول فإنه لا توجد العلة بدون المعلول ولا المعلول بدون العلة لوجود التقارب كذلك هنا ، على أن عين ما ذكرتم لازم فى القادر لأنه

لا يجعله في الجهة الثانية الا بعد إخراجة من الجهة الاولى ولا يخرج من
الجهة الاولى إلا بتحصيله في الجهة الثانية فلو لم بهذا التوقف انتفاء
الموجب وهو الكون يلزم انتفاء القادر أيضاً وكذلك ينتقض هذا بطريقتين
أحد الضدين على محل الآخر فإن السواد انما يحل محل البياض
لو زال البياض وانما يزول البياض إذا حل السواد محله وانه لا يمنع طريانه
كذا هذا ، ولئن سلمنا بأن ما ذكرتم من الحجة يدل على انتفاء الكون
المختلف فيه ، فعندنا ما يدل على ثبوته ، وقد ذكر أبو هاشم وأصحابه
لإثباتها حججاً كثيرة ولكن أقواها وأشهرها وأمتنها وأبهرها في زعمهم
واعتقادهم أربعة (أحدها) أن القادر لو قدر على أن يجعل الجسم
كائناً متحركاً أو ساكناً من غير واسطة الكون لقدر على ذات الجسم (وثانيها)
أنه لو قدر على بعض صفاته من كونه متحركاً أو ساكناً لقدر على سائر صفاته بأن
يجعله حياً قادراً عالمياً مدركاً سمياً بصيراً ، واللازم منتف فينتفى الملزوم
وذكروا لهذه الملازمة وجهين (أحدهما) أنه لو قدر على جعله كائناً لكان
الجسم متصرفه ومقدوره فيقدر حينئذ على ذاته وسائر صفاته (والثاني) القياس
على الكلام فإنه ما قدر على جعل الكلام خبراً أو أمراً كقوله : تيامنوا وأمروا
وتهديداً كقوله تعالى « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » قدر على ذات
الكلام وسائر صفاته كذا هذا (وثالثها) أنه لو كان التحريك بالقادر لما
تعذر عليه تحريك الثقل دون الخفيف لان المصحح لتحريكهما تحيزهما
وحال القادر معهما على السواء فلا بد من معان وأكوان ثقل وتكثر

فالتقليل الذي يكفى لتحريك الخفيف لا يفي بتحريك الثقيل ، فلهذا
يتعذر عليه (ورابعها) من يكون بالفاعل زائد على الوجود لا يتجدد في حال
البقاء . والكائنية تتجدد في حال البقاء فلا يكون بالفاعل ، بيان الاول من
وجوه : أحدها ، أن القبح والحسن لما كان بالفاعل لم يتجدد في حال البقاء
فكذا في غيرهما من الصفات . الثاني ، أن كون الكلام أمراً أو خبراً
عن زيد أو خبراً عن عمرو لا يتجدد بعد الحدوث لكونه بالفاعل
فكذا صفات الاجسام . الثالث ، أنه لا يصح من زيد أن يجعل كلام
عمرو خبراً أو أمراً لما أنه لم يحدث به فكذا الجسم لما لم يحدث
بالفاعل من لم يصح منه أن يجعله كائناً ﴿ قلت ﴾ ويمكن أن يقال
(وخامسها) لو كان التحرك والسكون بالفاعل لصح منه تركه بعد الاعتماد
لان القادر هو الذي يصح منه الترك والفعل ، ولما لم يصح منه الترك
دل على أنه بالموجب وهو الكون الذي يصح منه الترك ﴿ الجواب ﴾ (١)
قوله : لا نسلم بأن القادر هو المؤثر بحسب الداعي ﴿ قلنا ﴾ لما بيناه في
أول الكتاب في أبواب التوحيد ، والثاني ؛ أنا نعى بالقادر هو المؤثر
بحسب الداعي إذا لم يمنعه مانع وبالموجب خلافه فنقول بتحريك الجسم
وسكونه بالقادر على هذا التفسير من غير واسطة الكون والخصم ينكره
فصار ملزماً بهذه الحجة وقوله لا نسلم بأن الداعي يستدعي سابقة العلم بل
الظن والتجوز يكفى ﴿ قلنا ﴾ الجواب عنه من وجهين

(١) هكذا في نسختين خطيتين وفي الثالثة بعد قوله وهو الذي يصح
منه الترك فكيف الجواب قوله اعط ولعلها الصواب اه مصححه

أحدهما أن الظن والتجوينز للمصلحة في الفعل يستدعي تصور ذلك الفعل والمصلحة ، والظن لا يصور الحقائق (والثاني) أنا نحرك الأشياء ولا يكون لنا ظن ولا وهم ولا مجوز لشيء غير الاعتماد والتحرك بل نعتقد انتفاءه ، قوله العلم الاجمالي بالكون ثابت لكل أحد لأنه يعلم أنه يفعل أمراً من الأمور قلنا نعم وهو الاعتماد والتحرك ولا كلام فيهما ولكن لانسلم أنه يفعل أمراً سواهما وهو بين الانتفاء ، قوله والكون المختلف فيه مسبب الاعتماد والتحرك ولا كلام فيهما ولكن لانسلم أنه يفعل أمراً سواهما والداعي إنما يدعو إلى المباشر دون المسبب ، قلنا لانسلم أنه ليس يدعو الى تحركه وسكونه وأنه مسبب لا مباشر وأن الجواب الثاني أن جميع الاكوان لا تكون مسببة عند البهشية وانما المسبب منها ما يوجد في غير محل القدرة أما الموجودة في محل القدرة فهي مباشرة عندهم فنحن نذكر النكتة فيها* قوله الحجة الثانية لانسلم بأن الداعي لازم للقادر ، قلنا الجواب عنه من الوجهين اللذين مر تقريرهما آنفاً . وأما اختيار المضطر أحد الطريقين أو أحد البابين أو أحد القدحين وفعل النائم والساهي فالجواب عنه من وجهين :

(أحدهما) أنا نذكر النكتة في غير المضطر والمتحيز من القادر (والثاني) أنا لانسلم انتفاء الداعي عند الاختيار ثمة بل لا يحتاج الامر بحسب لطيف حقيق أو خيالي يثبت عنده ولكن لا يذكر لطفه وضعف قوته قوله لانسلم مخالفة الاجماع: قلنا لان ثبوت الكون في بعض الحركات

والسكنات دون البعض منتف بالاجماع، أما عندنا فقلعدهم ثبوته شاملا وأما عند
 الخصم فثبوته شاملا فالاجماع منعقد على أحد الشمولين والشمول ينفي
 الاختصاص ، قوله لم قلتم كان هذا الاجماع حجة (قلنا) لأن المتكلمين
 المعتزلة والسنية والفقهاء يستدلون به وهذا آية كونه حجة (والثاني) أن
 انتفاء الاختصاص قضية ساعد الخصم عليها ، وكل قضية ساعد الخصم
 عليها تغني عن إقامة الدليل عليها . قوله : لم قلتم إن احتياج كل واحد
 من الكون فيها والكائنية في الجهة الثانية منتف (قلنا) لانسلم بأن
 هذا الاحتياج ليس الا التقارن بينهما في الوجود كزوال البياض عند
 حلول السواد، بل هو أمر زائد عليه لانه لما استحال عندهم أن يكون هذا الكون
 بغير محل وفي الجهة الاولى فاشتراط في وجوده الى كون محله كائناً في الجهة الثانية
 ويستحيل أن يكون كائناً في الجهة الثانية بدون الموجب لكونه كائناً وهو الكون
 ويلزم احتياج الاول الى الثاني احتياج المشروط الى الشرط، واحتياج الثاني
 الى الاول احتياج المعلول الى العلة ، وأنه أمر زائد على نفس التقارن في
 الوجود زماناً، وأنه ممتنع لما يندوا وقررنا في بطلان الدور أنه يلزم تقدم الشيء على
 نفسه وأنه محال ، وبهذا تدفع صور النقوض « أما القادر فهو غير محتاج الى
 إزالته عن الجهة الاولى بل احتياجه الى تكوينه في الجهة الثانية ، فأذن
 كونه فيها يزول عن الاولى تبعاً وضرورة لا أن يحتاج اليه، وكذا زوال أحد
 الضدين لا يتوقف على طريان الضد الثاني عليه بل قد يزول بالقادر
 أو بما لا يكون ضدَّه ، قوله لو قدر على التحرك لقدرة على ذات الجسم
 وسائر صفاته (قلنا) لانسلم ، قوله الجسم حينئذ يكون مقدوره ومحل

تصرفه (قلنا) من جميع الوجوه أو من هذا الوجه فحسب (الاول)
 ممنوع ولا يمكن دعواه . ألا ترى أن الجسم مقدوره بواسطة الكون
 وليس بمقدور له من جميع الوجوه حتى لا يقدر على ذات الجسم وسائر
 الصفات بواسطة الاكوان ، ولان إلحاقه بالكلام من غير قياس ، فلا يلزم
 من ثبوت حكم ما في ألف ألف صورة ثبوته في غيرها فكيف يلزم من
 ثبوته في صورة واحدة ثبوته في غيرها ألا ترى أن الحيوانات العنصرية
 تحرك فكفها الاسفل في مضغها . والتمساح وحده يحرك فكفه الاعلى
 في مضغه ، ولئن تمسك بالقياس على الكلام وقال انما قدر على ذات
 الكلام وسائر صفاته لكونه قادرا على بعض صفاته وهو
 جعله خبراً أو أمراً أو خبراً عن زيد أو عمرو وهذا معنى موجود في
 الكائنية لو كان بالفاعل فيلزم قدرته على ذات الجسم وسائر صفاته لما
 ذكرنا من العلة الجامعة بينهما (قلنا) الجواب عنه من وجوه

﴿أحدهما﴾ من حيث القدح في صورة هذا القياس على أصولكم
 أو على العموم ، ذكرتم أنه قدر على ذات الكلام لما قدر على بعض
 صفاته فلا نسلم أولاً أن الكلام ذات وهذا لان الذوات ثابتة عندهم
 في الازل دون المركبات والكلام من المركبات

﴿الثاني﴾ أن القياس تعديّة الحكم من أصل معلوم إلى فرع معلوم ، والصفات
 بأسرها غير معلومة عندهم ولا يقال الدال على الصفة معلوم لانا نقول الدال على

الحكم اما الذات وحدها ولا سبيل اليه لانها وحدها ليست بدليل بالقطع والإجماع، أو الصفة وحدها ولا سبيل اليه لكونها غير معلومة عندكم، أو المجموع ولا سبيل اليه لكون بعضها غير معلوم أو لاشيء منها، وحينئذ ينتفى منها الدليل أصلاً ﴿والثالث﴾ لا نسلم بأنه يقدر على جعل الكلام خبراً بغير واسطة بل انما يصير خبراً بارادته الخبر وأمره بارادته الامر وخبراً عن زيد بن عمر دون زيد بن خالد بواسطة الارادة فختلف حكم الاصل والفرع وانه يمنع المقايسة ﴿والرابع﴾ إن سلمنا أنه يقدر على جعل الكلام خبراً لكن قلتم بأن القدرة على بعض الصفات علة للقدرة على الذات بل الامر على القلب والعكس لان الذات أصل والصفة تبع . فيجوز أن تكون القدرة على الاصل علة للقدرة على التبع لانه موافق للعقل والشرع، أما جعل القدرة على التبع علة للقدرة على الاصل فما تستبعده العقول السليمة والطباع المستقيمة عند تظاهر لامارات عليه فكيف اذا لم يكن شبه أمارة، وكان من وساوس النفس الامارة او على هذا تقول على الوجه الثاني لم قلتم بأن القدرة على بعض الصفات كالتجربة علة للقدرة على غيرها ولم لا يجوز الامر على العكس، ولا يقال بأن القدرة على الذات والقدرة على سائر الصفات تدور مع القدرة على البعض وجوداً وهدماً لأننا نقول الجواب عنه من وجوه .

أحدها أن القدرة على سائر الصفات كما دارت مع القدرة على البعض دارت مع القدرة على الذات في الكلام فما كان جعل القدرة على الصفة علة أولى من جعل القدرة على الذات علة وقد أشرنا إلى أولوية الثاني، أو نقول يكون المجموع علة وهو القدرة على الذات وعلى هذه الصفة والثاني لأنسلم بأن الدوران دليل علىية المدار للآثر الدائر وليس كذلك، ألا ترى أن الحكم يدور مع الشرط والعلة المساوية تدور مع المعلول وجوداً وعدمًا وأحد الحكمين المتلازمين يدور مع الآخر وجوداً وعدمًا وإن لم يكن شيء من ذلك علة وكذلك التحرك يدور مع الاعتماد وإن لم يكن له علة عندكم (والثالث) إن سلمنا دلالة الدوران لكن في حين التعارض لأن القدرة على هذه الصفة تدور مع القدرة على سائر الصفات وجوداً وعدمًا فتكون القدرة عليها علة فلا تكون معلولة، ولا يقال المدعى أن القدرة على بعض الصفات علة للقدرة على الباقي وحينئذ يثبت المدعى لانا نقول لأنسلم بأن ذلك البعض من حيث إنه بعض علة بل كون ذلك البعض علة لكونه قدرة على أعلى الصفات وأعسرها كالقدرة على الأحياء والافتقار والعقل والشهوة والنفار علة للقدرة على التحرك أما على العكس فلا، والدليل الجازم على بطلان هذه القاعدة وما ذكره من القياس أن القادر منقاد على تحريك الجسم وتسكينه بواسطة الكون أو بغير واسطة ولا يقدر على ذات الجسم وسائر صفاته كالحياة والقدرة والعلم لا بواسطة ولا بغير واسطة، وفيه مظاعن جمة ومباحث كثيرة أعرضت عن ذكرها لوقوع الكفاية التامة بشيء مما ذكرته قوله لو كان التحريك بالقادر لما تعذر عليه تحريك الثقيل دون الخفيف

قلنا الجواب عنه من وجوه أحدها لانسلم بأن نسبة القادر إليهما على السواء وإنما يكون أن لو كانت اعتماداته أو أكوانه كافية لتحريك الثقل كما تكفي لتحريك الخفيف والاستوى على أن نسبة القادر إليهما بواسطة أو بغير واسطة ليست على السواء بالاجماع (الثاني) أن لا نسلم بأن ذلك الامر المحتاج اليه القابل للقلة والكثرة هي الاكوان بل ذلك عندنا هي الاعتمادات التي يوجد بها القادر في محل القدرة بدليل تفاوت التحريك بتفاوت الاعتمادات (والثالث) أن القول بثبوت ما ذكرتم من الاكوان الموجبة للزيادة في الكائنات يؤدي إلى المحال لانه يؤدي إلى التزايد في الكائنات والتزايد فيها محال وما يؤدي إلى المحال فهو محال ، وإنما قلنا إن التزايد في الكائنية محال لامهاعبارة عن شغل الحيز المحال ولا يقال التزايد في الكائنية صحيح وما يكون بالفاعل لا يصح فيه التزايد كالوجود وإنما قلنا إن التزايد فيه صحيح بدليل أن القوى إذا اعتمد على الجسم يعجز عن جذبه الضعيف ولولم يصح التزايد فيها لما عجز وهذا من شبه البهشية أيضا لانا نقول استحالة التزايد فيها بدیهى ضرورى لما بينا أنه عبارة عن الشغل والمحاذاة بجسم آخر ويستحيل التزايد فيها وإنما يعجز الضعيف عن جذبه لزيادة اعتمادات القوى لالصحة التزايد فيها قوله ما يكون بالفاعل زائد عن الوجود لا يتجدد في حال البقاء والكائنية تتجدد في حال البقاء قلنا لانسلم بأن ما يكون بالفاعل لا يتجدد في حال البقاء وأما ما ذكر من الوجوه الثلاثة فالها يرجع إلى القياس واثبات العلة الجامعة بالدوران وقد أجبناعنه ، على أن الحسن والقبح معلل بكيفية تقترن بأول الحدوث وهو أن ينوى إحداثه

لمصلحة الاحسان أو الطاعة أو دفع المصرة في الحسن وعكسها في القبيح وذلك متعذر حال البقاء بخلاف الكائنية وأما وقوعه خبراً عن زيد ابن عمر فلان الكلام والخبر وقت الحدوث لا يخلو عن طلب أو خبر عن شخص معين دون غيره فيتجدد غيره بعد تناقض فلا يصح ولان التجدد في حال البقاء في الكلام مستحيل ، لان الصوت لا بقاء له ولا كذلك الجسم وبما ذكرنا خرج الجواب عن الثالث قوله لو كان التحرك بالفاعل لصح منه الترك بعد الاعتمادات قلنا هذا ينتقض بجميع المتولدات من الافعال قال خاتمة أهل الاصول علامة الدنيا أفضل المتكلمين من الآخرين والاولين ، تقي الملة والدين ناصر الاسلام والمسلمين العجالي قدس الله روحه في الجنة ونور بقناديل العفو والغفران ضربه الامام الذي بلغ في تقرير قواعد العدل والتوحيد مبلغاً لم يبلغ اليه الاوائل والاواخر وقد سمح خاطره بدقائق لم تسمع بمثلهما الخواطر ، وأكثر ما أذكره في مسائل الثالث الاول من خاتمة أبواب العدل من ملتقطات تصنيفه الكامل في الاستقصاء قال في آخر هذه المسئلة. ولقد صدق الشيخ أبو الحسين رحمه الله تعالى في مقالته : انى لو اقتصرت على ذكر أدلتهم وعللهم لكفى الناظر فيها في العلم بأنها لا تثمر ظناً فضلاً عن علم ، اترى قلوبهم تسكن ونفوسهم تطمئن عندها ثم قال تقي الأئمة العجالي رحمه الله فان هذه الحجج التي قنعوا بها في إثبات هذا الاصل العظيم ليس يصلح إيرادها عند ملاعب الصبيان في ترويح الخيال فكيف يمثل أصل هو أساس الاسلام وأكثر مسائل مذهبهم تبني على هذا الاصل فانهم جعلوا المعاني المقدورة إلى طريق

إثباتها أربعة وعشرين جنساً ، عشرة منها مشتركة في القدرة عليها بين قادر الذات وقادر القدرة ، خمسة منها أفعال الجوارح وهي الاكوان والاعتمادات والتأليفات والآلام والاصوات ، وخمسة منها أفعال القلوب وهي الاعتقادات والظنون والانظار والارادات والكراهات ، واما بقيتها فيختص بالقدرة عليها الله تعالى وهي الجواهر والالوان والطعوم والروائح والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والقدرة والشهوة والنفرة والبقاء والموت عند أبي علي ، فانظر إلى هذا الاصل الذي لو أحيل فانه يحيل أصلهم للإسلام ويحيل من مذهبهم هذه الاقسام الكثيرة ثم صححوا هذا الاصل بهذه الامارات الضعيفة التي لا تثمر ظناً ولا خيالاً ، ولا تزيد من الهداية الاغنادا وخبالاً ، عصمنا الله عن الضلال بحق محمد وآله خير آل ، والله الموفق انتهى بحروفه وتمامه يتم للمقام الثاني والحمد لله رب العالمين

ثم نرجع إلى تمام الكلام في القرآن الكريم بعد هذه الزيادة فنقول (الفصل الثاني) في الرد على الخصم في دعواه علمه بالذات وهو ماسمعه منه ، وعلمه بتأويل التشابهات وهو مما باغى عنه فهاتان دعوتان : الدعوى الاولى علمه بالذات والصفات وأن الله لا يعلم من ذلك غير ما يعلمه ، وهذه مسألة عظيمة قديمة قد طال الخوض فيها وكفيها مؤنة التطويل في تحرير الأدلة في مبانيها ولكننا نشير الى نكتتين جليلتين إحداهما : أن قولنا فيها هو قول أمير المؤمنين وامام الراسخين علي بن أبي طالب عليه السلام كما قرره شراح كلامه في قوله (بها امتنع منها واليه احاكمها) أي امتنع من العقول بمعرفة العقول لعجزها عن إدراكه والاحاطة به ، واليه احاكمها أي اجعلها محكمة في ذلك لانه نزلها

منزلة الخصم المدعى والخصم لا يحكم الا حيث تتضح الحجة ويفتضح جاحدها
 فلا يرضى لنفسه بدعوى ما يعلم كل عاقل كذبه فيها (قلت) ولم يعلم اعلى عليه
 السلام مخالف في الصدر الأول ولا انكر عليه كلامه هذا احد بل احتج به
 الامام المؤيد بالله عليه السلام بحجة حمزة عليه السلام على ضعف كلام ابي هاشم
 ذكره في شرحه للنهج في شرح قول علي عليه السلام وذكر ابن أبي الحديد مع اعتزاله
 أنه قول لم تنزل فضلاء العقلاء عليه واحال بالدلة الى مواضعها ثم انشد لنفسه في
 نصرة هذا القول ما يكفي ويشفي مثل قوله :

تاه	الانام	باسرهم	فاليوم	صاح القوم	عربد
تالله	ماموسى	ولا	عيسى	المسيح	ولا محمد
عرفوا	ولا جبريل	وه	و	إلى محل القدس	يصعد
من كنه	ذاتك	غير	از	ك واحد في الذات	سرمد
عرفوا	إضافات	ونف	يا	والحقيقة	ليس توجد
ورأوا	وجودا	دائما	يفنى	الزمان	وليس ينفد

الى قوله :

فلتخسأ	الحكماء	عن	حرم له	الاملاك	تشهد
من انت	يارسطو	ومن	افلاط	قبلك	يامبلد
ومن ابن	سينا	حين قر	ر	ما هذيت	به وشيد
هل انتم	إلا	الفرا	ش رأى	السراج	وقد توقد
فدنا	فحرق	نفسه	ولو اهتدى	رشدا	لأبعد

ومما قال في ذاك :

فيك يا أغلوطة الفكر تاه عقلي وانقضى عمري
 فلمحي الله الألى زعموا انك المعلوم بالنظر
 كذبوا ان الذى زعموا خارج عن قوة البشر
 سافرت فيك العقول فما ربحت الاغنا السفر
 رجعت حسرى وما وقفت لا على عين ولا اثر
 وله في هذا المعنى كل مقال فصيح، ومعنى صحيح، وذلك مبسوط في موضعه
 من شرح كلام على عليه السلام وينبغي ان ينقل كلامه كله بحروفه لجودة
 عبارته وغزارة علمه ولا نبيض هذه المسودة حتى نستوفي نقله إن شاء الله تعالى
 ونذكر ما نقله الرازى عن الفلاسفة في الكلام في الالهيات وقد نظمت
 ذلك في نظمي في سر قل هو الله أحد والحمد لله * وكفى بقول الخصم: ان
 الله (تعالى عن ذلك علوا كبيرا) لا يعلم في نفسه الا ما يعلمون، شناعة فاحشة
 يكفى في بطلانها سماعها ويفضى الى التعطيل وينبنى عليه امتناعها، وكفى بامير
 المؤمنين سلفا وقدوة وإماما وحجة في هذه مشكلة كيف وقد نظرت العقول
 حتى وقفت خاسئة ورجعت الابصار كرتين فانقلبت حاسرة ويطابق السمع
 على ذلك قرآنا واخبارا وآثارا، وكفى قوله تعالى في ذاك (ولا يحيطون به علما)
 والتطويل في الجليات يوم انها خفية، وجعدة لماعدين وبله بعض المتكلمين
 تشكك في انها جليلة وقد رأيت الاقتداء بالعلامة عبد الحميد بن ابى الحديد
 في هذا المقام لا ثقافتصرت فيه على رسم ابيات كنت قلتها في ذلك وهى هذه
 لى في القديم مقال غير منتكر سمحانه عن خيال الوهم والفكر
 اجله ان تحيط الناظرون به ذاتا وابن قوى النظر والنظر
 فالعلم قسمان تصديق ومعرفة تختص بالذات والتصديق بالخبر

القسم الاول بالعرفان متسم

مفعوله واحد في النحو والنظر

وهنا افترق العلمان ماوقفالا نظار في ذا على عين ولا أثر
وإنما علموا أوصافه جملا

من غير كيف ونفى النقص والصور

فان معرفة الموصوف جل عنالا * إدراك بالفكر والتخييل بالبصر
والله يعرف قطعاً ذاته وسوا * ه ليس يعرف إلا الوصف بالنظر
فان يقرأوا بهذا فللرأد وإن * حادوا فقد وقعوا في أخفش النكر
هل جهلوه لتجهيل العبيدأواد * دعوا لعرفانه في مقطع الفكر
الله أكبر هذا قاطع ولنا * عليه أكبر برهان من الزبر
تنزه الرب في الذكر المنزل أن * يحيط علما به خالق من البشر
تمدحاً لم يكن في الذكر مختلفا * قطعوا ولا غلطاً من وهم ذى نظر
فان يقولوا كلام الله مشتبّه * فأين قولهم في محكم السور
وكل مشتبّه فالحكمات له * أم كما جاءنا في أصدق الخبر
وفي الحديث دلالات لنا ولنا * حديث موسى كلم الله والخصر
وفي كلام أمير المؤمنين لنا * هذا وحسبك برهاناً منتصر
وفي وصيته ابن المصطفى حسناً * دلائل لفقيه القلب معتبر
فلا تؤوله المعقول يمنع أن * يوصى بمشبّه خوفاً من الغرر
وعن وجوه الكراسى قدر واه لنا * عبد الحميد لشرح النهج ذى العبر
وجنح القول فيه بالقصائد أم * ثلاثا سير مسير الشمس والقمر

في شرح قول أمير المؤمنين بها ام * تناعها واليها الحكم في النظر
 تلك الالى حكمت بالمتع قد حكمت * بها الملائك أهل القرب والنذر
 والراسخون وأدنى من له أدب * وكل متضع لله منكسر
 فلا ترجع عليهم غير محتفل * شيوخ جبة إن جاروا فلا تجر
 والفرق كالصبح لا يخفى على أحد * واخبر تميز فليس الخبر كالخبر
 ولبعض الاصحاب في هذا المعنى آيات أجود من هذه يبنى اثباتها هنا
 إن شاء الله تعالى وهذه الايات التي تقدمت الاشارة اليها في فضل قل هو
 الله أحد أوردتها لما فيها من نفي التشبه وهي هذه :

في الواحد التوحيد في ذاته * والوصف والفعل لمن يفهم
 والصمد الغاية في مجده * وقصده في الامر إذ يعظم
 والملك في الاول والحمد في الا * ثاني تعالى الملك الاكرم
 والملك أصل والثنا غاية * ومنهما أسماءه تقسيم
 والسبع فافهم قسمت فيهما * وفي الذي هو منهما يلزم
 يعني بالسبع السبع الثاني وهي الفاتحة لان ابتداءها بالحمد الذي هو الغاية
 المقصودة بخلق العالمين ولذلك ختم به الفصل يوم القيامة وبين الحمد (١) بكونه
 رب العالمين وهذه صفة العظيم وهي تقتضي التوحيد بظاها رها ثم يليها
 الرحمن الرحيم وهي أعظم صفات الحمد ولوازمه ولذلك كررها هنا مرتين
 وفي التسمية مرتين وجاء في كل مرة باسم المبالغة والالف واللام ثم ذكر
 رابع صفة الملك باسمه الخاص به لأعظم الامور وهو يوم الدين وجاء فيه

(١) أي بين منشأ الحمد أنه مربى العالمين وخالقهم اه مصححه

بقرائتين ليكون بمنزلة اثنين ولما كان يوماً عظيماً لم يذكره حين قدم ما يؤنس أهل الخوف من سعة رحمة الله تعالى بتكرار هذين الاسمين الشريفين وقد دل القرآن على أنه من مقتضى رحمته حيث قال تعالى (كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة) واتفقوا على صحة حديث المائة الرحمة المؤخرة له وهو كالتفسير لهذه الآية ثم قال (اياك نعبد) من لوازم الملك (واياك نستعين) وذلك من لوازم الحمد ، وفيهما توحيد صريح وكذلك سائر السور من لوازم الحمد الى قوله (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وهو من لوازم الملك الحق والعدل بين الخلق كما أوضحته في العواصم ونهاية الامر: أن يكون ذلك من المتشابه الذي تفرد بعلم الحكمة فيه ونعرفها نحن جملة وفيها الجمع بالافرق والتوحيد الاعظم (١) أراد بالجمع عرف الصوفية في استغراق القلب بذكر الله تعالى ونسيان ما سواه حتى العمل والجزاء وحتى نفس الذاكر وذكره والفرق ذكر شيء من ذلك وأدنى والتوحيد هو توحيد العامة وهو التوحيد في الربوبية وهو لا اله الا الله ونحن به الاحد وأعظم التوحيد وتوحيد الخاصة وهو التوحيد في النفع والضرر والاستعانة مع التوحيد في الربوبية فلا يرجى ولا يخاف. إلا الله تعالى ولا يستعان إلا به وقد جمعها قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) لكن في اياك نعبد شيء من الفرق في ذكر العبادة والاتفات اليها وليس في الاحد شيء من ذلك ، وأما اياك نستعين فإنه جمع مثل الصمد لان الصمد هو السيد المقصود في المهمات المتناهى المجد المعول عليه في كل أمر ، وأما التوحيد في الوجود فهو

(١) ننظر هذه العبارات الآتية بتمعن حيث وجدت هكذا في نسختين اه مصححه

مجاز وتحقيقه بدعة قد ضلت بسببها الاتحادية فالله المستعان

وفيهما الجمع بلا فر ق والتوحيد أدناه والاعظم
وفيهما أسماؤه كلها الـ جسنى وفيها اسمه الاعظم
وبعد ذا النفى اميرائه لأنه الآخر والأقدم

وهو من الملك ومنه انتفا الـ

أمثال في الكل لمن يعلم

وآخر السورة نفى لما يظن في التشبيهه أو يوم

وفيه نفى النوع نصاً ونفـ الى المثل تعمياً لمن يلم

أى في نفى الوالد والولد نفى المثل النوعى أى نفى أن يكون له أمثال منه
أو هو منها بالنص لأنه هو الذى ربما توهمه من له بعض تمييز ثم نفى المثل
المطلق للعموم لأنه اذا انتفى المثل من النوع الاول لم يتوهم أن له مثلاً من
عبيده ومخلوقاته الا لمن لا تمييز له فلم يحتاج الى أكثر من نفيه بالعمول
لأنه ضرورى في العقول والله أعلم اهـ، ثم إن في هذا النفى للمثل النوعى
والمثل العام تأكيداً لما تقدم في توحيده في ذاته المستلزم توحيده في عباده
وتوحيده في صمديته المستلزم توحيده في الاستعانة به وكان في ذلك كمال
الاتصال الموجب لحذف حرف العطف عند أهل المعانى وغاية التناسب
والبلاغة والحمد لله الذى هدانا لهذا

لم يستو الخلق في ذله (١)

كيف الاعز الاكبر الاعظم

مائمة الا اللطف يحكيه والايماان والصمت لنا أسلم
اعترف اليونان في كفرهم أن النهي في ذلك لاتعلم
أفاده الرازي قالوا سوى رجم ظنون لهم تهجم
هذا وهم في العجب والتهيه في ليل دعاو كله مظلم
فكيف بالمسلم في هديه نور وهو بتقوى ربه ملجم
وعن على قال يابردھا قولك في المجهول لا أعلم
لذلك كانت ثلثا كاملا للذكر هذا فاغتم المغنم (١)

ولبعض الاصحاب في هذا المعنى أبيات وهي هذه :

يا ضلة الغالين حين توهموا ما لا يفوه به التقي المسلم
قالوا إله العرش ليس بعالم من ذاته والوصف مالم يعلموا
هذي مقالة من هوى في متلف وعليه ديجور الغواية مظلم
قالوا تقرر أن كل مكلف فعليه علم الذات فرض ملزم
وكذا الصفات فان يكونوا حصلوا ما كلفوه فما ذكرنا يلزم
إذلا يكون العلم غير مطابق لحقيقة الامر الذي هو يعلم
هذا وان لم يستطيعوا مابه قد كلفوا فالامر فيه أعظم
لرؤم تكليف المحال وباتفا تكليفه نطق الكتاب الحكم
قلنا لقد شدتم بناء عاليا واهى الاصول فأسه متهدم
الفرض علم الله موجودا إا هماً واحداً ماغيره متقدم
حيّاً قديراً عالماً متنزهها عما يقول مجوز ومجسم

(١) هكذا وجدت هذه الايات في ثلاث نسخ خطية فلتنظر اه مصححه

لاعلم كيف صفاته أو ذاته سبحانه أن يعتريه توهم
واقراً إذا ما شئت في طه تجد مايقطع الشبهات عنك وبحسب
نفى الاحاطة عن جميع الخلق بالر رحمن علما شأن ربي أعظم
فاعرض كلامهم على القرآن فالأ قرآن في ذا ناقض ما أبرموا
لكنهم تركوا الكتاب لوهمهم فمشوا لتركهم التدبر أوعموا
أنى يكون كعالمه سبحانه تخييطهم وله الشكوك تهدم
شتان علم لا يحول وعلمهم علم يفارقهم اذا هم نوم
أو غافلون وشبهة تغتاله والشك يفسده اذا يتوهم
وانظر الى نهج البلاغة تلق ما يشفى الغليل والمخالف تفهم
(وثانيهما) أذكر أوجز كلام عرفته في ذلك لفظاً وأبلغه على إيجازه
معنى لتقر عين المتطلع الى ما حمل المخالفين على هذه الدعوى العظيمة فأقول:
ان من أحسن من عبر عن هذه المسألة الكبرى شارح جمع الجوامع
لكن النساخ غيروا بعض ألفاظه فشككت في بعض ألفاظه مع معرفة
مراده فجعلت العبارة لى وزدت اليسير حيث تصحح الزيادة وتجاوز
وتحسن ولم أظنن في موضع لا يحل فيه الظن ويتوقف فيه على النقل فأقول:
لا شك ان الله عز وجل حقيقة مخالفة لسائر الحقائق مخالفة مطلقة لا يشاركها
شئ في ذاتيتها وخصوصيتها قال الله تعالى (ليس كمثله شئ وهو السميع
البصير) وقال تعالى (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد) وقال تعالى
(فاعبدوه واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) وقال تعالى حاكياً عن شبهه بغيره
سبحانه (تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذنسويعم برب العالمين وما اضلنا

(الاجرمون) وفي قوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) جمع بين
 الرد على طوائف المبطلين فاولها رد على المشبهة وآخرها رد على المعطلة وفي
 ترتيبها سر لطيف لانه لو قدم الرد على المعطلة خيف سبق وهم أو خيال من
 شبه أهل التشبيه فلذا بدأ بما يعصم عن ذلك من غاية التقديس والتنزيه وقالت
 المعتزلة ان الخلق والرب مشتركون في جنس الذاتية وان التفرق انما
 حصل بالوصف الاخص لله تعالى لتشريع أولغيره مما يوجب التميز بعد الاشتراك
 وهذا باطل قطعاً للقطع بأن جنس الذاتية الاعم المسمى عند أهل المعقولات
 بالماهية وبالوجود المرسل والوجود المطلق مستحيل الثبوت في الخارج
 بالضرورة العقلية وبمعرفة هذا يزول كثير من خيالات أنواع المبتدعة وعلى
 الغلط فيه يترتب ضلال كثير نسأل الله العافية فاذن المشترك انما هو
 لفظ عام لاسوى وربما عبر عنه بعض أهل العقليات بالعرض العام والاشتراك
 فيه من جنس الاشتراك في اسم الشيء بل من جنس اشتراك المعدومات
 في اسم العدم، وزعم بعض المتكلمين ان الذوات كلها متساوية وأن امتياز
 بعضها عن بعض بصفات مخصوصة وامتياز ذات الله تعالى عن غيرها
 بصفات الالهية كوجوب الوجود قدمادواما وتمام القدرة واحاطة العلم
 ونفوذ المشيئة والكمال المطلق الموجب لاستحقاق كل مدح وثناء والتنزيه
 من كل نقص وعيب وأشار صاحب الصحائف الى ان الخلاف بين المساميين
 في هذه الاشياء لفظي وما هو بعيد وذكر ابو علي التيمي تلميذ الغزالي في التذكرة
 انه لم يمنع من اثبات ماهية الرب الحقيقية الا بعض الفلاسفة ومنهم من أثبتها
 لانها من لوازم الوجود العيني ويستحيل دخول الوجود المرسل في قضية العقل

في الاعيان إذا تقرر هذا فاعلم أن المثبتين للماهية اتفقوا على أنه لا أحدها
ثم اختلفوا في مسئلتين المسئلة الاولى هل يصح العلم بها للبشر في الدنيا
بالنظر والاستدلال؟ فذهب فضلاء العقلاء منهم امامهم وإمام المسلمين أمير
المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة ومن لا يأتي عليه العد
من الآك والاولياء والعارفين إلى امتناع ذلك وهو قول القاضي أبي بكر
الباقلاني وإمام الحرمين الجويني والغزالي والسكيا الهراسي في مشيخة
جلة وحكاها الرازي عن جمهور المحققين قال وكلام الصوفية يشعر به وبهذا قال
الجنيد والله ما عرف الله إلا الله * وذكر الطرطوسي في الرد على إرسطاطاليس
أن الحارث المحاسني قال لا يمكن أن تكون معلومة للخلق وحكوا
عن الشافعي أنه قال من انتفض لطلب مذهب فانهى إلى موجود
ينتهي اليه فكره فهو مشبه ، وإن اطمأن إلى العدم الصرف فهو
معطل وان اطمأن الى موجدته واعترف بالعجز عن إدراكه
فهو مصدق وهذا معنى قول الصديق الا كبر العجز عن درك الإدراك إدراك
وقد قيل: حقيقة المرء قطعاً ليس بدركها * فكيف ماهية الجبار في القدم
وذهبت المعتزلة أو كثير منهم إلى أنها معلومة واحتجوا بوجهين (أحدهما)
أنا مكلفون بمعرفة واحدانيته وذلك يتوقف على معرفة حقيقته فلو لم تكن
واجبة شرعاً ممكنة عقلاً لكان ذلك تكليفاً بما لا يطاق وهذا لا يجوز على
الله تعالى، والجواب أن الملازمة ممنوعة وإنما كلفنا بمعرفة الربوبية ولا سيما
الحسنى ونفى الثانى ونفى التشبيه والظلم وكل نقص وهذه كلها نعوت
عربية عن معرفة الماهية (وثانيهما) قالوا إنا نحكم على ذات الله تعالى بهذه

الاحكام الثبوتية والسلبية والحكم على الشيء مسبوق بمعرفة المحكوم عليه والجواب أن هذا ضعيف لانهم إن عتوا أنه مسبوق بمعرفته من بعض الوجوه إجمالاً فسلم ولا يضر تسليمه وإن عتوا بمعرفته على التفصيل من جميع الوجوه فمنعوك وكلامهم مجرد دعوى، والدليل عليهم في هذا المقام، فإن أبدوه وجب علينا نقضه وإن لم يبدوه لم يلزمنا شيء من مجرد الدعوى بغير حجة ولا هدى ولا كتاب منير وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين (ولا يحيطون به علماً) ولذا لما قال فرعون وما رب العالمين أجابه الكريم عليه السلام بالنعمة حيث قال رب السموات والارض لتعذر الجواب بالماهية فعجب فرعون وقومه من عدوله عن الجواب المطابق لسؤاله ولم يعلم لغباوته أنه المخطئ في السؤال عن الماهية وأن ما أتى به الكريم في الجواب أقصى ما يمكن والله سبحانه الاسماء الحسنى وحظنا من المعرفة الايمان بها على ما يريد الله سبحانه وتعالى ولولا رأفته ولطفه ومعرفته ورحمته وبره وعظم فضله وواسع احسانه ما كنا اهلاً للمعرفة شيء مما عرفنا به وكرمنا وشرفنا بسببه وكيف واحاطة البشر بمن تجلى للعجب لجعله دكاوخر موسى صمعا وقد تقدم كلام على عليه السلام في جوابه على الذي قال له صف لنا ربنا وغضبه من ذلك ونهيه للرجل ان يسأل عن ذلك احد اسواه (المسئلة الثانية) اختلف المانعون من ذلك في الدنيا هل يطرد المنع في الدنيا ولا آخرة أو يختص ذلك بدار الدنيا فمنهم من طرد المنع ومنهم من خصه بدار الدنيا ومنهم من توقف ولا حاجة بنا إلا إلى التطويل بالخوض في أحكام الآخرة انتهى (الدعوى الثانية) دعوى العلم بتأويل التشابهات وهو مبني على ذكر

الآية الشريفة الواردة في ذلك والكلام عليها فلنبداً بذلك فنقول قال تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الالباب) فمن شرط الايمان وعزائمه الايمان بمتشابه القرآن فمن علم معناه آمن به على اليقين ومن لم يعلمه آمن به على الجملة ، وقد اختلف الناس اختلافا كثيراً في الراسخين هل يعلمون التأويل مع الله أم لا وينبغي من تألي كتاب الله الشريف أن يؤثر هذه الآية الشريفة بزيادة في التدبر فانها قاعدة عظيمة للكلام في تفسير كتاب الله تعالى وقد ثبت في امالي السيد الامام أبي طالب وفي نهج البلاغة عن علي عليه السلام ان الراسخين لا يعلمون ذلك كما سيأتي بحروفه في الأدلة على ذلك وثبت ذلك أيضاً عن زبد بن علي وعن القاسم والمهادي إلى الحق يحيى ابن الحسين وعن ولده المرتضى محمد بن يحيى عليهم السلام وسيأتي كلام واحد منهم بحروفه وثبت ذلك أيضاً عن الامام المؤيد بالله يحيى بن حمزة رحمه الله ذكره في كتاب الحاوي في اصول الفقه في الكلام على المؤول في اوائل المجلد الثاني واحتج عليه كما سيأتي بيانه فهو لاء أعلام أئمة العترة الاكابر من الاول والآخر ولندكر بعد قولهما من وافقهم على ذلك فنقول قال البغوي في تفسيره وذهب الاكثرون الى ان الواو للاستئناف وتم الكلام عند قوله الا الله وهو قول أبي بن كعب وعائشة وعروة بن الزبير ورواية عن طاووس عن ابن عباس وبه قال الحسن واكثر التابعين واختاره الكسائي والفراء والاخفش

ويصدق ذلك قراءة عبد الله (وإن تأويله إلا عند الله) وفي حرف أبي بن كعب ويقول الراسخون قال عمر بن عبد العزيز في هذه الآية انتهى علم الراسخين الى أن قالوا آمنا به كل من عند ربنا وهذا القول أقيس في العربية وأشبهه بظاهر الآية انتهى مختصراً وقال ابن تيمية في القاعدة الخامسة من جواب المسألة التدمرية انا نعلم ما أخبرنا الله به من وجه دون وجه لقوله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن) وهذا يعم المحكم والمتشابه وجمهور الائمة على أن الوقف عند قوله الا الله وهو المأثور عن أبي وابن مسعود وابن عباس وغيرهم ، وعن مجاهد وطائفة أن الراسخين يعلمون تأويله ولا منافاة بين القولين عند أهل التحقيق فالتأويل على (ثلاثة وجوه) الاول كلام الاصوليين وهو ترجيح المرجوح للدليل (الثاني) التفسير وهو اصطلاح المفسرين كما ان الاول اصطلاح الاصوليين ومجاهد إمام التفسير عند الثوري والشافعي والبخاري وغيرهم (الثالث) الحقيقة التي يؤول اليها الكلام لقوله تعالى (هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) فتأويل اخبار المعاد وقوعها يوم القيمة كما قال في قصة يوسف لما سجد له ابواه واخوته (قال هذا تأويل رؤياي من قبل) ومنه قول عائشة كان يقول في ركوعه وسجوده سبحانه لك اللهم ربنا وبمحمدك اللهم اغفر لي وتأول القرآن (تعنى قوله) فسبح محمد ربك واستغفره وقول سفيان ابن عيينة السنة هي تأويل الامر والنهي فان نفس الفعل للمأمور به هو تأويل الامر به ونفس الموجود المخبر عنه هو تأويل الخبر وهذا يقول أبو عبيد وغيره والفقهاء أعلم بالتأويل من اهل اللغة كما

ذكر واذلك في تفسير اشتمال الصمائيين (١): الفقهاء يعلمون نفس ما امر به ونهى عنه لعلمهم بمقاصد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما يعلم أتباع بقراط وسيبويه ونحوهما من مقاصدها ما لا يعلم بمجرد اللغة ولكن تأويل الامر والنهي لا بد من معرفته بخلاف الخبر اذا عرف ذلك فتأويل ما أخبر الله به عن نفسه المقدسة بمثلها من الاسماء والصفات هو حقيقة نفسه المقدسة وتأويل ما أخبر به من الوعد والوعيد هو نفس الثواب والعقاب وليس شئ منه مثل المسميات باسمائه في الدنيا فكيف بمعاني اسماء الله وصفاته، لكن الاخبار عن الغائب لا يفهم ان لم يعبر عنه بالاسماء المعلومة معانيها في الشاهد ويعلم بها ما في الغائب بواسطة العلم بما في الشاهد مع انفارق الميزوفى الغائب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فنحن اذا اخبرنا الله تعالى بالغيب الذى اختص به من الدارين وما فيهما علمنا معنى ذلك الذى اريد منا فهمه وفسرناه واما نفس الحقيقة المخبر عنها التى لم تكن بعد وانما تكون يوم القيامة فذلك من التأويل الذى لا يعلمه الا الله ولذلك لما سئل مالك وغيره من السلف عن تأويل قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) قالوا الاستواء معلوم والكيف مجهول والايان به واجب والسؤال عنه بدعة وبمثل هذا قال ربيعة شيخ مالك الاستواء معلوم والكيف مجهول وعلى الله البيان وعلى الرسول البلاغ وعلينا الايمان ومثل هذا

(١) اشتمال الصماء أن برد الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى وعاتقه الايسر ثم يردّه ثانية من خلفه على يده اليمنى وعاتقه الايمن فيغطيها جميعاً أو الاشتمال بثوب واحد يبدو منه فرجه اه مصححه من القاموس ويظهر أن محل النهي في الحديث عن المعنى الثانى كما يحتمل الاول ايضا على بعد

يوجد كثيرا في كلام السلف في نفى كيفية علم العباد بصفات الله وفي الحديث (لا أحصى ثناء عليك) رواه مسلم ، وفي المسند وصحيح أبي حاتم (واستأثرت به في علم الغيب عندك) فمعاني هذه الأسماء التي استأثرت الله بها لا يعلمها سواه مما يوضح ذلك أن الله وصف القرآن كله بأنه محكم وبأنه متشابه وفي آية أن بعضه محكم وبعضه متشابه فالاحكام الذي يعمله هو الاتفاق وهو تمييز الصدق من الكذب في اخباره والغنى من الرشاد في أوامره والتشابه الذي يعمله ضد الاختلاف المنفى عنه بقوله (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وهو الاختلاف المذكور في قوله (إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك) فالتشابه هنا يماثل الكلام ويناسبه بحيث يصدق بعضه بعضا فالاحكام العام في معنى التشابه العام بخلاف الاحكام الخاص والتشابه الخاص فانهما متناقضان والتشابه الخاص مشابهة الشيء لغيره من وجه ومخالفته من وجه آخر بحيث يشتبه على بعض الناس أنه هو أو هو مثله وليس كذلك . والاحكام الخاص هو الفصل بينهما بحيث لا يشتبه أحدهما بالآخر يعني على من عرف هذا الفصل . وهذا التشابه الخاص إنما يكون بقدر مشترك بين الشيئين مع وجود الفاصل بينهما ثم من الناس من لا يهتدى إلى ذلك الفاصل فيكون مشتبهاً عليه . ومنهم من يهتدى له فيكون محكما في حقه فالتشابه حيثئذ يكون من الامور الاضافية فاذا تمسك النصرا في بقوله (إنا نحن نزلنا الذكر) ونحوه على تعدد الالهة كان المحكم قوله (والهكم آله واحد) ونحو ذلك

مما لا يحتمل إلا معني واحدا يزبل ما هناك من الاشتباه . قلت ترك الشيخ
والإمام وجها رابعا من وجوه التأويل وهو المراد في الآية وذلك هو وجه
الحكمة فيما لا تعرفه العقول مثل خلق أهل النار وعذابهم وترجيحهم على
العفو عنهم مع ترجيحهم للعفو بشرائعه وأوامره لعباده وقد ذكرت كل
طائفة وجها في ذلك معينا واعترضهم الباؤون وقد تقصيت ما قيل في ذلك
وما يرد عليه في العواصم والجواب الجلي أصحابها وأقواها كما اختاره الزمخشري
وغيره من محققى خصوم أهل السنة والدليل على أنه يسمى تأويلا قوله
تعالى في الحكاية عن الخضر (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا)
ثم أخبره بوجه الحكمة في ذلك الذي استنكره موسى ولم يحتمله عقله
فكان التشابه فعلا لا قولاً والتأويل خبراً عن الحكمة عكس ما ذكره في
الوجه الثالث من تأويل الخبر بالفعل . وإنما قلت إن هذا هو المراد في الآية
لأن الله سبحانه قد وصف الذين في قلوبهم زيغ بابتغائهم تأويله وذمهم بذلك وهم
لا يبتغون علم عاقبة القرآن وما يؤول إليه على ما فسرّه الشيخ فهم لا يبتغون
الحنة ولا النار ولا القيامة ولا ذات الرب سبحانه وتعالى وإنما يستقبحون
الظواهر بعقولهم فيتكلفون لها معاني كثيرة يختلفون فيها وكل منهم ينفرد
بمعنى ويأتى بمجرد احتمال والكل من ذلك مما لم يستندوا فيه إلى شيء من السمع وقد
يكون مخالفا للمعلوم من الشرع لأن تلك الآيات ظهرت على عهد رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم وعلم من المسلمين تلقيها بالقبول ولم يخبر صلى الله عليه وآله وسلم
ولا أحد من أصحابه لها بتأويل ولا نبه على ذلك مع ما في المسلمين من البلبه
المحتاجين إلى البيان الذي لا يجوز تأخيرهم عن وقت الحاجة . وقد ثبت أن
(١٠ - ٢) (ترجيح)

عدى بن حاتم ربط خيطين أبيض وأسود فقال له عليه السلام (إنك لعريض القفا) فكيف بغيره ممن هو دونه وكثير من النساء والماليك ونحوهم .
 فينبغي أن أشير الى نكت نافعة من حجج الفريقين * أما القائلون بأن الراسخين يعلمون التأويل فحجتهم أن الله سبحانه لا يخاطب المكلفين بما لا يفهمون ، لان ذلك عبث والله سبحانه يتعالى عن ذلك علوا كبيرا ولا أعلم لهم حجة غيرها . والجواب عن هذه الحجة من وجوه : الوجه الاول أن فائدة كلام الله تعالى لا تنحصر في مجرد فهم معناه المعين على التفصيل والا لزم أن يكون عبثا ولا طريق الى القطع بذلك لمن اعتقده الا أنه طلب وجه فلم يجده وليس عدم الوجدان عند الطلب في علم الطالب يدل على عدم وجود المطلوب في علم الله تعالى اذ من المعلومات الضرورات أن الانسان قد يطلب الشيء المدة الطويلة ولا يجده ثم يجده هو أو يجده غيره . وفي كلام على عليه السلام في وضيته لأحسن عليهما السلام دليل على هذا حيث قال (فإن أشكل عليك شيء من ذلك فاحمله على جهالتك فانك أول ما خلقت جاهلا ثم علمت ، وما أكثر ما تجهل من الامر ويتحير فيه رأيك ثم يضل فيه بصرك ثم تبصره بعد ذلك انتهى) هذا على الاجمال وعلى جهة التفصيل نقول تلخيص ذلك أن كلام الله سبحانه وتعالى منقسم الى قسمين : القسم الاول ما فيه تكليف للعباد وطلب منهم بالامر والنواهي للافعال والتروك فهذا هو الذي يسمى خطابا ويجب أن يكون لهم الى معرفته طريق علمية أو ظنية ويكفى أن يعرف ذلك بعضهم كالمتجهدين بالاجماع وهذا القسم من كلام الله تعالى هو الذي يعلم أنه سمي خطابا للمكلفين . والقسم الثاني من كلام الله ما لم يكن فيه طلب

أمر منهم مثل فوائح السور وماشاكلها فلا دليل على أنه يسمى خطاباً للمكلفين ولأن المقصود منه فهم معناه على التعيين ولذلك اختار الإمام يحيى ابن حمزة في مثل الفوائح جواز جهل الراسخين بمعناها ، وقفت عليه في الحاوى للإمام يحيى عليه السلام ، توضيحها أنه لم يرد في آية قط يأياها الذين آمنوا أَلَمْ ونحو ذلك ولاورد في تضاعيف الكلام المفهوم ولاورد في لسان العرب ولايحسن من الواحد منا أن يخاطب صاحبه بنحو ذلك ويطلب منه فهم ما اضمره فيه والعلة عدم التمكن من معرفة ما اراد بذلك وهي مطردة فينا وفي حق الله تعالى بل هي في حق الله أبعد منه لأن قرأتنا للرؤية قد تنفد الظن بالإشارة ولو امكن في كلام الله تعالى فهم ذلك امكن في حقنا أولى وأحرى ، والمعلوم عدم إمكانه في حقنا وقولهم انه خطاب لنا فيجب ان يكون مفهوم المعنى لنا احتجاج بمجرد الدعوى ونتيجته معلومة البطلان بالوجدان وأولى منه واضح عند أهل الانصاف ان نقول المتشابه غير مفهوم المعنى لنا وهذه ضرورة وجدانية فيجب ان نكون غير مخاطبين به ، بيان المقدمة الضرورية ان فوائح السور متشابهة فلو ادعينا فهم تفسيرها وجب ان يكون اليه طريق لكن لا طريق إليه ، لان الطرق في ذلك منحصرة في العقل والكتاب والسنة الصحيحة والاجماع والقياس واللغة ، ومعلوم انه لا شيء من ذلك يدل على تفسير الفوائح ، سلمنا ان ذلك يسمى خطاباً لنا في اللغة بمجرد ورود في كتابنا فيجب حينئذ ان يكون خطابنا منقسماً الى ما المراد منا فهمه على التفصيل كالحكم وعلى الاجمال كالمشابه ، مثال ذلك ما ثبت في حديث ابن مسعود من قوله صلى الله عليه

وآله وسلم) أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك وأُنزلته في كتابك أو أعامته احداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك) فهذا القسم من الاسماء التي استأثر الله بها في علم الغيب مما يجب الايمان به على الاجمال ولا يمكن فهم معاني تلك الاسماء على التفصيل بالضرورة مع النص على ذكرها في كلام رسولنا الذي تعبدنا بفهم كلامه وخطابه صلى الله عليه وآله وسلم والله سبحانه وتعالى أعلم * (الوجه الثاني) انهم ايماناً يوجبوا ان يعلم تاويله جميع المكلفين المخاطبين وهذا باطل ولا قائل به أو يقولوا انه يكفي ان يعلمه بعضهم وهم الراسخون او بعض الراسخين وعلى هذا فيلزمهم تجوز ان يكون العلم بتاويله من خواص بعض الراسخين من الانبياء والملائكة وافراد من الائمة فان الله سبحانه يختص برحمته من يشاء، ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما يشاء، فاما ان كل خائض في علم العربية والمعاني او جامع لشرائط الاجتهاد فانه يجب ان يعلم جميع تاويل المتشابه فدليلهم على تسليم صحته لا يقتضي هذا * (الوجه الثالث) انهم اما ان يمنعوا الايمان الجملي او يجوزوه فان منعه لزمهم ان يقبح من عوام المسلمين بل من العجم الايمان الجملي بالمتشابه بل بالحكم بل يلزمهم ان لا يصح العلم بذات الله سبحانه وكثير من صفاته لا متناهي تصور العقل لذلك على التفصيل وان جوزوا الايمان الجملي بطل استدلالهم بذلك فهذا ما حضرني لهم وعليهم في هذه الحجة على الانصاف والله عند لسان كل قائل ونيتته (الوجه الرابع) ان المتأولين انما يعينون وجوه التاويل بالظن أو الاحتمال فاما الاحتمال فلا يسمى علماً ألبتة لا حقيقة ولا مجازاً واما الظن فقد يسمى علماً مجازاً ولكنه هنا ممنوع لان العلم المضاف الى الله تعالى في الآية

لا يجوز فيه الا الحقيقة وهو بعينه هو المضاف عند الخصم الى المتاولين بالظن أو الاحتمال ولا يجوز في اللفظة الواحدة ان يراد بها كلا معنييها على الصحيح ولا يقوم على خلاف ذلك دليل من اللغة ألبتة على ان ابا هاشم قال انه محال عقلا ومجرد احتمال ذلك عقلا أولغة ليس بدليل قطعاً (الوجه الخامس) قوله تعالى (سيقول السفهاء من الناس الآية) دليل على ان الذين في قلوبهم زيغ هم المرتابون في المتشابه الذين قبحو اظاهره ولم يكفهم في تحسينه العلم الجلي لحكمة الله تعالى وقوله تعالى (قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء) دليل على اكتفاء الراسخين بالدليل الجلي لانه ليس في هذا الجواب وجه تفصيل في حسن النسخ وقد بسطت هذا المعنى في العواصم فليراجع فيه من مسئلة الارادة (الوجه السادس) ما اخرج الحاكم في كتاب الايمان من المستدرک عن ابن عمر ان قال (لقد عشنا برهة من دهرنا وان احدنا يؤتى الايمان قبل القرآن وتنزل السور على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيتعلم حلالها وحرامها وما ينبغى ان يوقف عنده فيها كما تعلمون انتم القرآن ثم قال لقد رأيت رجلاً لا يقرأ احدهم القرآن فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب الى خاتمة لا يدري ما امره ولا ما ينبغى ان يوقف عنده ينثره نثر الدقل) قال الحاكم صحيح على شرط البخارى ومسلم ولا اعرف له علة والحجة منه فيما ذكر ما يوقف عنده والخصم يدعى قببح الخطاب* وفي النهاية الدقل ردى التمر ويابسه وقال ما ليس له اسم خاص فيراه ليس به وورداً انه لا يجتمع ويكون منشوراً* واما القائلون بان الراسخين لا يعلمون اتاويل فالذى حضرني من ادلتهم اثنان وعشرون دليلاً (الدليل الاول) الفطرة العقلية التي فطر الله الناس عليها وذلك ان الانسان

يعلم احوال نفسه علما وجدانيا ضرورياً اوليا لا يشك فيه فيعلم عافيته والمه وفرحه وغمه وعلمه وجهله وسائر احواله أو أكثرها ويجد فرقا ضروريا بينا لا تمحوه الشبه ولا تعتريه الشكوك ومن ذلك علمنا بعجارات العقول ومواقفها ومالنا الى معرفته طريق دون ما ليس لنا الى معرفته طريق ونجد فرقا ضروريا بين فهم معنى قوله تعالى (إذا قم إلى الصلوة فاغسلوا وجوهكم) وامثالها وبين قوله تعالى: ألم وتلخيص ذلك ان معرفة معنى الم وامثالها ما ان يكون بطريق اول، فان لم يكن بطريق لم يصح اجماعا وإن كان بطريق فاما ان يكون عقليا اولاً لا يجوز ان يكون عقليا وفاقا اذ لا رابطة بين العقل وبين معاني الحروف وان لم يكن عقليا فاما ان يكون سمعيا اولاً لا يجوز ان يكون سمعيا لان السمع هنا ليس الا القرآن والسنة ولم يحتج المقرون لهذه الحروف بهما ولا نقلوا ما قالوه فيها عنهما الا القول بانها اسماء الله او اشارة الى اسماء الله فقد ورد فيه شيء لم يبلغ مرتبة الصحة المتفق عليها وان كان الحاكم قد خرج بعض ذلك ولكن على تسليم صحة ذلك فلا بد من الاجمال ببطان التركيب فيها ولا بد منه في الكلام المفيد باجماع أهل العربية فانك لو قلت زيد. عمرو. بكر. خالد. لكانت اسماء مفهومة في انفسها لكنه لا يكون خطابا مفيدا بل ولا يسمى كلاما عند النحاة

فلم يبق بعد ذلك ما يستند اليه الا اللغة العربية وليس في كتب اللغة شيء من ذلك اصلاً البتة ولا ادعى المخالف وجود دليل صحيح في ذلك من أنواع الأدلة الثلاثة المتقدمة العقلية والشرعية واللغوية والقياس هنا لا يصح

كما لا يصح في كثير من المعروفات كاعداد الركعات فالمجهول أولى لعدم صحته * وأما حديث معقل بن يسار عنه صلى الله عليه وآله وسلم (اعملوا بالقرآن أحلوا حلاله وحرّموا حرامه واقتدوا به ولا تكفروا بشيء منه وما تشابه عليكم فردوه إلى الله وإلى أولى العلم من بعدى وليسعكم القرآن وما فيه من البيان) قال في سلاح المؤمن رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد والجواب عنه من وجوه (الأول) عدم الصحة بمجرد تقليده حتى يبحث عنه (الثاني) أنه معارض بحديث جندب عنه صلى الله عليه وآله وسلم (فاذا اختلفتم فيه فقوموا عنه) رواه البخاري ومسلم والنسائي وفي حديث عمرو (ما لم تعرفوه فكلوه إلى عالمه) رواه الحاكم ابن المدائني وأحمد واللفظه (الثالث) أنه في خطاب العامة لردّه لهم إلى أهل العلم، والمحكم عند العلماء قد يتشابه على العامة ورجوعهم حينئذ إجماع. وقد ثبت أن التشابه أمر نسبي ولذا جاء في حديث المتشابهات أنه لا يعلمها كثير من الناس. فاما ما تشابه على أولى العلم بل على الراسخين فلا يرد إليهم بل إلى الله وحده، يوضحه حديث جندب وحديث عمر كما تقدم في الوجه الثاني (الرابع) أنه قد دل على هذا لأنه قسم الرد إلى الله وإليهم فثبت أن الردود إلى الله ما لم يعلموه لأنه لا معنى لرد متشابه القرآن إلى الله ولا الإيمان الجملي فان الرد المعتاد إلى الله هو الرد إلى كتابه فاما رد كتابه إليه فلا يكون إلا الوقف والإيمان الجملي. ولذلك أمر فيه بالاستفتاء ببيان النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وأما دعوى قرينة مطلقة تدل على تأويل الحروف المقطعة ليست من قبيل شيء من الأدلة فإنه ممنوع مثل تفسير الباطنية لأنه مثل

دعوى دليل مطلق ليس هو عقلى ولا سمعى ولا لغوى وهذا يرجع الى تجويز وجود الجنس مع عدم جميع أنواعه مثل حيوان ليس بناطق ولا اعجمى ولا ارضى ولا بحرى ولا سمائى وذلك محال عند الجميع ولو قبل مثل ذلك قبل قول ابن عربى الطائى صاحب كتاب القصص من أن الحروف أمة من الامم مبعوث اليها رسول منها لدليل جملى ويمتنع صحة الدليل الجملى مع امتناع التعيين كما يمتنع اثبات الجنس مع امتناع الانواع كلها وهو المسمى بالوجود المرسل وهو أحد المحالات والمنصف يحد من نفسه الجهل بمعنى هذه الحروف الذى أراده الله على التعيين وفقد الطرق المفيدة لذلك، وأنت إذا تأملت كلام الزمخشري وغيره فى تفسير الفواتح وعرضته على الادلة المعينة وطلبت تعيين مستنده من العقل أو من القرآن أو من الحديث أو من الاجماع اتضح لك أن كل واحد منها يرى منه من كان عنده فى ذلك طريق صحيح فليمن بها مأجورا فإن طبع جميع المكلفين مجبول على محبة العلم وكرهة الجهل ولا رغبة لنا فى جهل شئء والمنة لمن دل على معرفة وأخرج من جهالة ﴿ الدليل الثانى ﴾ أن المتأول بتأويل معين اما أن يقطع على أن تأويله ذلك هو مراد الله تعالى ويقطع ببطلان كل تأويل سواه فهذا الاقائل به ولو قال به أحدا ما ساعده الدليل لانه من قبيل الاستدلال بعدم الوجدان فى نفس الطالب على عدم وجود المطلوب فى علم الله تعالى وقدمر إبطاله، يوضحه أن المتأول قد يتأول الآية على وجه ثم يتفطن بعد ذلك لما هو أقوى عنده . واما أن لا يقطع المتأول بصحة تأويله وبطلان ما عداه فاما أن يكون تجويزا مستوى الطرفين أو ظنا راجحا أما التجويز

فليس من العلم في شيء وهو محض الجهل اذ لا معنى للجهل الا احتمال أحد النقيضين من غير ترجيح أو نحوه فاعتقاد أنه علم ولا سيما في تفسير كلام الله تعالى والاطلاع على مراده غاية الغرور وأما إن كان ظنا راجحا فلا ثمرة له في غير العمليات . ثم لا يخلو الاعتماد عليه والخبر عن مراد الله به من كراهة أو تحريم اعموم النواهي عن اتباع الظن وعموم قوله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) وما سياتي ذكره من الاحاديث الواردة في تحريم التفسير بالرأي فهذان الوجهان عقليان ثم إنه يلزم من قولهم دعوى التعبد بذلك وتصويب الجمع وفي أقوال المفسرين ما لا يصح جمعه لتناقضه كالقول بأن الم الآلاف اسم الله واللام جبريل والميم محمد . والقول بانها كلها أسماء الله ، وأيضاً لو ثبت انها كلها أسماء عاد الاشكال بنفسه لعدم ثبوت النسبة الخبرية فيها فانا مع معرفتنا لاسمائنا لا نستفيد بذكرها مجردة عن التركيب الموجب للاعراب والمعاني ويلزمهم على التصويب القطع بتصويب النقيضين كتسمية الله تعالى بتلك الحروف وتصويب من قال ليست أسماء الله تعالى فليزيدوا القطع بتصويب من توقف فانه أولى وأحرى والله أعلم (الوجه الثالث) ما روى عن ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قال (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار) وفي رواية أخرى (من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار) رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن ورواه الذهبي في الميزان في ترجمة أبي سهل الهيثم بن جميل أحد شيوخ أحمد بن حنبل والذهبي قال الذهبي أبو الوليد بن برد حدثنا الهيثم بن جميل حدثنا أبو عوانه عن عبد الأعلى عن

سعيد بن جبیر عن ابن عباس رضی اللہ عنہما قال قال رسول اللہ صلی اللہ علیہ وآلہ وسلم (من قال فی القرآن بغير علم فلیتبوأ مقعده من النار) اور دہ فیما انکر من حدیث الھیثم وقال بعدہ قال الدار قطنی ثقة حافظ وقال العجلی ثقة صاحب سنة وقال احمد بن حنبل ثقة وقال ابن عدی لیس بالحافظ یغلط علی الثقات وارجوانہ لا یتعمد ، وعن جندب ان رسول اللہ صلی اللہ علیہ وآلہ وسلم قال (من قال فی کتاب اللہ برأیہ فأصاب فقدأ خطاً) رواہ الترمذی وابو داود وقال الترمذی هذا حدیث غریب ، واما تصریح بعض الصحابة بالتفسیر بالرأی وعدم انکار الجماعة علیہ کقول ابی بکر فی الکلالۃ اقول فیہا برأی فذلک فی العملیات ولا نزاع فیہا ولو سلم اجماع فی غیر العملیات فظنی سکونی لا ینفع فی الفروع ولا یقدح بمثلہ من یعرف معنایہ والحديثان اقوی من مثل ذلک ولا ینہض معارض لہما البتۃ الا التفسیر بالنقل الصحیح من الحدیث واللغة فالظاهر الاجماع علی جوازہ وان کان ظنیاً ویبقى التفسیر بالرأی المحض المنصوص فی الحدیث بتصریمہ مع ظواہر القرآن وشہرة الخلاف فیہ واللہ اعلم (الوجه الرابع) مارواه السيد الامام الناطق بالحق ابو طالب فی امالیہ من قول امیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیہ السلام وهو صریح فی هذا المعنی لا یمکن تاویلہ قال السيد أخبرنا أبی رحمہ اللہ تعالی قال أخبرنا ابو محمد ابن عبد اللہ بن احمد بن عبد اللہ بن سلام قال أخبرنا ابی قال حدثنا سلیمان قال حدثنا علی بن الخطاب الخثعمی قال حدثنا احمد بن محمد الانصاری عن بشیر عن زید بن اسلم عن علی علیہ السلام انه قال فی صفة الراسخين فی العلم لمن سألہ ان یصف لہ اللہ عز وجل فی آخر کلامہ علیہ السلام ما لفظہ (اعلم ایہا السائل ان

الراسخين في العلم هم الذين اعيامهم عن اقتحام السدود المضروبة دون الغيوب، الاقرار بحمل ما جهلوا تفسيره من تفسير الغيب المحجوب، فقالوا آمنا به كل من عند ربنا فدح الله سبحانه وتعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما وسمى تركهم التعمق فيما لا يكلفهم البحث عنه منهم رسوخا فاقصر على ذلك انتهى رواه السيد ابوطالب ولم يتعقب عليه بتاويل كما هي عادة فيما يخالف مذاهب اهل البيت عليهم السلام وهو من أنفس ما ورد في هذا الباب واحسنه لصدوره عن امام الراسخين في العلم والمختصين من الله تعالى بزيادة في الفهم، قال زيد بن علي عليه السلام في كتاب المجاز من رواية ابي عبد الله جعفر بن محمد بن هرون المقرئ ما لفظه : والقرآن على أربعة أوجه حلال، وحرام لا يتبع الناس جهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وعربية يعرفها العرب، وتأويله لا يعلمه الا الله تعالى وقال في مواضع أخرى والمتشابهات يشبهه علم تأويلها على اكثر العباد ويلتبس من قبلها اهل الزرع ويقول الراسخون في العلم آمنا به بما علمنا وما لم يعلم تأويله لنا فعله عند ربنا وقال القاسم بن ابراهيم في كتابه الناسخ والمنسوخ وفي ما نزل الله يابني من وحيه، بعد الذي بقي فيه من امره ونهيه متشابه باطن خفي لا يبين منه شيء لنا جعله الله متشابهها وليس يعلمه احد غير الله وهذا نص جلي على المراد والله الحمد وقال الهادي الى الحق عليه السلام في جواب اسماعيل بن اسحق بن ابراهيم عن المسائل التي سألها عنها بنجران ما لفظه : حم عيسق حروف تولى الله علمها لم يبينها لاحد من خلقه اذ ليس فيها امر ونهي ولا فرض ولا امر تعبد به عباده فيحتاجون الى علمه ومعرفة وقال المرتضى بن الهادي عليه السلام في جواب المسائل التي سئل عنها واما متشابه

الآيات من الكتاب فلا يكون ابدا الامتسابها كما جعله رب الارباب فليس
يحيط غيره بعلمه ولا يكلف احد العلم به ولا بما يكلف العلم بانه من عند ربه كما قال
سبحانه وتعالى (والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) انتهى
ما ذكره ائمتنا بحر وفه وامام من ذهب الى غير هذا المذهب من الزيدية فاعراضهم
عن كتب ائمتهم الموجودة بين اظهريهم واقبالهم على كتب غيرهم فالله المستعان
(الوجه الخامس) ان موسى عليه السلام جهل ما علمه الخضر عليه السلام من
تاويل فعله هذا وهما معا بشر متقاربان في العلم متماثلان في الجسم فكيف مع
هذا يجب ان تكون معرفة تاويل افعال الله تعالى ممكنة لجميع المكلفين
وتاويل كلامه مقدورا لجميع المجتهدين مع ان التاويل هو معرفة وجود
الحكمة في التشابه على ماسياتي بيانه ووجوه حكمة الله تعالى مادتها من محيط
علمه وتامات كلماته التي نص الله سبحانه في كتابه على ان البحر لو يمدده
سبعة ابحر لم يكفها مدادا ولم يحصها نقادا (الوجه السادس) ان الملائكة
عليهم السلام ما عرفوا حكمة الله تعالى على التعيين في خلق المفسدين
في الارض ولذلك سالوا ربهم جل جلاله عن ذلك فلم يخبرهم به على التعيين
وردهم الى الجملة التي كانوا لها معتقدين وبها مكتفين قال سبحانه (اني اعلم
ما لا تعلمون) فاعترفوا بما قرره عليهم من قصور علمهم وقالوا لا علم لنا
الاما علمتنا (الوجه السابع) ان في هذه الآية بيانا شافيا وتعليلا كافيا
ولذلك أنزلها الله تعالى فرقانا بينا بين المحكمات والمتشابهات واما
المحكمات اللواتي هن للكتاب امهات فمن تناولها وجعها من التشابه فما

قدرها حق قدرها ، ولا قام بواجب شكرها ، ومن أجازها من جوز التأويل
بغير دليل عرف أن الله تعالى قد وصف فيها الذين في قلوبهم الزيف بصفتين
ووسمهم بسمتين احدهما ابتغاء الفتنة وثانيهما ابتغاء التأويل فثبت تحريمهما
فكيف نجعل التأويل الذي دلت الآية على تحريمه واجبا والمتاويل الذي
دلت الآية على ذمه ممدوحا يؤيد ذلك (الوجه الثامن) ومن ذلك انه سبحانه
لما ذم من ابتغى التأويل علل ذلك بعلة واضحة وذلك قرله تعالى (وما يعلم
تأويله الا الله) وذلك لأن طلب العلم لما كان مأمورا به وقد قال تعالى « وقل
رب زدني علما » وكان ذمه سبحانه لمن ابتغى التأويل كالمخالف بذلك بين ان
العلة في ذم طالب هذا العلم كونه مما لا يعلمه الا الله وطالب ما لا يدركه
غير محمود ثم بين سبحانه حال الراسخين في العلم في هذا المقام وان حالهم
فيه حال التسليم والايمان والخضوع والاذعان فلو كان التأويل من علوم
الراسخين لما ذم من ابتغاه في آية من الفرقان بين الحكم والمتشابه من القرآن
وفيما وصف به الراسخين من العجز عن ذلك تسلية لاهل الحرص على
طلب العلوم ولذلك لم يجب الملائكة الى بيان ما سألوه من هذا الجنس
وسد الباب وحسم المادة ويؤيد ذلك أن السابق الى الفهم ان الراسخين مبتدا
وخبره يقولون آمنا به والقول بان آخر الكلام قوله والراسخون في العلم
وأن قوله يقولون آمنا به كلام مستأنف موضح لحالهم أي هم يقولون أو هؤلاء
يقولون أو قائلين على الحال مستلزم ضمرا أو تجوزا أو مخالفة لظاهر وذلك
لا يصح لغير موجب ويقوى ذلك ان قولهم كل من عند ربنا مشعر بعجزهم عن
ادراك تأويل المتشابه مشير اليه من حيث انه كالتعليل للإيمان بالمتشابه وان
الوجه فيه هو كونه من عند الله ليس الا وهذا منهم كالتمثيل له بالحكم والقياس

عليه بالعلة المعلومة ردعاً لساوس الصدور ونوازع الخواطر اذا حدثت وقالت كيف الايمان بما لا يعقل ولا يفهم بل لمن يقول بذلك من المبتدعة وغيرهم ولو كان علمهم بتأويله حاصلًا لعلمهم بتأويل المحكم لم تقع هذه الجملة هذا الموقع من البلاغة وكذا قصر علم التأويل وتعظيمه بذلك القصر المصدر بحرف النفي يعلم أن تأويل المتشابه لا يقع كل الموقع الامتي كان مقصوراً على الله وحده مثل قصر التوحيد عليه اما اذا كان لله تعالى شركاء في علم تأويل المتشابه لا ينحسرون في كثرتهم في انفسهم وتعليمه منهم ممكن لكل عاقل من خلق الله أجمعين فان الحصر لذلك بهذه الصيغة لا يقع موقعه البليغ ويكون نظيره التوحيد في النبوة للانبياء بل التوحيد في الايمان للمؤمنين لان الراسخين اضعاف اضعاف الانبياء عليهم السلام بما لا ينحصر فكما لم يرد القرآن بأنه لا اله الا الله ولا نبي الا من أوحى اليه الله أو نحو ذلك لكثرة الانبياء وعدم فائدة صيغة القصر أو عدم بلاغتها وفصاحتها حينئذ فكذلك هذا وذلك أن علماء المعاني والبيان نصوا على أن قصر الصفة على الموصوف لا يخاطب به الا من يعتقد الشركة ولذلك سمي قصر افراد لقطع الشركة وليس في الوجود مخاطب يعتقد أن العوام المعنى يشاركون الله والراسخين في علم تأويل المتشابه حتى يرد اعتقاده بهذا القصر وانما الموجود من يعتقد أن الراسخين يشاركون الله تعالى في ذلك فحسن قصره على الله لقطع اعتقاد من جعل لله فيه شركاء فافهم ذلك وتأمله فانه جيد (الوجه التاسع) أن أما للتفصيل ويلزم منه ذكر قسم ما بعده على المختار كما يظهر عند ذكر الكلام في الأدلة وهو قول من اقوال أهل العلم واختاره الامام

يحيى بن حمزة عليه السلام في تفسير هذه الآية الكريمة ذكره في كتاب
الحاوى في أوائل المجلد الثانى فى الفصل الثالث فى المحكم والمتشابه وحكا
نجم الدين فى شرحه لمقدمة ابن الحاجب كما يقول أما زيد فعالم وأما عمرو
فجاهل ولا يحسن أن يقول أما زيد فعالم ويسكت على ذلك ولا يذكر
له قسما مخالفا لانه يعنى عن ذلك أن تقول زيد عالم وعلى هذا آيات القرآن
العظيم كما قال تعالى (أما من ظلم فسوف نعذبه) الآية فى الكهف إلى قوله
تعالى (وأما من آمن) وقال تعالى (فأما اليتيم فلا تقهر) وأما السائل فلا تنهر
وأما بنعمة ربك فحدث) وقال تعالى (فأما ان كان من المقربين) الآية وقال تعالى
(فأما إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه) كلها بذكر قسم ما بعد ما وقد تحذف
أما ويذكر قسم ما بعدها نحو قولك أما زيد فعالم وعمرو جاهل
بدلا من قولك وأما عمرو وجاهل والدليل عليه الآية الكريمة (فأما الذين
فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه الى قوله والراسخون فى العلم) بدلا
من قوله وأما الراسخون كما هو قول الامام يحيى عليه السلام وقد ذهب
الى ذلك غيره فيما حكاه نجم الدين واختار أنه محتمل يعنى
بذلك مع احتمال أن يكون قسم ما بعدها محذوفا لجواب أنه لا يصح
ذلك الا بعد تقرر جواز حذفه بدليل غير الآية أما حين لم يكن معهم
دليل غير الآية فانه لا يصح لهم ذلك لما فى الآية من الاحتمال لحذف
أما من أول قسم ما بعدها لا حذف القسم وحذفها معا وقد ثبت جواز
حذف اما مع اثبات قسميها مع القرينة الدالة على ذلك بغير الآية الكريمة
وأما حذف القسم فلم يصح قط الا مجرد دعوى فى هذه الآية وذلك

مجرد احتمال لم يثبت له رجحان ألبتة فلا يكون له دليل * يوضحه أن عدم التفصيل بعد أما لا يخلو أما أن لا يصح وقوعه أو يصح نادراً أو يصح كثيراً ، ان لم يصح فالقول قول من أوجب التفصيل بعدها لان النجاة قد نصوا على أنها للتفصيل في لغة العرب وذلك يستلزم ذكر المتعددات بعدها واقامها أمران متغايران وان صح نادراً فقواعد البصرية من النجاة وجوب تأويل ماسد عن الاصل بما يلائم الاصل كتأويلنا في هذه الآية لقوله تعالى (والراسخون في العلم) بأن المراد وأما الراسخون لان الاصل الغالب في أما ذكر متعدد بعدها لكيلا تبطل قوانين العربية وتختل قواعدها وإن صح عدم التفصيل بعد اما كثيراً انتقص كونها للتفصيل وتمحضت للشرطية وكان حرف شرط صرفا يقوم مقامها لان التفصيل يوجد معها تارة ويعدم أخرى ويوجد مع عدمها أيضاً كقول المدثر، لكن قد ثبت أنها للتفصيل فيثبت انها لم ترد لغيره كثيراً قطعاً ولا يثبت أنها وردت لغير التفصيل نادراً بدليل ظني غير محتمل وأنا أورد كلام نجم الدين فيها لينظر فيه بانصاف (فاقول قال نجم الدين) في كلامه على أما التي للتفصيل اعلم : أن أما موضوعة لمعنيين لتفصيل بحمل أولاً ستلزم شيء لشيء ومن ثمة قيل إن فيها معنى الشرط والمعنى الثاني لازم لها في جميع مواضع استعمالها بخلاف معنى التفصيل فانها قد تجرد عنه وقد التزم بعضهم هذا المعنى فيها أيضاً في جميع مواقعها فالتزم ذكر المتعدد بعدها وحمل قوله تعالى والراسخون في العلم بعد أما الذين في قلوبهم زيغ على

معنى وأما الراسخون وهذا وإن كان محتملا في هذا المقام إلا أن جواز السكوت على مثل أما زيد فقائم يدفع دعوى التزام التفصيل فيها انتهى والجواب أن ظاهر كلامه أنه لم يوجد غير الآية حجة الا ما ادعاه من حسن السكوت على مثل أما زيد فقائم فاما الآية فقد بطل الاحتجاج بها مع اعترافه باحتمالها للتفصيل. واما حسن السكوت من غير تفصيل فالجواب أن أما قد يكون معها ما يقوم مقام التفصيل من القرائن التي تقتضيه وإن لم ينطق به وأما بالنظر الى معنى الملازمة فمسلم ولا يضر تسليمه كما لو رأيت رجلا جاهلا فقلت له توبيخا أو تخصيصا أما زيد فعالم والتقدير وأما انت لجاهل ومن ذلك قوله تعالى (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما) فتخصيص الذين آمنوا بالذكر هنا مع دخول أما وإشعارها بالتقسيم قرينة دالة على أن المراد وأما الذين كفروا فليس لهم ذلك أو فلهم عذاب أليم أو نحو ذلك وهذا المثال نص عليه وعلى ما ذكرته فيه ابن هشام أحد كبار النحاة في كتابه مغني اللبيب وقد اعترف الزمخشري في كشفه في تفسير قوله تعالى في آخر سورة النساء (فسيحشرهم اليه جميعا) أن ذكر أحد القسمين في قوله تعالى (فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به) يستلزم تقدير القسم الآخر في المعنى فكيف لا يستلزم ذلك في قوله (فاما الذين في قلوبهم زيغ) مع انها أولى لان القسم فيها مذكور وهم الراسخون في العلم لكن حذف وأما من صدره لوضوح القرينة فاذا وجب عنده

تقدير أما وما بعدها مع حذفهما معا لدلالة القرينة على ذلك فكيف لا تقدر أما وحدها إذا حذفت في صدر القسم الذي بعدها بل كيف لا يجوز ذلك وما أوجهه في بعض الآي حرمه في بعض ، فظهر أن ظاهر الآية عليهم لولا ما ادعوه من أنها من المشابه وقد أوضحت أنها من المحكمات وأن الوجه الذي احتجوا به لا يتهاسك ضعفا والله الحمد والمثنة * وإما إن ادعى حسن السكوت مطلقا بالنظر الى معني التفصيل الموضوع له فمنوع لانه نفس المتنازع فيه الذي يخالفه فيه من قد ذكر خلافه وهو الذي ادعى حسن السكوت عليه ، أما أن يكون له عليه دليل أورده فلا ولو كان لا ورده لكنهم ما وجدوا غير الآية وإذا كان اصل اما للتفصيل وفاقا لم يصح دليل على خلاف الاصل لان المدعى له مستغن عن إقامة الحجة لبقائه على الاصل ووجبت الحجة على من ادعى خلاف الاصل * على أن من ادعى حسن السكوت على ذلك ادعى أنها تكون للتوكيد واخرجها من بابها ذكره ابن هشام ولم أعرف عليه دليلا وعلى تقدير صحته فلا يجوز الا في كلام مبتدأ لم تتقدمه جملة يكون تفصيلا لها كقولك أما زيد فعالم مبتدئا بذلك اما إذا قدمت جملة ثم عطفت عليها بالفاء قبل أما المستلزمين في العادة للتفصيل فلا بد من تقديره كما تقول وفد الناس على الخليفة فاما الفضلاء فاعلمهم وتسكت أو تقول والاراذل اهانهم بحذف اما من صدر التقسيم فمن التعسف ، والتعسف الفاحش تقدير قسم آخر غير قولنا والاراذل اهانهم كما زعم بعض المتأخرين في قسم (فاما الذين في قلوبهم زيغ) انه محذوف مقدر وليس هو قوله تعالى (والراسخون في العلم) مع إقرار

ونسبة الغفل الى الجحاد قرينة على انه مؤل او محبته فيه فلا يكون كذبا لا سيما
 فيه قول بالي قف على بل فله ولا متداء بقول كبيرهم هذا كما سيحج ان شاء الله تعالى
 قريباً لا انه لما كان شانه عالياً عن الكناية بالحق فيقع ذلك من قعر الكذب
 عن غير الانبياء اولاً فلما كانت صورته صوره الكذب سميت كذبات
 حاصل الكلام ان كان المراد بالكذبات المذكورة في الاخبار الكذب حقيقة
 فلا نسلم صحت الاخبار لان الانبياء معصومون عنه وان كان المراد بها
 الكذب صوره لا حقيقة فلا يفيو مطلبنا كما قال القسطلاني في رد كلام
 الامام من قوله واما قول الامام فخر الدين لا ينبغي ان ينقل هذا الحديث
 لان فيه نسبة الكذب الى ابراهيم وقول بعضهم فكيف يكذب لراوى العدل
 وجواب الامام له بانه لما وقع التعارض بين نسبة الكذب الى الراوى
 ونسبة الكذب الى التليل كان من المعلوم بالضرورة ان نسبته الى الراوى
 اولى فليس بشئ اذ الحديث صحيح ثابت وليس فيه نسبة محض الكذب
 الى التليل وكيف السبيل الى تحطية الراوى مع قوله اني سقيم وبل فله
 كبيرهم هذا وعن سارة اخيه اذ طاهر هذه الثلاثة بل هو ريب خبير
 ليس بشئ لان الامام لم ينكر عن صحت الاخبار مطلقاً بل على تقدير

يضعفه أيضا وهذه فى معنى قراءة أبي وابن عباس رضى الله عنهما فهؤلاء ثلاثة من أكابر الصحابة ما كانوا ليفتروا فى كتاب الله عز وجل ومن عادة الزمخشري التقوى بالقراءات العربية على المعانى فكيف بالمشهورة المصححة والحمد لله كثيرا

(الوجه الحادى عشر) الوقف على الله وقدم كلام على عليه السلام فى ذلك وهو امام الراسخين وهو معروف عن القراء مشهور بينهم وقد نقله ابن تيمية عن جمهور الامة وعن أقرأ الصحابة أبي بن كعب وعن ابن عباس المسمى فيهم بالخبر وبالبحر المجابة فيه الدعوة النبوية فى تعليم التأويل وهو التفسير كما ذكره ابن تيمية فيما تقدم وعن ابن مسعود: المجاز من الشيطان الذين رضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمرته ما رضى لهم وعن غيرهم وقد وافق الزمخشري على نقله قراءة عن أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود فيكفى فى وجوب العمل وصحة الترجيع نقل واحد منهما

(الوجه الثانى عشر) ان مثل فواتح السور لو كانت معروفة لاهل العلم لجاز ان تنزل سورة كبيرة ليس فيها الا حروف مقطعة مسرودة يكلف العلماء معرفة المراد منها وتفصيل مدلولاتها من وعد ووعد وأوامر ونواهي بل كان يلزم تجويز أن يكون القرآن كله كذلك وكذلك كتب الله الى جميع الرسل كلها لانه لا قبح فى ذلك الا عدم معرفة معناه وهم ادعوا معرفة معناه فاذا كانوا يدعون معرفة مراد الله تعالى بالحرف المقطوع والحرفين والثلاثة والاربعة الى العشرة وزيادة عليها جاز فى أكثر من ذلك ولا حاصر ولا حاجر

(الوجه الثالث عشر) انه كان يلزم أن يفهم مثل هذا عن غير الله تعالى فيخاطب العقلاء بذلك ولا ينكر على من دخل على قوم أن يكون أول كلامه لهم كذلك والله أعلم

(الوجه الرابع عشر) أنه يلزمهم ان يحسن من العلماء أن يصنفوا في الحلال والحرام ويعبروا بالحروف المقطعة لانه يمكن فهم المراد منها (الوجه الخامس عشر) انه لم يرد شيء من ذلك قط بعد الخطاب فلم يرد يا أيها الذين آمنوا كما ورد يا أيها الذين آمنوا أقيموا الصلاة فدل على انها كلام لا خطاب

(الوجه السادس عشر) وهو ما يبطل دعواهم لذلك بحجة واضحة يعبر عنها بحروف مقطعة من جنس ما فهموه عن الله تعالى فان فهموا عنا مرادنا فيها سلنا لهم وان لم يفهموا ووضح الحق فنقول في احتجاجنا عليهم الم وكيعص

(الوجه السابع عشر) ان ترك تفسير المتشابهة أحوط لان الانسان يسأل عما قال مطلقا خصوصا في تفسير كتاب الله تعالى مع ما ورد فيه من التشديد كما تقدم ولا يسأل عن قوله لا أعلم فيما لا يعلم والوقف عند الشبهات من صفات المتقين بل من صفات العقلاء أجمعين وقد قيل اذا ترك العالم لأدري أصيب مقاتله وتقدم قول على عليه السلام بابردها على الكبد : قولك فيما لا تعلم الله أعلم

(الوجه الثامن عشر) أن تأويل المتشابهة من التكلف وقد قال عمر في الاب ما قال كما هو في الكشف وغيره ولم ينكر على عمر أحد فكيف بالمتشابهة وقد قال الله تعالى في صفة نبيه صلى الله عليه وسلم (وما أنا من

المتكلفين) وقال النبي صلى الله عليه وسلم وآله وسلم (هلك المتنطعون)
وهم المبالغون في الأمور

(الوجه التاسع عشر) ان التكليف بمعرفة المتشابه على التفصيل من
الخرج وقد نفى الله الخرج عن الدين

(الوجه الموفى العشرين) انه لم يؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم انه اشتغل بتعليم ذلك وقد قال الله تعالى (لقد كان لكم في رسول الله
أسوة حسنة) وكذلك الصحابة لم يبحثوا عن ذلك وهم خير أمة
أخرجت للناس

(الوجه الحادى والعشرون) انا لو عرفنا معانى تلك الحروف كما
ادعى بعض المفسرين انها اسماء للسور أو اشارة الى اسماء الله تعالى
لكانت مع ذلك جملة لحذف التركيب منها فانك اذا نطقت باسماء
معروفة من غير التركيب لم تفد كما لو سردت نحو زيد . خالد . بكر .
محمد . عبدالله والله أعلم

(الوجه الثانى والعشرون) ان الراسخين فى العلم أرفع درجة من العلماء
غير الراسخين ولو تحقق أحد انه من العلماء على قلتهم لم يتحقق انه من
الراسخين وإذا سلمنا أن الراسخين هم الذين فسروها لا الذين توقفوا
في معانيها فان المفسرين لها اختلفوا اخلافا شديدا ومع اختلافهم وقع
الاشتباه على غيرهم خصوصا حيث يتعذر الجمع ولم يرد التعبد بالتقليد
في غير العمليات بل ورد النهى عنه وذم من عمل بغير علم وقال الله تعالى
(ولا تقف ما ليس لك به علم) وقال تعالى (وان تقولوا على الله مالا تعلمون)
فيكون الاحوط في غير الراسخين مع تقدير اختلافهم ترك الخوض

في ذلك سواء قدرنا أن الراسخين معطوفون على الله تعالى أو لا، وأقل من هذا يكفي المنصف، وأكثر منه لا يكفي المتعسف وهذا منتهى ما حضرنى من الكلام فى هذه الآية الكريمة من غير تطويل بذكر الاسئلة والمناقضات والمعارضات * فاذا تقرر هذا فاعلم ان المتشابه يطلق على معنيين لغوى وشرعى: أما اللغوى فهو ما لا يمكن فهم المراد منه وهو المسمى بالجملى فى أصول الفقه، وقد يكون فى مفرد بالاضافة كالقرء للطهر والحيض، والمختار اسم فاعل واسم مفعول، وفى مركب مثل (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) وقد استوعبت الاصوليون اقسامه وجوده المحققون منهم الكلام فيه وليس مما نحن فيه

(القسم الثانى من المتشابه الشرعى) وهو ما لا تتضح فى العقل حكمته أو صحته أو معناه كالخروف فى أوائل السور فهذا نوعان:

(النوع الاول) ما لم تتضح فى العقل الحكمة فيه فى مثل خلق من المعلوم انه لا يؤمن وهو أدق المتشابه ولذلك سألت عنه الملائكة وما حصلوا فى هذه المسألة الاعلى العلم الجملى وكثرة المتشابه فى هذا النوع هو سبب الاضطراب العظيم فى مسألة التحسين والتقييح وتفرع عنها الكلام فى أفعال العباد وأجمع الكل من الشيعة والمعتزلة وطوائف الاشعرية الأربعة على أن العبد فاعل مختار وهذا غريب لا يكاد يصدق الواقف عليه ويبادر الى تكذيب راويه حتى يبحث البحث التام فى أخذ تحقيق المذاهب من كلام محققى أئمتهم وحوافل مصنفاتهم ومع غرابته قد نص عليه السيد صاحب شرح الاصول فى أوائل الفصل الثانى فى العدل فى الكلام على التحسين والتقييح وقال فيه ما لفظه وبعد فلا

خلاف بيننا وبينكم في ان هذه التصرفات محتاجة إلينا ومتعلقة بنا وانا مختارون فيها وانما الخلاف في جهة التعلق أكسب أم حدوث هذا انصه بحروفه ،وقد جمعت هذه المسئلة ولخصتها في سنين عديدة وجمعت فيها مصنفاً مفرداً وبان لي انه لا يوجد جبري محقق إلا ان تكون فرقة شاذة كالمطرفية والحسينية من الزيدية ونادراً كالرازي وحده في احد قوله وقد رجع عنه في نهاية العقول وفي وصيته التي مات عليها أو عامي لا يدري كالمشبه من عوام الزيدية والمعتزلة وبهذا تظهر قوة مذهب اهل البيت واتباعهم * وانما الكلام في كفر من صح عنه محض الجبر مع اجماع الكل على تضليله بل في الاشعرية من يكفر الجبرية ومن هذا النوع يجب الايمان بالقدر خيره وشره مع التنزه عن الجبر ونفى الاختيار وكذلك الايمان بقدرة الله تعالى على هداية الخلق اجمعين لو شاء ذلك كما صرح به القرآن في غير آية اختيارا منهم وقهرا لهم مع اعتقاد ان الله لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر وانه يكره المعاصي قال الله تعالى (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) ولتحقيق الكلام فيه موضع غير هذا ومن مظانه العواصم فقد أوضحت فيه نصوص القرآن والسنة ونصوص قدماء العترة وكثير من متأخريهم وحجة المعقول على ذلك

(النوع الثاني) من المتشابه ما لم تتضح في العقل صحته ولا أمكنه تصويره وهو قسمان . القسم الاول ما يتعلق بذات الله وصفاته وهو من مجارات العقول وليس فيه أنجي من اتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وترك التخيل لتشبيهه الرب جل جلاله بشيء من المحسوس والموهوم

والمعقول وقد أوضح نهج السلامة فيه امير المؤمنين على بن ابي طالب عليه السلام فروى أبو طالب عليه السلام باسناده المتقدم في تفسير الراشدين ان رجلا سأل امير المؤمنين عليا عليه السلام في مسجد الكوفة فقال له يا امير المؤمنين هل تصف لنا ربنا فزاد له حبا وبه معرفة فغضب على عليه السلام ونادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس حتى غص المسجد باهله ثم صعد المنبر وهو مغضب متغير اللون فحمد الله واثني عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم سرد خطبته عليهم الى قوله يا ايها السائل اعقل ما سألتني عنه ولا تسألن احدا عنه بعدى فاني أ كفيك مؤنة الطلب وشدة التعمق في المذهب فكيف يوصف الذي سألتني عنه وهو الذي عجزت الملائكة مع قربهم من كرسى كرامته وطول ولهم اليه وتعظيم حلال عزته وقربهم من غيب ملكوت قدرته ان يعلموا من علمهم الا ما علمهم وهم من ملكوت القدس بحيث هم ومن معرفته على ما فطرهم عليه فقالوا (سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم) فعليك أيها السائل بما دل عليه القرآن من صفته وتقدمك فيه الرسل بينك وبين معرفته فأنتم به واستضىء بنور هدايته فانما هي نعمة وحكمة أوتيتها فخذما أوتيت وكن من الشاكرين وما كلفك الشيطان عليه مما ليس عليك في الكتاب فرضه ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا عن أئمة الهدى أثره فكل عليه الى الله تعالى فانه منتهى حق الله تعالى عليك وقال على عليه السلام في وصيته لولده الحسن عليه السلام وهي خير وصية من خير موص الى خير موصى اليه، ودع القول فيما لا تعرف والنظر فيما لم تكلف وأمسك عن طريق اذا خفت ضلالتك فان

الوقوف عند حيرة الطريق يكون خيرا من ركوب الأهوال فقد أوصى عليه السلام بالرجوع الى القرآن وقد دل على ذلك ما لا يحصى من برهان وقد مدح الله تعالى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأخبرنا ان في كتابه آيات محكمات ومتشابهات فنظرنا الى ما أجمعت الأمة على إحكامه من صفات ربنا جل جلاله فوجدناها قد أجمعت على قوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فعقدنا على ذلك عقائدنا وضمنناه ضمائرنا وطوينا عليه طوايانا وعلينا أن ماناقض معناها ظاهرا فهو من المتشابه الذي يجب علينا الايمان بتنزيله والوقوف عما لانعله من تأويله (القسم الثاني) من المتشابه المتعلق بافعاله بالنظر الى صحته وهو أسهل المتشابه وأقله خطرا بل لا خطر فيه لان الايمان به من جملة الايمان بقدرة الله تعالى وهو انواع

(النوع الاول) إحياء الموتي وهو أشبه شيء بخلق الحياة في الجمار الذي هو النوع الثاني : وانما كان أشبه شيء به لان الميت بعد الموت لا يسمى بعد البلى في التراب جهادا أو أجمع المسلمون على كفر من شك في صحة هذا من الملاحدة وعلى كفر من أظهر الايمان به وادعى انه مجاز من الباطنية الذين جحدوا حياة الاجساد في الآخرة وقد أراد الله اكرام خليله ابراهيم عليه السلام باخراج ايمانه من هذا من الغيب الى الشهادة وجعل سبب هذه الكرامة خطوط خاطر أوجب السؤال لربه جل وعلا فقال عليه السلام (رب أرني كيف تحيي الموتي قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم

ان الله عزيز حكيم (وقال تعالى قبل هذه الآية في هذا المعني) (او كالذي مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال اني يحيي هذه الله بعد موتها فاثماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتثنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم ان الله على كل شيء قدير) فمن كفر لعدم ايمانه باحياء الموتى فانما كان سبب كفره متابعتة لمجرد استبعاد العقل لذلك وقد رد الله تعالى هذا الاستبعاد بقوله جل وعلا (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم قل يحياها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) الى قوله (انما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون) وقال تعالى فى ذلك (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا قل كونوا حجارة او حديدا او خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة) وهذه أقصم آيات لظهور أهل الريب ومن هنا أنكرت طائفة من المبتدعة عذاب القبر لمجموع علمين عندهم نظرى وضرورى تجريبي، أما النظرى فهذه المسألة ؛ وأما الضرورى التجريبي فوجدناهم على طول التجارب عظاما بالية وقد تطابق السمع على رد ذلك وصدعت به النصوص الصريحة الصحيحة، وذكرك ذلك فى هذا الموضع مما يؤدى الى التطويل

(النوع الثانى) وقوع بعض خصائص الاحياء من الجمادات من غير

بنية مخصوصة من لحمية ودمية حتى يصح منها الكلام وذكر الله تعالى والاقربار به والسجود له وهذا في القرآن كثير جدا وجمهور المسلمين على الايمان به ومن أوضح أدلتهم ان الله موصوف بالحياة من غير هذه البنية المخصوصة فكيف يستحيل بعض خصائص الحياة في غير الاحياء وانما خالف بعضهم في ذلك لاجل القرينة العقلية فجعلوا قول الله عز وجل في السموات والارض (قالنا أتينا طائعين) مثل قول الشاعر :

فقال له العينان سمعا وطاعة وحد رتا كالدر لم ينتقب
وقد غفلوا في هذه غفلة عظيمة فان الشرط في قرينة المجاز ان نكون متقرر عند من وجه الخطاب اليه معلوما عنده بطلان ظاهر الكلام كما في قولك في وصف الكريم انه بحر عذب او مزن ثجاج بحيث لا يرتاب في ذلك السامع لكن الكلام اذا صدر ممن يعلم ما لا يعلمه ويقدر على ما لا يقدر عليه وقد جربنا خرق العادات من جهته وعقدنا ضمائرنا على الايمان بما لا نحتمله عقولنا من اخباره حتى صدقناه في خروج العالم من العدم وثبوت موجود لا اول لوجوده من القدم وحياة الموتى وثبوت الدار الآخرة فهنا لك تنهد القرينة العقلية ولا تماسك ضعفا في مقام الآي القرآنية وان كانت في سائر الكلام قوية او ضرورية ومثال ذلك أنا إذا سمعنا قول الشاعر :

شكى الى جملي طول السرى * يا جملي ليس الى المشتكى
لم نشك في انه أراد المجاز بقرينة الحال وهو شكى وباقي ذلك ولذلك لم تخف على العقلاء مقاصد الشعراء والبلغاء ولا استراب

فيها ذكي ولا غبي واما حين سمعنا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان هذا الجمل شكى الى انك تجيعه وتؤذيه فانها تتبادر أفهامنا الى الايمان بظاهره ولو انا عددنا هذا وامثاله من حنين الجذع وتسبيح الحصى وكلام الذراع على المجاز لادى هذا الى الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحاشا مقامه العزيز من ذلك لان كلام هذه الاشياء المجازي ممكن حتي مع الكفار قالوا العلم بعدم حياة الجمادات ضروري قلنا مسلم وهو غير محل النزاع فاننا نعلم الآن انها جماد وانما النزاع في ان العقل هل له طريق الى القطع بان الله تعالى لا يدخل في مقدوره حياتها في بعض الاوقات متى شاء وهي على صفتها او صدور بعض خصائص الاحياء عنها وهي جماد وهذا لا يناقض علمنا بانها الآن جماد ودليل عدم التناقض في ذلك ان الجميع يقر أن الله تعالى قادر على اعدام الأجساد او تحويل الحجارة ذهباً وفضة ودرا وياقوتا الى القرسة ^(١) العليا المدر كة بالبصر ومع علمنا بقدرته تعالى على ذلك فانه اذا دخل بمنزله او غمض عينه يعلم ان الدنيا باقية على حالها وان الله لم يعدمها ولا حول ذاتها فمتعلق العلم ماهي عليه الآن ومتعلق التجويز القدرة فكذلك مسا لتناو كذلك العلم بانه لا يصح صدور الكلام عنها بل فهم أن يكون ضروريا وان لا يكون مقدور لله وهم لا يخالفون فيه وهما في العقل سواء

لكنهم لما صح لهم ورود السمع في خلق الكلام على وجهه لا يصح تأويله حكموا أو بعضهم بان مايتوهم علما ضروريا في مسألة الكلام

(١) القرسة هكذا في ثلاث نسخ خطية ولم أجدها في القاموس فلتراجع اه مصححه

من العقائد الوهمية الانتقادية والقطع في مسألة الحياة مثله سواء ^(١) وسيأتي بيان ان هذه الامور أو بعضها غير وارد على طريق المعجز لعدم قصد التصديق في دعوى النبوة وعلم الغير بوقوعها إلا من اخبار الانبياء عليهم السلام كما يقول في رؤية الخليل عليه السلام لاهياء الموتى ونحو ذلك مما يجرى له قبل النبوة على ان الحق جواز خرق العادات لغير الانبياء عليهم السلام كما هو مبين في موضعه والله سبحانه أعلم * سلمنا ان الحياة غير منقسمة وانه لا حياة إلا في بنية مخصوصة مثل بنية هذه الحيوانات فما المانع من ان الله تعالى يحيي السموات والارض وكل شيء ويجعل ذلك كله على هذه البنية ويصدر منه التسييح الحقيقي في وقت لا نعلمه أو في أوقات كثيرة لانعلمها أو في الآخرة أو قد فعل ذلك فيما مضى قبل وجودنا وهذا يمكن عند جميع اهل الاسلام من اهل السنة والبدعة والجمود والكلام ويمكن ان يحمل عليه سائر الآيات الواردة في ذلك كما يأتي الآن ذكرها وذلك مع امكانه متعين لان المجاز خلاف الاصل الظاهر ولا يحل المصير اليه مع امكان الحقيقة وفي ذلك صون جلاله التنزيل من تجرؤ كل فرقة على مستبعد التأويل بادني شبهة يتوهمون انها تستحق اسم الدليل فاين خصائص النبوة وما فائدة الاخبار بالمجاز الذي يمكن كل واحد ان يخبر بمثله فان اجازوا كلام الجناد من غير آلة ولا بنية فليجيزوا خلق الحياة فيه من غير بنية فان الجميع على خلاف المعقول ذاحيرة * ولما بلغ الخوض في هذه المسئلة الى مولانا امير المؤمنين وسيد المسلمين المنصور بالله عليه السلام أحيا

(١) هكذا في ثلاث نسخ الكتاب الخطية وهي في غاية الركة فلتحذر انه مصححه

الله بعلمه السنن واطفاً بسيفه الفتن أنكرها انكار السلف الصالح الذين لم يشب صفو ايمانهم كدر البدع ولا خالط يقينهم مرض الريب فانه عليه السلام اشبه الأئمة بالسلف هدياً ودلاً وفعلاً وقولاً وعلماً واعتقاداً وجهاداً واجتهاداً وكان مما احتج به عليه السلام قول الله سبحانه (يومئذ تحدث اخبارها بان ربك أوحى لها) فيا لها من حجة نافعة لمن أنصف، قاطعة لمن تعسف، لوجوه (الاول) انه الظاهر ولا يجوز العدول عن الظاهر إلا بدليل مانع منه باجماع المسلمين ولو جاز العدول الى المجاز بمجرد الاستحسان مع جواز الحقيقة لصح مذهب الباطنية وامثالهم ولم يوثق لله سبحانه وتعالى بخبر ألبتة والعجب من الزمخشري انه اختار ان التحديث منها والا يحاء اليها مجاز ثم روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يناقض قوله ولم يقدح في صحة الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى ان مقتضاه قول لغيره واخيار غيره اختياره من غير رد عليهم فما اعجب ما صنع فان كانت الحقيقة عنده جائزة غير مستحيلة فما يسوغ له صرف كلام الله عز وجل عن حقائقه ولا يحل له تقديم رأيه على صواعق القرآن ونواطقه، وان كان الظاهر عنده من المحالات بالادلة العقلية القاطعة فما يحل له ان ينسب الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قول المحال الذي نزه عنه نفسه ثم لا يزيفه لان القول بوجود ذلك عنده كذب وزور بالادلة القطعية وجدير ان لا تسود له تفاسير الكتب الربانية وهذه طريقة الزمخشري في كثير من تفاسيره وله بالمجاز ولع كثير حتى انه ذكر ان خلق الله عز وجل للخلق مجاز وان الحقيقة انما هي في خلق احدنا الاديم ونحوه

ذكره في أساس البلاغة وهذا يقتضي أن تسمية الله تعالى بالخالق مجاز يجوز نفيه عنه بغير قرينة ويكون الحق وصف الله بأنه غير خالق على التحقيق وإنما الخالق الحق من لأحب ذكره هنا من صنائع الجلود وهو الذي يوصف بذلك حقيقة فاعرض هذا على قول الله تعالى (هل من خالق غير الله) وعلى ما يسبق إلى أفهام أهل اللغة عند الإطلاق الذي هو اخص اوصاف الحقائق، ومنتهى الامر ان يكون ما ذكره هو الاصل في الحقيقة اللغوية فقد صار الخالق يطلق على الله تعالى في الحقيقة العرفية بل في الحقيقة الشرعية وهي أقدم الحقائق وكلتاها مقدم على الحقيقة اللغوية كما هو مقرر في علم اصول الفقه والخالق من الاسماء الحسنى وحيث يراد به ايجاد الاجسام ونحوها واخراجها من العدم المحض يكون مختصا بالرب سبحانه وعليه قول الله تعالى (هل من خالق غير الله) وحيث يراد به تصويرها وتركيبها واحكامها وتقديرها يكون سبحانه أحسن الخالقين ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء، والاحكام وحسن التقدير والتصوير من آثار العلم باتفاق العلماء ولذلك كان دليلا على علم الله سبحانه وعلم العباد في علمه كما قال الخضر لموسى عليه السلام (ما علمى وعلمك وعلم جميع العالمين في علم الله الا مثل ما اخذ هذا العصفور بمنقاره من هذا البحر) فالتلخيص المستعان

(الوجه الثاني) ان قوله تعالى (بان ربك أوحى لها) مانع من ذلك وقد أقر بما يقتضي ذلك في كشفه فقال ان الباء متعلقة بتحدث معناه اخبارها بسبب ايجاء ربك لها وامره اياها بالتحديث هذا اللفظ ثم زعم ان الوحي مجاز محتجا بقول الشاعر :

أوحى لها القرار فاستقرت * وشدها بالراسيات الثبت

ونسى ما تقرر في العلم الذي هو صنعته من وجوب تقرر القرينة عند من خوطب حتي لا يكون المتكلم ملغزا ولا ما جنا ولا لاعبا عابثا تعالى الله عن ذلك ولا حجة له في البيت لان الشاعر ان كان مسلما يجوز انه قد سمع قوله تعالى (قالنا أتينا طائعين وقوله بان ربك أوحى لها وقوله انما أمره اذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون) ونحو ذلك وجاز ان يريد الحقيقة لان في فرق المسلمين من يقول بذلك وفي فطر الاكثرين ممن لم يتلقن الكلام، وان كان كافرا من كفره العرب جاز ان يقول ذلك مستندا الى ما سمعه من بعض أهل الكتب الأولى ومن البعيد أن يكون هذا الشاعر معتزليا من علماء الكلام او فلسفيا من متخذي لغة اليونان ولو سلمنا انه ما أراد الحقيقة فبقريئة ظنية غير سالمة من المعارضة، ولو سلمنا القطع بأنه متجاوز هنا لم يلزم القطع في الآية بمثله فان كلام رب العزة جل جلاله الذي يعلم ما لا يعلمه أحد ويقدر على ما لا يقدر عليه أحد يحمل على الحقيقة في الأمور الممكنات في قدرة الرب جل وعز ولا يصح كلام الباطنية في أن القيامة مجاز وحياة أهل الجنة والنار كذلك بل كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كذلك الا ترى انا متى سمعنا قوله عليه السلام — ان هذا الجمل شكى الى حملناه على ظاهره كما مضى بخلاف قول الشاعر على ان كون الإشارة الى البهيمة يسمى وحيا من قبيل المجاز دعوى منه والظاهر أن الوحي لفظة مشتركة بين معان على الحقيقة حيث هي الاصل ولا يثبت المجاز الا بدليل فبطل

ما عول عليه من الحجة ، يوضح ان الوحي الذي في قول الشاعر هو الى حيوان له الهام الى الاشارات والوحي الى الارض ليس من هذا ولا يصح فيها مثل هذا عنده فكيف نحتاج على الشيء بما لا يلائمه ولا يقاربه الى هنا

الوجه الثالث : ان دار الآخرة محل وقوع الخوارق وتقلب العوائد وفيها تتكلم الأيدي والأرجل والجلود والمقصود بما تقع به الاخبار من أحوالها في كتاب الله تعالى المنبه على العباد بتعريف ما لا يعرفونه وتحقيق ما يوعدونه، وحمل ذلك على المجاز عكس لهذه الحكمة الربانية والدلالة على رب العزة جل جلاله في آياته الفرقانية ، وتشكيك على المؤمنين في قبول ظواهر الأخبار القرآنية من غير دلالة قطعية وهذا خطر جليل، وخطب كثير غير قليل، وإذا كان القصد بتفسير كتاب الله والنظر في مراد الله هو التقرب الى الله فمالنا والتعرض لمثل هذه الاخطار، والتقديم لبادئ الرأي على ظاهر خبر الله الذي هو أصديق الاخبار، ولما رأيت ما وهب الله تعالى لمولانا أمير المؤمنين من قوة الايمان واليقين والثبوت على مناهج السلف السابقين اثار منى كامنا وحرك ساكنا فأحببت ان أتلو بعد هذه الحجة القاطعة والآية الساطعة ما حضرني مما يقوى معناها فمن ذلك قوله سبحانه (وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله) وقوله (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا) وقوله تعالى (تسبح له السموات السبع والارض

ومن فيهم وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) وقوله في هذه الآية الكريمة (ومن فيهم) مانع واضح من تأويل الزنجشى لتسبيح السموات والارض بالمجاز لأن تسبيحهم حقيقى وتسبيحهم مجازى وقد اعترف أن الكلمة الواحدة لا تكون حقيقة ومجازا في حال واحد وقد التزم بهذا أن تسبيح المكلفين مجاز وماذا أولى من عكسه ولا يعجز خصمه عن مثل دعواه وقد دل على ذلك أيضا قوله تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) لكنه قد تمحل وتكلف تأويل ذلك بما لو صح له مثله لم يعجز أحدهم الملاحدة عن تأويل نصوص القرآن على الفساد بمثل ذلك، ومن العجب ارتكاب مثل هذا في كلام الله توتجيزه من غير ضرورة فان ذلك متي صح لم يؤد الى تشبيهه ولا جبر ولا نقص على الله تعالى ولا تكذيب له ومع ما في تجويز ذلك من المفسدة الكبرى وهى تصحيح دعاوى التاويلات الباطلة والنادرة وهذا يوهن كون القرآن حجة نيرة وحكما عادلا بين المختلفين الى يوم القيامة لانه لا يكون كذلك بلفظه بل بمعناه فيجب أن يكون معناه مصونا عن قبول مثل هذه الدعاوى فيه والا بطلت الحجة فيه وادعى كل ماشاء في معانيه والله المستعان وقوله (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) وقوله (ولقد أتينا داود منا فضلا يا جبال اوبي معه والطير) وقوله (قل أنتم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين) ففي هذه الآية

الشريفة الرد على الجبرية لنصها على الفرق بين الطوع والكراه كما هو معلوم من ضرورتي العقل والشرع وفيه الرد على من تأول قولهما آتيننا طائعين بنفوذ مراد الله فيهما لوجهين (أحدهما) أن الآية مستلزمة لصحة إتيانها على وجهين مختلفين (أحدهما) يسمى طوعا والآخر يسمى كرها وذلك لا يصح إلا إذا كان الإتيان فعليهما حقيقة أما إذا كان فعل الله حقيقة لم يتصور منه ذلك الانقسام بل بفعله تعالى كما قال سبحانه (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) ولو صح ذلك الانقسام فيه كان ذلك جوابا للجبرية

(وثانيهما) أنه لو كان كذلك لم يختص بالوقت الذي عينه في الآية فإنه عطف الاستواء ثم التي تقتضي الترتيب والمهلة والقول لهما بالفاء التي تقتضي الترتيب بغير مهلة وهذا يدل على أنه قال ذلك بعد خلق جزء من الأرض وبعد دحوها لا كما قال الزمخشري أنه قبل دحوها والدليل على ذلك أنه نص على أن ذلك بعد خلق الجبال فيها وذلك لا يتصور إلا بعد الدحو وهو مقتضى الحكمة في خلق الجنة كما جاء في غير هذه الآية وعلى هذا فقد كان قول الأرض بعد تمام مراد الله في خلقها فلم خصه بذلك الوقت وهو قبله أولا على تأويلهم ثم لفظ الإتيان لا يناسب تأويلهم وأوله الزمخشري بالإتيان الذي يحتاج إلى مبتدأ مرفوع وخبر منصوب مثل صرنا طائعين فلم يطابق خصوصا على اختياره في العربية أن جاء ونحوه لا يكون فعلا ناقصا بمعنى صار في نحو قولهم جاء البرقفيزين وقوله تعالى لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأته خاشعا متصدعا من خشية الله وقوله (ولو أن قرآننا سيرت به الجبال أو

قطعت به الأرض أو كلم به الموتى وقوله والنجم والشجر يسجدان وقوله ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب وقوله في هذه الآية (و كثير من الناس) دليل الحقيقة لانا لو حملنا سجود الجادات على المجاز الذي هو نفوذ مراد الله من فعله فيها من غير اختيارها لدخل الكفار في ذلك فان مراد الله تعالى من فعله فيهم نافذ من إمراضهم وموتهم وأمثال ذلك ويؤيده قوله تعالى في النحل و (الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) ولو لم يكن لها في التسخير فعل تكون به مطيعة لله تعالى لم يقل بأمره كما لا نقول ذلك في مخلوقاته المحضة فتأمل ذلك والله أعلم * مع ان تسمية المقهور ساجدا على الاطلاق غير معروفة في لسان العرب ولا واضح القرينة ، وقد اشترط علماء هذا اللسان وضوح القرينة ولذلك منعوا تسمية أبخر الفم أسدا لأجل اشتراكهما في البخر وليس في لغة العرب أن يقول سجدت لى الأرض إذا كان متمكنا من عمارتها و خرابها وزرعها ونحو ذلك ولو كان كذلك لصدق سجود كثير بما ذكر الله تعالى للمخلوقين لتمكنهم منها مثل الشجر والدواب فان قيل هذا من المعاني المتشابهة وأتم قد منعم الكلام فيها وهذا تناقض فالجواب ان الامر ليس كذلك لوجهين :

الوجه الأول : انا انما منعنا من تأويلها والخوض فيها بغير برهان من الايمان بها والتصديق لظاهرها حيث لا قبح فيه ولا اضافة صفة نقص الى الله تعالى

الوجه الثاني : أن التأويل له معنيان أحدهما معرفة المعنى وهذا بما لا نمنعه حيث تحصل عليه دلالة تفيد العلم أو الظن بل يجب التفسير به فيما يحتاج الى معرفته كالقرء لأجل معرفة مقدار العدة وان كان القرء متشابهاً لا اشتراكه بين الطهر والحيض وأمثال ذلك وفي هذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الدعاء لابن عباس (اللهم فقّهه في الدين وعلمه التأويل) وقال على عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام واني ابتدئك بتعالم كتاب الله تعالى وتأويله وشرائع الاسلام وأحكامه ولا أجاوز ذلك بك الى غيره : والدليل على ما ذكرته من أن هذا التأويل الذي كان أجمع عليه السلام أن يعلمه لولده الحسن عليه السلام غير تأويل المتشابه الذي لا يعلمه الا الله تعالى أمور : منها جميع ما تقدم من كلامه عليه السلام وغيره ومنها قوله عليه السلام عقيب هذا الكلام في هذه الوصية : ثم أشفقت أن يلتبس عليك بما اختلف الناس فيه من أهوائهم مثل ما التبس عليهم . الى آخر كلامه وهو يدل على ان الذي عرفه على بدايته به من تعليم الكتاب وتأويله هو الفروع دون الأصول وثانيها التأويل بمعنى معرفة وجه الحكمة في دقائق التحسين والتفسيح وماهية الأمور وحقائقه في دقائق الجائزات والمحالات وما يمتنع على العقول تصوره من المجازات وهذا هو الذي لا يعلمه الا الله دون الأول فالتأويل بهذا الوجه لا يعلمه الا الله وان علمنا معنى اللفظ والدليل على ذلك نص القرآن في قصة الخضر وموسى عليهما السلام وهو قول الخضر لموسى (سانبئك بتاويل ما لم تستطع عليه صبرا) ثم انه بين له وجه الحكمة ولم يكن تأويله بما يدل على ان قتل الغلام كان مجازاً أو

خرق السفينة وقع استعارة فكذلك هذا فانا نؤمن بان كلام الجمادات مع الله تعالى صحيح كما قال الله تعالى وكذلك سجودها واخبارها وسائر ما حكى الله عنها ولا ندرى بكيفية ذلك التي هي تاويله بهذا المعنى فثبت انه لا يعلم تاويل المتشابه في العقول الا الله تعالى وان علمنا الله سبحانه بخبره لنا وجود المتشابهات وقدرته عليها وآمنا بذلك في الجملة لم نكن قد شاركنه سبحانه فيما اختص به من علم تاويلها وتفاصيل وجوه الحكمة والكيفية فيها وبما يدل على ذلك اقرارهم بوصف الله تعالى بكونه حيا حقيقة من غير بنية مخصوصة فان قالوا انما صح لكونه حيا لذاته من غير حياة قلنا اذا صح حي من دون حياة مع عدم معرفتنا لذلك ولا شبهة الجائنا جازان تنقسم الحياة الى أنواع * يئانه ان حياة الملائكة عندهم تشترط فيها الرطوبة وعندهم أنهم لا يدركون ولا تدرك رطوبة حياتهم للطفهم فيجوز في كل جماد مثل رطوبتهم التي لا تدرك وأيضا فالأشجار ذات رطوبة وقولهم ليس لله حياة ولا علم بدعة ومناقضة في اللغة

النوع الثالث : كلام العجاوات من الحيوانات وذكرها الله تعالى ومعرفتها به سبحانه وهو أقرب في العقل من الاول وأصرح في نصوص القرآن والسنة ومع ذلك فقد صرح الزمخشري وغيره بتاويله مع تطابق دليل العقل والسمع على صحته فمن ذلك قوله تعالى (والطيور صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه) وقوله تعالى (وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا) وقال حكاية عن سليمان عليه السلام (يا أيها الناس علمنا منطق الطير

وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين) وقال جل جلاله (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكاً من قولها) وقال تعالى في قصة الهدهد (وتفقد الطير فقال مالى لأرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين فكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به [وقال تعالى] حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء [والحجة فى أنطق كل شيء عامة فى الحيوان والجماد وقال سبحانه (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون [وقال سبحانه [وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا امم أمثالكم [وقال سبحانه (واوحى ربك الى الزحل ان اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) الآية وقال تعالى فى الهدهد [فكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبابنا يقين إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم [وقد اشتمل كلام سليمان عليه السلام مع الهدهد على الرد على الخصوم فى قولهم ان كلام الهدهد معجز من فعل الله ولو كان كذلك ما قال سليمان سننظر اصدقت ام كنت من الكاذبين ولوجب القطع بصدقه لان كلامه على زعمهم

كلام الله وعلى الرد عليهم فى قولهم ان الحيوانات لاتعقل ولو كان كذلك ما استحق الهدهد العقوبة التى توعدده بها سليمان عليه السلام بقوله لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحنه

ووجه آخر يدل على عقله وهو قول سليمان عليه السلام أولياتينى بساطان ميين فانه لايتى بالحجة البينة إلا العقلاء أو فطناء العقلاء والله أعلم ولا وجه يقصر هذا على ذلك الهدهد لقول سليمان عليه السلام (علينا منطق الطير) ولان قدرة الله تعالى صالحة لذلك فى كل هدهد وقد أخبر بتسييح كل شىء وصلاة كل شىء فهذا مما ورد فى القرآن العظيم * وأما الوارد فى السنة الشريفة فما لاسبيل الى استقصائه وقد ذكر منه الامام المهدي محمد بن المطهر عليهما السلام جملة صالحة فى تفسير قوله تعالى (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) وما أحق المتناول للجائزات بالخوف من هذا الوعيد الشديد فذكر الامام المهدي عليه السلام كلام الحيوانات فى هذه الآية لما تعلق به من لعنها لمن لعنه الله فذكر كلام الثعالب وشعره الذى ذكره أبو طالب فى الامالى وذكر كلام البعير والعصا وكلام الضب والحمار الذى أخذ من خير وسؤاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن اسمه وحديث الناقة التى شهدت انها ملك لصاحبها وحديث الشجرة التى شهدت بالنبوة وذكرها على عليه السلام فى النهج وطول فى هذا قدر كراس من أشعار وأخبار وروى ذلك كله بالسمع والاسانيد وذكر القاضى عياض فى كتابه الشفاء فى التعريف بحقوق المصطفى وذلك فى ثلاثة فصول

أحدها في الحيوانات وثانيها في كلام الشجر وثالثها في كلام سائر الجمادات من كتابه وهو اجمع شيء لهذا المعنى * وذكر الزمخشري طرفا من ذلك في تفسير قوله تعالى حاكيا عن سليمان عليه السلام (يا أيها الناس علمنا منطق الطير) على سبيل الحكاية منه لما لم يصح عنده كما صح في آية الزلزلة بعد أن صدر التفسير بمحاولة تأويلها فقال ان المنطق كل ما يصوت به في المفيد وغير المفيد

وحكى عن العرب انها قالت نطقت الحمامة وحملهم على التحقيق دون التجوز في نطق الحمامة مع أن تسمية ذلك نطقا لا يسبق الى الفهم الا بقرينة وهذا دليل المجاز ولم يجوز ان نطق الحمامة مجاز مثل خلق الله تعالى عنده للخلوقات ونظائره ثم بعد هذا فلو سلم له صحة تسمية صوت الطير الذي لا يفيد نطقاً حقيقياً فانه لا يحسن من سليمان ان يخطب في الناس بأنه علمه فان كل أحد من الناس يعلمه والذي أخبر به سليمان وضمنه الله تعالى كتابه العزيز وكلامه الجليل أمر عظيم ومعجز باهر وقد فهم الزمخشري أن تأويله هذا يبطل هذه الخصيصة ويمحوها وعلم أنه لا بد من أمر خص به سليمان فعدل عن المنصوص وقال ان الذي علمه أغراضها وهذا أيضا لا يختص به سليمان فان كثيرا من الخلق يفهم كثيرا من أغراض العجاوات لاسيما من مارسها وعلى تسليم ذلك فليست الأغراض تسمى منطقاً في اللغة فدار كلامه على ان الذي علمه سليمان أمر غير المنطق فان كان الذي علمه معجزاً فهلا أقر بأنه المنطق الظاهر من غير تأويل، وان كان غير معجز لم يستحق التعظيم الكثير والتبويه بذكره في قول سليمان (يا أيها الناس علمنا منطق الطير) ثم بتضمنين الله

تعالى له في أعز كتبه المنزلة وآيه المكرمة ثم بعد قليل غص بريقه في قوله (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها) فاضطر الى الاقرار بظواهرها حتي قال ان إعجابه وضحكه كان بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى وذلك قولها وهم لا يشعرون يعني لو شعروا لم يفعلوا انتهى كلامه وفيه مع الاقرار بنطقها الاعتراف بعقلها وفهمها المكان نبوة سليمان وعدله الذي لم يهتد اليه كثير من عقلاء الناس بل من المدعين للتبريز في علم المعقولات من الفلاسفة واشباههم فيا هذا ان كان مثل هذا جائزا عندك داخلا في مقدور الله فما أحل لك تأويل [علمنا منطق الطير] واوجب عليك الايمان بكلام النملة وان كان هذا الجنس عندك من المحال فكيف صح عندك الايمان به في هذه الآية وحدها وإن كان هذا تفسير المسمى بالعلامة المشهود له في علوم المعاني والبيان بالامامة وهو كذلك في هذا الفن فكلمة الحق لا يحددها ولا ينحسده عليها فما ظنك بكثير من المفسرين الذين لم يعضوا على هذا العلم بناجدا قاطع ولا حظوا من الاتقان له بطرف صالح فما أحق الناظر في كتاب الله تعالى بعدم الاتكال على تقليد الرجال أو على الترك لما لا يعرفه والاقصرار على الايمان به والتلاوة وليتدبر جلالة التعبير وليعلم انها مرتبة تقارب مرتبة النبوة لأن مرتبة النبوة التبليغ عن الله تعالى لكلامه ولا شك أن معظم المقصود من كلام الله معناه فالمفسر له كالمبلغ عن الله سبحانه فاعتذارهم بان هذا معجز مردود بامور

أحدها أنهم انما منعوا من قبل المعجز لغير الأنبياء وهذا المنع غير صحيح وتقريره في غير هذا الموضع وعلى تسليمه فليس القصد هنا فهم غير الأنبياء لذلك انما القصد علم الله ومن شاء من ملائكته لذلك وكون ذلك مقدورا لله متى شاء

الثاني أن شرط المعجز أن يقصد به تصديق مدعى النبوة وكون النبوة في دعواه والا كانت كرامات الأنبياء والأولياء والملائكة وما يظهر على أيدي الرجال كلها معجزات مثاله رؤية الخليل عليه السلام لاهياء الموتي والملوكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين لا تسمى معجزة لأن القصد بها تقوية ايمانه وشرط المعجز علم غير الأنبياء من غير خبرهم وكثير من هذه الاشياء لم تكشف إلا لهم خاصة وهذه كرامة لهم لا معجزة ونظيره ما يجرى لهم قبل النبوة و بعد الموت في حال الخلوة

الثالث: أن كلامنا إنما هو في تأويل قوله تعالى علمنا منطق الطير وإنما تأويلوها من غير موجب والفرق بينها وبين كلام النملة بكون كلام النملة معجزا غير صحيح لجواز أن يكون تعلم منطق الطائر معجزا أيضا وكذلك كلام الهدد وان كان منعهم من ان يكون عاقلا فلا استحالة في جميع ذلك في قدرة الله ولا في بعضه فليس فهم مقاصد الكلام يستلزم العقل كما لم يستلزم ذلك فهمها الاشارات وفهم الصبيان ذلك قبل البلوغ والله اعلم

وفي قصة الهدد ما يدل على انه عاقل لأنه علم بوعدده بالعقوبة وما يدل على انه متكلم باختياره لانه قال له سننظر اصدقت ام كنت من

الكاذبين ولو كان كلامه معجزا لكان من فعل الله ولو جب صدقه ولم يكن محتاجا الى امتحانه ولم اقصد بالتطويل في هذا نقيصة عالم وانما قصدت ان يكون تالى كتاب الله تعالى عارفا بما اشتملت عليه التفاسير من الحشو الكثير حذرا من البدع يقظا فيما يحتاج الى النظر لا يتبع كل ناعق ولا ينقاد لكل سائق والله عند لسان كل ناطق وقلبه ونيته والدين النصيحة لله تعالى ولكتاباه ولائمة المسلمين وعامتهم والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله

﴿ فصل ﴾

﴿ في الإشارة الى ما يعرف به المجاز من الحقيقة ﴾

اعلم ان اللغات بأسرها ما وضعت إلا لبيان المقاصد وإيضاحها وان المجاز لو صح على الاطلاق من غير شرط ولا دلائل عليه لبطلت الفوائد المأخوذة من الكتاب والسنة بل لبطل فهم بعضنا من بعض وإذا أردت ان تعلم ان الامر في ذلك غير ملتبس لولا الاهواء والعصيات فانظر الى اشعار الفصحاء وخطب البلغاء كيف يبين فيها المجاز من الحقيقة من غير لبس فكيف يقع اللبس الشديد في كلام المعصوم من التلبس على المخلوقين المبعوث رحمة للعالمين صلى الله عليه وآله وسلم بل في كلام الله جل جلاله الذى جعله شفاء لما فى الصدور ونورا لا يطفأ إذا طفىء كل نور فقد وصفه الله اصدق الواصفين بما يحزى الصادق عنه والمتشككين من الاحكام والفصل والفرقان والنور والهدى والتبين، والعقل يدرك هذا لو لم يرد منصوصا فى القرآن المبين *

فاذا عرفت هذا فاعلم ان شرط الحسن في المجاز ان يكون معلوما عند السامعين غير ملتبس بمقاصد المتخاطبين الا ترى انه لا يلتبس المجاز في قوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) ولا الحقيقة في قوله تعالى (ولا طائر يطير بجناحيه) وقوله تعالى (أولى أجنحة) وكذلك لا تخفى عليك في قوله تعالى (إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً أمشورا) وعدم التجوز في قوله (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وكذلك لا يخفى التجوز في قوله (فوجدنا فيها جدارا يريدان ينقض) ولا الحقيقة في قوله (ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها) او امثال ذلك مما لا حاجة الى استقصائه من غير تعلم لعلوم المعاني والبيان ولا تقليد لعلماء هذا الشأن بل لبقاء سامع هذه النصوص على الفطرة وعدم ثبوت الفهم السليم بما يعنى عن البصيرة ويورث الحيرة فهذا الأصل هو المعتمد عليه الجلى ولذلك يفرق العامة بين قولك زيد اسد وبين قولك من غير قرينة ان الاسد عدا على الناس ومتي قال القائل دخلت على الملك ورايت البلاذ في يده لم يشك من لم يسمع بعلم المعاني انه مجاز ومتي قال دخلت على الملك فرايت كتابا في يده او سيفاً او خاتماً لم يشك المبرز في علم المعاني انه عني الحقيقة بل الباطنية الغلاة الذين يزعمون ان كل الكلام مجاز مضطرون الى سلوك الجادة التي عليها العامة والا لما وجدوا الى فهم كلام أئمتهم ودعاتهم سبيلا ألبتة فاذا تطلعت الى معرفة ما لخصه علماء المعاني في هذا فهو البناء على الحقيقة الا عند وضوح إحدى القرائن وهي ثلاثة

لارابع لها

احداها العقلية وهي ما يعلم المتخاطبون استحالة ظاهره من غير كلفة

مثل قولهم ان البلاد في إيدى الملوك وان الكلام الحسن الترصيف
دررا منظوم من الملاحاة في سلوك ومنه تسمية الشجعان بالأسود الأسود
والكرماء بغيث الوفود ومنه واسأل القرية التي كنا فيها والعرير
التي أقبلنا فيها أي أهلها

ثانيها القرينة العرفية وهي ما جاز في العقل وامتنع في العرف مثل
مباشرة الملوك الكبار لبعض الأعمال تقول عمر الخليفة بني دارا أي أمر
بذلك ومنه قوله تعالى حكاية عن فرعون (يا هامان ابن لي صرحاً)
أي مر من يبنى

ثالثها القرينة اللفظية كقول الشاعر :

لدى أسد شاكي السلاح مقدف * له لبد أظفاره لم تقلم

فقوله شاكي السلاح قرينة لفظية تدل على أن الممدوح رجل
شجاع لا سبع وذلك كثير ومنه قوله تعالى (الله نور السموات
والأرض) أي منورهما بدليل قوله تعالى (مثل نوره) لان اضافة النور اليه
تدل على انه رب النور وخالقه وأراد بالنور هنا نور العلم والهدى
بدليل قوله (يهدى الله لنوره من يشاء) وقد تكون منفصلة في العموم
والخصوص كقوله (الأخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) في بيان
المراد من قوله تعالى [في يوم لا يبيع فيه ولا خلة ولا شفاعة] فهذا في
بيان المراد من نفى الخلة وانه عن غير المتقين وكذلك قد ورد ما يبين
ان نفى الشفاعة غير عام وذلك قوله تعالى [من ذا الذي يشفع عنده إلا
بإذنه] وقوله [ونسوق المجرمين الى جهنم وردا لا يملكون الشفاعة إلا
من اتخذ عند الرحمن عهدا] وغير ذلك وقد تكون قرينة التخصيص

في كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما في تخصيص الحائض
بتحريم الصلاة مع عموم الامر بها في عمومات القرآن والسنة
وتخصيص مالا تجب فيه الزكاة من الاموال مع عموم (خذ من اموالهم
صدقة) وفي الحديث (لا يأتي رجل مترف متك على اريكته يقول
الا اعرف إلا هذا القرآن فما أحله أحلته وما حرمه حرمة ألا واني
وتيت القرآن ومثله معه الا وان الله حرم كل ذى ناب من السباع
ومخلب من الطير) وهذا المخصص ومبين لقوله تعالى (قل لا اجد فيما اوحى
الى محرماً على طاعم يطعمه) الآية فينبغي لحامل كتاب الله تعالى ان
يستكمل العلم بمعرفة السنة فان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو
وأُنزلنا إليك الذكرا المبين لما اجهل من القرآن قال تعالى (لتبين للناس
ما نزل اليهم) وقال تعالى (وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)
والحمد لله رب العالمين أكمل الحمد وافضله كما يحب ربنا ويرضى صلى الله
على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم كلما ذكره اذا كرون وغفل عن
ذكره الغافلون من يومنا هذا الى يوم الدين — قال في الام انتهى
زبر هذا الكتاب ضحى يوم الاحد شهر شوال سنة ١١٢٩ من هجرة
خير المرسلين بخط مالكة الفقير الى الله تعالى السائل من وقف عليه
الدعاء بحسن ختامه على بن إسماعيل خطيه لطف الله به

فهرس كتاب ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان

صحيحة	
٢	سند الكتاب ونبذة من ترجمة مؤلفه
٧	خطبة الكتاب للمؤلف
١٠	التنبية على عظم قدر القرآن الشريف
١٢	مقارنة في تحقيق رجحان أسلوب القرآن
١٥ و ١٤	إدراك المعجوات وميزات القرآن الكريم
١٧	كفاية القرآن في البرهنة على عقائد التوحيد
٢١	بيان أن القرآن أساس لاستنباط الأدلة العقلية
٢٤	كرامة أهل البيت رضى الله عنهم تعالى في علم الكلام
٢٦	المؤيد بالله بمنع الخوض في مباحث الكلام الدقيقة
٢٩	بيان أن النزاع في الأمور الدينية مؤدال الفشل
٣٢	مقدار حرص آل البيت على حفظ الدين
٣٣	شعر العلامتين (ابن الفضل وابن حميدان) في ذم المعتزلة
٣٦	قصيدة المتوكل على الله المزللة لأعضاء المعتزلة
٣٩	قصيدة في اظهار أسرار الآله في عجائب مخلوقاته
٤٠	القصيدة المتخبة في ذم المعتزلة
٤٣	ما فعله السيد عبد القادر الجيلاني مع الامام الرازي
٤٤	البرهان على أن الأجمال في التوحيد هو القدر الواجب
٤٩	حكاية الرب الجليل لبرهان الهدهد على التوحيد
٥٠	عذوبة شعر سيدنا زيد بن عمر بن نفيل في التوحيد
٥٣	النصوص الشرعية على ترك المجادلة في الدين القيم
٥٤	بيان أن من بلغ الحد في اللجاج لا تنفع معه المناظرة
٥٨	العلامة الزمخشري يثبت التوسل بكتاب الله وسنة رسوله
٦١	التحذير من الغرور بالمتصولين من ذئاب الناس
٦٤	آداب المتخاصمين وما ينبغي للحكم بينهما

صحيفة

- ٦٩ الكلام فيما تآتى له اللام من المعانى
- ٧١ الكلام فى صيغ عموم السلب وسلب العموم
- ٧٥ الكلام فى ترجيح الاستدلال بالمعجز
- ٧٦ كلام أبى هاشم فى الاستدلال بالأ كوان
- ٧٨ بيان الحجة على الله من غير طريق الأ كوان
- ٨١ ذكر الآيات الدالة على وحدة الصانع جل وعلا
- ٨٤ مقارنة أدلة القرآن بأدلة اليونان
- ٨٦ احتجاج ابن أبى الحديد بدلالة التركيب لا بالاكوان
- ٩١ اثبات الفرق بين آثار الاتفاق وآثار قدرة الخلاق
- ٩٢ ابطال مذهب الطبيعيين بالدليل الحسى
- ٩٥ استدلال البدوى بالفطرة على وجود الصانع
- ٩٦ نظر الخليل عليه السلام وكلامه مع الرب الجليل
- ٩٧ الكلام فى أصعب ما يرد على المتكلمين
- ١٠١ الكلام فى صفات الجوهر الاربعة
- ١٠٣ بيان أن الدليل الاجمالى فى معرفة الله كاف فى حق العوام
- ١٠٥ بيان أن من خير أدلة التوحيد (مرج البحرين يلتقيان)
- ١٠٧ الفرق بين صاحب المعجزة والكاهن والساحر
- ١٠٩ نقل دليل الانفس للعلامة مختار المعزلى
- ١١٠ الكلام على دليل الآفاق
- ١١١ بيان ما أودعه الله تعالى فى الانملة الواحدة من العجائب
- ١١٤ الكلام فى مفاد آية) أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت)
- ١١٥ احترام العرب للحرم ولاجزائه فى الجاهلية
- ١٢٠ احتجاج أبى هاشم على إثبات الكون المختلف فيه
- ١٢٩ رجوع المؤلف الى تمام الكلام فى القرآن الكريم

نظم ابن أبي الحديد في ذم الفلاسفة	١٣١
الشعر الصوفي في التوحيد الحق	١٣٦
كلام أمير المؤمنين سيدنا علي والامام الشافعي رضي الله عنهما	١٣٩
الكلام في ان الراسخين يعلمون تأويل المتشابه أم لا	١٤١
حجة القائلين بأن الراسخين يعلمون تأويل المتشابه	١٤٦
بيان أدلة القائلين بأن الراسخين لا يعلمون تأويل المتشابه	١٤٩
الكلام في الوجه الثالث وفيه النهي عن تفسير القرآن بالرأى	١٥٣
وصف سيدنا علي عليه السلام للراسخين في العلم	١٥٤
تقسيم زيد بن علي عليهما السلام للقرآن على أربعة أوجه	١٥٥
البحث الدقيق في أما وما يذكر بعدها	١٥٩
الكلام في أن أما كما تكون للتفصيل تكون للتوكيد	١٦٢
بيان القسم الثاني من المتشابه الشرعي	١٦٧
بيان المصنف في أنه لا يوجد جبري محقق	١٦٨
الرد الشافي على من استبعد إحياء الموتي	١٧١
بيان كلام المعجهاوات والجمادات	١٧٤
رد المؤلف على الزمخشري	١٧٩
الاستدلال بكلام النملة على عقلها وفهمها	١٨٧
فصل في الإشارة إلى ما يعرف به المجاز من الحقيقة	١٨٩
بيان قرائن المجاز الثلاثة	١٩١

بيان الخطأ المطبعي وصوابه في كتاب ترجيح أساليب القرآن

صواب	صحيفة سطر خطأ
الغائبين	٦ ١٣
بها كافرين	١٥ ١٥
وتقصي	٨ ١٦

صواب	صحيفة سطر خطأ		
عمل به أجر	عمل أجر	٢	١٧
الكافي في فقه	الكافي فقه	٣	٢٧
وإن جادلوك	فان جادلوك	٥	٥٤
هذه الأسئلة	هذا السؤالات	٢	٦٤
وإلا احتاجا	وإلا احتججا	٦	٦٤
وتوقد ذكائه	وتوكد ذكائه	١٧	٦٨
وانهاني كلامي تفيد	وأنه في كلامي يفيد	٥	٧٣
أن تكون قديمة	أن تكون قديما	٥	٧٩
آلة	آيات	٣	٨٢
أمن يهديكم	أم يهديكم	١٠	٨٢
موسى تسع آيات	موسى آيات	١٥	٨٥
قذفه	قذفة	١٤	١١١
رحمه الله	رحمة الله	٤	١١٧
لأبائنا	لأبائنا	٨	١٢٠
يقدر على	يقدر على	٤	١٢٥
تسمية	تسميه	٤	١٤٢
أولاستلزام	اولاستلزم	١٥	١٦٠
لم يتحقق	لم يتحقق	١٥	١٦٦
وجود	وجوده	٨	١٦٧
جلال	جلال	١١	١٦٩
مقدور الله	مقدور الله	١٧	١٧٣
وتجويزه	توتجويزه	١٠	١٧٩
لا أعرف	الا اعرف	٥	١٩٢
هو المبين لما أجمل من القرآن قال تعالى (وأنزلنا	هو وأنزلنا اليك الذكر المبين	١٠	١٩٢
حطبة	الاخير خطبة	١٩٢	

ضياء الشمس ونور القمر

استضىء بأيهما شئت أيها القارىء الكريم فقد جمعت لك بينهما

إدارة طباعة الجمعية العلمية الإسلامية المصرية بالإزهرية

الكائنة - مكتبها بمصر بشارع رقمة القمح بالأزهر . واطلب منها ما تختار من الكتب القيمة في كل فن . حيث تجتمع السرعة في إجابة الطلب أمانة واعتدالا وناهيك بمطبوعاتها الخاصة - لأعظم الرجال البارزين التي حازت إعجاب المطلع لحسن الاختيار ، ودقة التصحيح ، وجودة الطبع ، والوقوف عند حد العقول في تحديد الثمن ، وهذا فهرس ببعض ما تحويه مكتبها وما طبع لديها : —

جزء بالقرش المصرى

٥ ٤٠ تفسير العلامة أبى السعود (طبع الجمعية) بفهرس بديع

لكل الآيات والمباحث على ورق ساتونيه مجلداً بالقماش

و ٧٠ قرشا للنسخة من الورق الايض الناعم المصقول مجلدة

بالفرنجى المذهب

٢ ٢٠ تفسير نعمه - الله النخجوانى مجلداً بالجزع و ٣٠ قرشا

بالفرنجى المذهب

١ ٥ ترجيح أساليب القرآن ، على أساليب اليونان ، لابن الوزير

التمنى صاحب إشار الحق على الخلق والعواصم والقواصم إمام

الامام الشوكانى و ٧ قروش مجلداً بالقماش المذهب

١ ٧ تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضى عبد الجبار مجلداً بالقماش

٢ ٢٥ البيان والتعريف فى أسباب ورود الحديث الشريف مجلداً

بالقماش المذهب (طبع حلب تام الشكل)

٢ ١٠ من الشفا بتعريف حقوق المصطفى (طبع الاستانة) مجلداً بالقماش

جزء	بالقرش المصرى	
٤	٤٠	شرح الشهاب الخفاجى على متن الشفاء (طبع الاستانة)
٢	٣٠	» ملا على القارى على الشفاء » »
١٨	١٨٠	» الامام النووى على صحيح الامام مسلم ورق جيد تام
		الشكل
١	٤	الكلم الطيب من اذكار النبي ﷺ لابن تيمية
٤	٤٠	النهاية لابن الاثير فى غريب الاثر والحديث مجلدة بالقماش
		و ٣٠ قرشا بالبيروتي مضبوطة بالشكل التام
١	٥	الحامد الثمانية فى الاذكار للسادة الادريسية (طبع الاستانة)
١	٥	بغية السالكين فى التصوف والعبادات للعالم المدنى
١	٣	نيل المراد فى تشطير الهمزية والبردة وبانت سعاد
١	٣	الدرة السنية فى الرد على السادة للامام الدهلوى
١	٣	رسالة السنين فى الرد على الوهابيين لفضية مدير الجمعية
		و ٣٣ عالما من علماء المملكة السيامية (طبع الجمعية)
١	٣	بهجة الجلال ومحجة السكال فى المذموم والمدوح من الخصال
		لل امام ابن بهران جمع فيها ما يقتبس منه كل خطيب و ينفع به كل تقى وأديب و ٧ قروش مجلدة بالقماش المذهب
٢	١٥	العقائد العضدية وعليها حاشية الفيلسوف الاسلامى الكنبوى
		ثم المرجاني ، ثم اخلط الى طبع الاستانة مجلدة بالقماش المذهب
١	٥	العقائد النسفية بحاشية الخيالى وتعليق العصام طبع الاستانة
١	٢٥	شروح وحواشى المنار للامام النسفى ، والعلامة الرهاوى ،
		وعزى زادة حسن الطبع جدا (طبع الاستانة) مجلدة بالقماش
		المذهب أ كبر مرجع فى أصول الفقه
١	١٠	شرح العيني على المنار (طبع الاستانة) مجلدة بالقماش المذهب
١	١٠	منتهى السؤل فى علم الأصول للامدى (طبع الجمعية) ورق جيد

جزء بالقروش المصرى

١	٢	إيضاح سلم الوصول الى علم الأصول وهو خلاصة جمع الجوامع
		لفضيلتى مديرا الجمعية والعلامة ابن حبيب (طبع الجمعية)
٢	٣٠	مجمع الانهر شرح ملتقى الابحر طبع الاستانة بالقماش المذهب
٢	٢٠	الفتاوى الخيرية لنفع البرية طبع الاستانة بالقماش
١	٣	راقى الفلاح شرح نور الايضاح » »
١	١٠	غنية المتعلّى فى شرح منية المصلّى » »
١	٣	متن القدورى مهمشا » »
٩	١٨٠	شرح المذهب للنووى المسمى بالمجموع مجلدا بالقماش
١	١٠	الشرح المطول للسعد على التخليص بحاشية السيد بالقماش
١	٥	» المختصر » » طبع الاستانة ايضا
١	٥	علم المنطق الحديث والقديم ، على النظام الصحيح والنظم القويم
		وهو أبداع كتاب ألف فى هذا الفن ، أدبى تطبيقى ، اجتماعى
		أخلاقي (على ورق ناعم أبيض مصقول) مجلدا بالدوسيه الجيد
		و ٣ قروش على ورق (ساتونيه) تأليف فضيلة مدير الجمعية
		الاستاذ (عيد الوصيف محمد) قرر فى الهند والعراق
٢	٥١	رسالتان فى آداب البحث والمناظرة لمدرسين بالازهر (الشيخ
		جاد صالح ، والشيخ محيى الدين عبد الحميد)
١	١٥	منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين (طبع الاستانة) بالقماش
١	٨	مقامات بديع الزمان الهمداني مجلدة بالقماش على ورق جيد
١	٤٥	مختارات الاديب كامل كيلاني ، أدب وتاريخ (طبع الجمعية)
١	١	ملخص قواعد الاملاء لفضيلة الشيخ إبراهيم سليم المدرس بالازهر
١	٥	الاخبار الطوال فى التاريخ العام
١	٣	شرح المعلقات السبع للزوزنى طبع مصر والاستانة
١	٧	حديث عيسى بن هشام فى الآداب والطرف بالقماش

مصاحف القرآن الكريم بجميع أنواعها

- ١٥ مصحف مجزأ في ٣٠ مجلدا بالمتناز
- ٢ البرهان القاطع في إثبات الصانع وجميع ما جاء به الشرائع للإمام
اليميني العلامة الكبير محمد ابن الوزير إمام عصره
- ٥ المواهب الرحمانية الاحمدية في التوحيد الفلسفي لرئيس معاوف
فلسطين السيد أحمد بسيسو مؤلف حاشية ألغاز ابن هشام
- ٥ شرح مولد البرزنجي للعلامة المتقن والأديب المتقن بسيسو
- ٨ ديوان ابن زيدون الأندلسي بشرح نابغتي الأدب الاستاذين
كامل افندي كيلاني والشيخ عبدالرحمن خليفة لم يطبع قبل الآن
- ٥ ديوان خطب منبرية في سر انحطاط الأمم الاسلامية في العصر
الحاضر يحوى مائتي خطبة من إنشاء أفاضل العلماء الواعظين
وخير الكتاب المرشدين

- ٢ ٨ حجة الاسلام لمصطفى بك نجيب مجلدا بالقماش المتقن
- ١ ٧ الاضداد في اللغة لابن الانباري » »
- ١ ١٠ الزهر للإمام السيوطي في اللغة » »
- ٢ ١٥ شرح ديوان الحماسة تام الضبط » »
- ١ ٣ أطباق الذهب في حكم سيدنا علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه
- ١ ٢ النظرات السبع لحسان فلسطين (قصيدة ممتعة وطنية حماسية
أخلاقية مشروحة تامة الضبط) و ٥ ١ على ورق ساتونيه

اطلبوا منا جميع المطبوعات لاسمها اليمنية فقد ميزنا بكثير منها جصرة العلامة
الجليل النسابة معتمد أمير المؤمنين الامام يحيى السيد محمد بن محمد زبارة اليمني .
وهذه الأثمان عدا أجرة البريد وليصحب الطلب بالقيمة لتعتمده الادارة
(اطلبوا فهرس المكتبة الأكبر سنة ١٩٣١م وفقكم الله وإيانا والمسلمين)

في علم الله تعالى الشاهد يشهد بان ثوبه لو تمزق من قدام كنان يوسف
 هو الخائف ولو كان ثوبه ممزقا من خلف لكانت المرأة هي الحائشة فالله تعالى
 أحله هذا المعنى فلا جرم لم يشغل بدفعها عن نفسه بل وليها ربا عنها حتى صار
 شهادته الشاهدة له على رأيته عن المعصية وتأييده ما في البياض فبذلك
 العبادة والبراب من قوله تعالى شان يوسف عليه السلام ولقد همت به وهم
 ما ذكر الشيخ عي الدين في الباب لسابع والستين وثلاثمائة من الفتوحات
 ان روحه اجتمعت بروح يوسف عليه السلام في بعض سراءات الروحانية
 فقال له يا بني الله ما معنى الاشتراك في اخبار الله تعالى عنك بقوله ولقد
 همت به وهم بها فانه تعالى يعاين فيها ذا ولا يخفى ان اللسان يد على احدية
 المعنى فقال عليه السلام نعم ولذلك قلت لملك على لسان رسول الله ان ليسأل
 النسوة مما ذكرت المرأة الا انما راودتن عن نفسي وما ذكرت اني راودتها
 فانهم ما قلته لك فانه يزول ما كان يتوهمه بعض الناس لما لم يعاين الله تعالى
 فقلت له يا بني الله اللسان يذعن بالاشتراك فقال نعم لكن في اللفظ دون المعنى
 فانها همت بي لتفهم في علمي ما ارادت منه وهمت انا بما لا تفهمها بالذم عن
 ذلك الاشتراك في طلب التفهم مني ومنها فكانت تعال يقول ولقد همت به يعنى

في عين ما هم بها وليس الا القهر فيما يريد كل واحد من صاحبه دليل ذلك قول المرأة
 الآن حصص الحق انا راودته عن نفسه ستعصم وما جاء في قصتي قط انا
 راودتها عن نفسها فارا في الله تعالى البرهان عند اودق القهر في دفعها عنه
 فيما تريد به من وكان تلك البرهان الذي ارا في الله تعالى اني ارفعها او لا
 بالقول الذين كما قال الله تعالى لموسى وهارون فقولا له قولنا انتهي واما
 ما نقله الطاعنون في حقه عليه السلام من الجالس بين رجلي المرأة بقصد
 شرفي وحل نكته الا ان راودته البرهان عما ذكر في وجه الطعن وينسبونه
 الى السلف فلم يصح منه شيء عن احدهم بل الاقوال المنقولة عنهم اذا جئت
 تناقضت وتكاذبت فيما بينها ويأتي عن صدقاتها سابق كلام الله تعالى ايضاً
 فانه قال لنصوف عنه السوء والفحشاء والسوء هو الصغيرة وهي مصروفة
 عنه عليه السلام والا قول المذكورة لو صدقت لدلت على صدور الصغيرة
 البتة والعجب انهم نقلوا في موضع آخر ان جروا دخل حجرة النبي صلى الله عليه
 وسلم وبقي هذا التغيير علمه فامتنع جبرئيل عليه السلام من الدخول عليه
 اربعين يوماً وهذا دعوا ان يوسف عليه السلام حال اشتغاله بالفاخشة
 ذهب اليه جبرئيل عليه السلام واعجب منه قوام ان يوسف عليه السلام

لم يمتنع عن ذلك العمل بسبب روية يعقوب عليه السلام ولا بحضرة جبرئيل
 حتى ركضه جبرئيل ولوان افسق الخاق واكفرهم واوقر الزناة واشطرهم
 واحدقهم حدقة واجلحهم وجها كان مشغولا بفاحشة فاذا دخل عليه رجل
 عالم بالصالحين باقى له عرق يبيض ولا عضو يتحرك وهمنا انهم رأوه
 يعقوب عليه السلام عض على نامله فلم يلتفت اليه ثم ان جبرئيل عليه السلام
 على جلالة قدره دخل عليه فلم يمتنع ايضا عن ذلك القبيح بسبب حضوره
 حتى احتاج الى ان يركضه على ظهره فنسأل الله ان يصوننا عن الغي في الدين
 والخذلان في طلب اليقين ولم يتدين هذا الفرقتين قصته فان الله تعالى
 امدحه واتنا عليه فيما انزل من الكتب الا واين شمر في القرآن الذي
 هو حجة على سائر كتبه ومصدق لها ولم يقتصر الا على استيفاء
 قصته وضرب سورة كاملة عليها ليجعل له لسان صدقت
 في الآخرين كما جعله جده الخليل ابراهيم واليقتدى به الصالحون
 الى آخر الدهر في العفة وطيب الاثر والتشيت في مواقع العتاد واخرى الله
 او اعطاك في ايرادهم ما يردى الى ان يكون انزال الله السورة التي
 هي حسن المقص في القرآن العزيز المبين ليقتدى بنبي من انبياء الله

في القعود بين شعب الزانية وفي حل تكتة الوقوع عليها ووافته منها ربه
 ثلاث امرأة وبصباح ربه ثلاث صبحات بقوارع الزمان وبالتوبيخ
 العظيم وبالوعيد الشديد وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه ولم يستطع
 دفع شيء عن نفسه وهو جاثم في مرضه لا يتحلى ولا ينتمى ولا ينسب حتى يتذكره
 الله بحرئيل عليه السلام ولم ينظر وأهؤلاء الفسرون الخشان امرأة
 العزيز فأنها مع كونها كافرة وغاضبة على يوسف عتبا شديدا
 في تلك الحالة لما شاهدت منه عليه السلام أنه استغصم منها مع أنه
 في عفوان الشباب وكمال القوة ونهاية الشهوة عظم اعتقادها في
 طهارته ونزاهته فاستحيت أن تقول أن يوسف قصدني بالسوء وما
 وجدت من نفسي أن توصيه بهذا الكذب على سبيل التصريح بحيل
 أكنفت بالتعريض فقالت ما جزاء من أراد باهلاك سوءا ومع هذا
 ما صرحت بالزنى بل صرحت بالسوء فجاءت أن يكون مرادها من السوء ما عليه السلام
 على ضررها ومنعها ودفعها عن نفسه فهذا وإن لم يكن سوءا في نفسه
 لكنه لما كان خلاف موضحها صراحا بالنسبة إليها كما زعم السوء فانظر
 إلى تلك المرأة ما صرحت باسم يوسف في قولها ولا بألوانه في احتسابنا

من الأثرة والكذب الصريح وهو لا يخشع لربونه بعد آلاف
 سنين بالكذب الحويثم والمقصود التقييم وينقلون فيه روايات كلها
 أباطيل وخرافات تجبر الأعداء وتردها العقول والأذهان وسيل
 لمن لا يكها ونفقها أو سمعها وصدقها فإن قيل الأقوال المذكورة
 روايات أئمة التفسير الذين أخذوا التاويل من شاهد التنزيل
 فإن لم نقبلها لرؤسنا تكذيب لرواة فكيف حكمتم بالخرافات قلت
 لرؤسنا هالزمن الحكم بمعصية الرسول ولا شك أن صوت الرسول
 من المعصية أو من صوت طائفة من الجاهيل عن الكذب وصلى الله
 عليهم ولنا أن الذين نقلوا هذا القول عن هؤلاء المفسرين كانوا
 صاوتين أم كاذبين وأيضا لا ينافي مدعانا صدق بعض مروياتهم
 لأن ترادف الدلائل على الشيء الواحد جائز فيقول أنه عليه السلام
 كان مستغنا من الزنا بحسب الدلائل الأصلية فلما انقضت
 إليها هذه الزواجر قوى الزنجار وكميل الاحتمال وإذا
 حققت هذا فاعلم أن ما قاله المؤلف
 الجاهل في كتابه المنظوم في قصته عليه السلام من قوله

دشمنی خواست در رفتن بالاس	ولی سید داشت حکمش پاس
زینجا در تقاضا گرم دیوسف	همی انگیزت اسباب توقف
نهاد بر آزاری خویش دستی	یکی عقده کشادی دود بهستی
فتاوش خشم ناگه در میان	بزدش پرده در کج خانه
سواش کرد کان پرده چپیت	در آن پرده نشسته پردگی گیت
بگفت آنکس که تا من زنده بهستم	برسم بندگان می پرستم
بمی تن از زرد چشپش گوهر	دروش طبله پر مشک افش
هر ساعت فتاده پیش اویم	سر طاعت نهاده پیش اویم
درون پرده کردم جای گاهش	که تا نبود لبهوی من نگاهش
زمن آئین بیدینی نه بیند	درین کارم که می بینی نه بیند
چو یوسف این سخن بشنید ز دنگ	کزین دینار نقد نیست یک دنگ
ترا آید بحشیم مردگان شرم	وزین نازندگان در خاطر آرم
من از میانای دانا چون ترسم	ز قیوم توانا چون ترسم
بگفت این وز میان کار برخواست	وزان خوش خواگه بیدار برخواست
الف کرد از دوشاخ لاهم الف دور	راند از گازیمین شمع کافور

موافق لمطلوبها كما هو الظاهر من أول الآيات ولا يختلف في صدره ان آخر
 كلام المذكور يدل على خلاف ذلك لانه قال علي وفق زعم امرأة العزيز لانه قال
 ذلك القول معتقدا قصد الزمن يوسف عليه السلام ولا اصدارا مقصدا
 في كلامه ولو فرضنا انه اعتقد وقوع القصد عند علي السلام بالفعل اقول ان هذه العقيدة
 مخالفة لعقائد اهل السنة والجماعة ومقلاتهم كما عرفت الا انه لما وصلت اليه مرويّا
 اهل الجبر والحشون يتدبر في صحته واستقامتها كما هو دأب لشعرا معتقدها فقال ما قال
 فليس جدم اهل السنة ان يصيدته ويتمسك بكلامه هذا فانهم وآجباب بعض العلماء
 عن الطعن المذكور بان هذا الهم صدر عن يوسف عليه السلام قبل النبوة وقال البعض
 بمعنى النظر بمعنى قوله وهم بما اى نظر اليها وما الى الآخرون الى ان الهم بمعنى
 الهم فغنى قوله تعا وهم بها اى غم امتناع عنها والكل لا يخلو عن الضعف
 تأمل فيه وثالثها اى ثالث الامور قوله تعا فلما جهزهم بجبراهيم جعل
 السقاية في رجل اخيه ثم اذن مؤثراتها الغير انكم تسارقون واجتنبوا
 بانه عليه السلام وضع السقاية في رجل اخيه حقيقة ثم استخرج منه ليقصد بالسقاية
 مع كونه بريئا منها وايضا حبسه عند نفسه مع انه عليه السلام كان عالما بان ذلك
 الحبس سبب كرمادة حزن ابيه واليغفران قول المؤذن ايتها العير انكم تسارقون

انما كان بامره عليه السلام فقيه اثمهم ^{الاخيه} كذا يورثنا فاوان لم يكن بامره فكان
 التاجب عليه انكاره واظهار ربر اثمهم عن هذه التهمة انه عليه السلام ما فعله ^{ايضا}
 مصون وقت فراقه عن ابيه الى وقت وصاله معه ثمانون سنة او سبعون
 او اربعون على اختلاف الروايات ولم يبعث في هذه المدة الطويلة احدا الى
 ابيه ليعلمه بحياته وسلامته وليس هذا الا انقطاع الصلة والمركب لهذه الامور
 مذنب والحوادث انه عليه السلام لما اظهر اخيه انه يوسف قال له اذ ^{جسك} ^{ميد}
 عند ولا سبيل اليه الا هذه الحيلة ان ترضى بها فاقول في حقك فرضي اخا
 بان يقال في حقك ذلك فلم يتألم قلب خيه بهذا الكلام فخرج عركته تامة وايضا
 جازان يكون حبيسه لا خيه باجازه الله تعالى كما يدل عليه قوله كذا لك كذا
 ليوسف ما كان لياخذ اخاه في دين الملك الا ان يشاء الله فلا يكون
 في حبس اخيه ولا في زيادة خزن ابيه ذنب لهذا ولا شتما له علي مصالح
 كثيرة كما لا يخفى واما قول المودن فجازان يكون يكون بغير امره وبغير
 حضوره ويكون تقديرا الكلام فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية
 في رحل اخيه وامهاتهم حتى انطلقوا ثم اذن مودن وجازان يكون
 بامرهم وفي حضوره عليه السلام ويكون مراده انكم تساءلون يوسف عن

ابيه الا انه ما ظهر هذا فكان من المعاريض من الله قته والكذب واما عدم
 الطاعة لبيه في تلك المدة الطويلة فهو ايضا كان بامر الله تعالى ومن تمام تشديد
 على يعقوب عليه السلام والا في يعقوب عليه السلام كان من اكرام الانبياء وبيلا
 جبرئيل وميكائيل وغيرهما من الملائكة فلما لم يستفسر عن حياته ومعاشه وتعيين
 ولكن لما كان منظر الانبياء اجزاء ما قدره الله تعالى عليهم من التشديدات
 والملايا لم يستفسر يعقوب عليه السلام من الملائكة تعيين مكانه صراحة معه شدة
 حزنه بغرفة وغاية تمناه الى لقاءه فذلك كان يوسف عليه السلام مشتاقا الى لقاء
 ابيه غاية الاشتياق وخزن مخزنه كما قيل ان جبرئيل عليه السلام دخل على يوسف
 حين ما كان في السجن فقال ان نصو ابيك ذهب من الخزن عليك فوضعه يد على راسه
 وقال ليت اعلم قلدني ولم اك خزننا على بي ولكن لما كان في علمه تعالى انجار الفرقه
 بينهما الى وقت معلوم لم يتهيئ له السبيل لتوصل يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد
 والدليل على ما ذكرنا ان يوسف اخذ بيد يعقوب عليه السلام فطاف به في
 خزائنه فادخله في خزائن الورد والذهب وخزائن الحلي وخزائن الثياب و
 خزائن السلاح وغير ذلك فلما ادخله خزائن القراطيس وهو اول من عملها قال
 يا بني ما منعك عن هذه القراطيس وما كتبت الي على ثمانى مراحل قال امرت

جبرئيل قال وما تسأله قال انت اسبق اليه متى فاسئله قال جبرئيل امرني
 بذلك لثقتك ان يأكله الذئب وراعيها اي رابع الامور قوله تعالى وقال الملك
 انت في براستخلصه لتقتى فلما كلمه قال انك اليوم لدنيا ملكين امين قال ^{علي} العجلني
 خزانة الارض اني حفيظ عليهم بانه عليه السلام اظهر رغبة الامارة في اول ^{قوات} الملك
 مع الملك وطلبها عن سلطان كافر وطلب الامارة ممنوع قال رسول الله صلى ^{الله}
 عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الامارة فاذا كان طلبها مطلقا ممنوعا
 فمن السلطان الكافر بطريقي الاول وايضا انه عليه السلام قال اني حفيظ عليهم
 ترك الامانة وايضا فيه مدح لنفسه وهما ممنوعان قال الله تعالى ولا تزر كرا
 انفسكم وقال ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غذا الا ان يشاء الله ^{سفع} فيع
 ارتكب الله عنه من الوجوه المذكورة واد كتاب المنهي عنه ذنب والجواب
 ان التصرف في امور الخلق كان واجبا على يوسف عليه السلام لانهم كانوا ^{الله} رسولا حقاقين
 الى الخلق ويجب على الرسول رعاية امور الامة بقدر الامكان وما كان
 يمكنه التوصل الى الرحابة او هذا الطريق وما لا يتوصل الى الواجب الا به
 فهو واجب فكان هذا الطريق عليه واجبا ولا نسلم انه مدح نفسه بل بين كونه
 موصوفا بجائزتين الصفتين النافعتين في حصول هذا المطلوب ليس هذا

صدح النفس وكثرة ولا ترك الاستثناء بفعل فاعله على ايل بيان الحال ^{علي}
 تقدير التسليم فلا نسلم كون المذموم ما مطلقا بل اذا كان الرجل واحدا ايه التواضع
 والتفاخر والنوصل به الى غير ما يحل واما على غير هذا الوجه فلا ولعل السبب ترك الاستثناء
 خوف فوات المطلوب لانه لو ذكر الاستثناء لاعتقد الملك عذم قدرته على ضبط
 تلك المصلحة ^{الله} قال الملك لا جازبا انك اليوم لدينا مكين امين وايضا يمكن ان
 بانه استثنى في نفسه من غير ظهوره للخلق وخامسها اي خاف من قولها تعا وفع
 ابي على العرش وخر واله سجد الخ بان يعقوب عليه السلام كان ابا يوسف عليه السلام
 وحي الابن عظيم قال الله تعا وقضى ربك ان لا نعبد والا اياك وبالنسبة الى
 احسانا فقرن حق الوالد بن حق نفسه لولد يجب عليه تعظيم الوالد لا دليل على ان
 ان يعقوب عليه السلام كان شيخا وكان حده واجتهاده في تلك الطاعة التزم بها ^{يوسف}
 عليه السلام قالوا ^{علي يوسف} ان يبالغ في خدمة ابيه ولا نه من كابر الانبياء
 من العبد فكيف ^{علي يوسف} عليه السلام وان يسجد له يعقوب عليه السلام ^{لده}
 مع ان اسجد له لغير الله تعالى لا يجوز فترده ما يجب عليه والرضى بما لا يجوز له ونب
 والجواب عن هذا الاشكال ما قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء ان معني
 قوله تعا خروا له سجدا خروا لاجل وحده انه سجد الله تعالى وحاصل الكلام

ان ذلك السجود كان سجد الشكر فاسجد له هو الله تعالى الا انه لما كانت
 لاجل وجدان يوسف عليه السلام قال وخروا له سجدا والدليل على صحت ما قلنا
 انه لو كان السجود لله تعالى لسجدوا له قبل الرفع والصعود على العرش لان
 ذلك ادخل في التواضع واما معنى قوله رأيتهم لم يسجدوا لربهم الا
 ساجدين لى اى واحد عشر وكذا والشمس والقمر سجد لله لطلب مصلحة وللسفاعة
 متبصر وقيل في جوابه انهم جعلوا كالقبلة وسجدوا لله شكر النعمة وجدا انه
 كما جاز ان يقال صليت الى القبلة جاز ان يقال صليت للقبلة وقيل في ج
 ان السجدة كانت ليوسف عليه السلام تعظيما له وقية له وقد كانت
 الامم السافنة تفعل ذلك كما تحي المسلمون بعضهم بعضا بالسلام قال
 قتادة في قوله وخروا له سجدا كانت تهبة الناس يومئذ يسجد بعضهم لبعض وفيما في هذا
 ما روي عن صهيديان معاذ لما قدم من اليمن سجد للنبي صلى الله عليه وسلم
 فقال يا معاذ هذا قال ان الاله هو تسجد لعظمائها وعلمائها وديت النصارى
 تسجد لتبسيسها وبطارقها قلت ما هذا قال لو تحية الانبياء فقال عليه السلام
 كذبوا على انبياءهم وقيل في جوابه انه قد يسمى التواضع بالسجود قال الشافعي
 نرى انهم فيها يسجد للهي افره فالمراد انهم تواضعوا ليوسف عليه السلام لان الخوا

حاله فمهما وقع عليه من الاهانات فهو قليل بالقياس الى جرميته التي لا تُغتفر عند اصحاب الشعور اللطيف، وما احراه أن يُنتفى من المجتمع المدني ويكفّن باكفان العار ويوسم بيسم الشنار حتى تتلصص البشرية من افذاره وتتخلص من لآمته وخساسته . وانما يُقدم على هذا المنكر من خبث اصله وهانت عليه نفسه ولوئمت طباعه وفسدت سريوته . ومن جمع كل هذه الشوائب فلأن يستبطن صدور الارض اولى به من ان يكون مستنقعا للوئم والدناوة وغرضاً للمطاعن والمثالب .

على انه قد يتفق ان يعرى المرء من عدة خصال محمود ء كأن يكون هيأباً في مواقف الخطابة أو متردداً في مواضع الحزم والاقدام او رعيديداً في ساحات التزال ، ومع ذلك يبقى له مثلة عند قومه وحرمة عند معاصريه ، لأن جميع هذه العيوب لا تخفف سائر مناقبه ولا تستأصل كرامته من النفوس . واما اذا كان كغُوراً فانما يسقط مقامه وتضعف الثقة به ، ويعدم الثراء والظهور . ويُجرم الأعوان والإخوان، ويعيش وحيداً شريداً ممتهداً مخذولاً، يستصرخ وما من مُجبر ويستترشد وما من دليل . والعايا بالله من شائبة هذه نتائجها ومنقصة يهولك سوء عواقبها

وبديهي أن الشكر يجب ان يكون على قدر النعمة بل على حسب نية المفضل وفراط رغبته في اسداء المعروف ، فاذا رجع الفضل على الشكر وقع التفريط في المكافأة واستحقّ المُفْرِط بعض اللوم .

وهنا مجال لأن نُحرّز من المداينة والمدالسة ، فان كثيرين اذا أسبغت عليهم نعمةً ضافية يشكرونك بلسانهم ، وقلوبهم خلو من شواغر العرفان ، وربما كان شكرهم مشوباً بالازدراء الباطني ، وهنا منتهى اللامة . خفي للمرء أن يطوي الاحسان ويحصد حسن الصنيع من ان يلبس ثوب الرثاء ويتاجر بالمواربة والمخالطة والتملق .

ومن الذنوب التي لا تُغتفر أن يسدل المرء ذيل القموط على سوابق الحسنات وسرافل المنج، اذا تحلّف المُحسن مرةً عن إجابة سؤله وتحقيق امله، لعذر صوابي او داعٍ مقبول . فان ستر النعم والانتقالب على المنعم في هذه الحال لضرب من القحة واللامّة ، واكثر ما يقع ذلك ممن لهم دالة عليك وحظوة عندك ، فانهم يطعمون في

كرمك وحلمك ومحسبك كائنك موقوف على خدمتهم . ولذلك يحمل باصحاب
الندي والاريجية ان يزرعوا عوارفهم في ارض منبات مخصاب تنمو فيها عواطف
الشكر والعرفان فلا يضيع برهم ولا يُبلى في زوايا النسيان .

ومن المقرر ان الفضل الأدبي هو اسنى من المادي لانه يتناول النفس والقلب
والاخلاق ، فالذي يُثير ذهنك ويوسع نطاق افكارك ويهذب طباعك ويفرس في
صدرك اكرم المزايا واشرف الحلال هو افضل ممن يجود عليك بالمال ، لان التهذيب
يُعينك على العروج في مصاد المدينة ويُدنيك من غايات الفلاح ، ويُهد لك عقبات
العلاء . واما المال فاذا كنت جاهلاً لا يُجديك نفعا وربما اوقعك في مهاوي الشقاء
وعرضك لسهام البلاء . ولذلك يتعين عليك ان ترعى في فؤادك اجمل اثر للمحسنين
اليك مُلهجاً بمحامدهم في غدواتك وروحاتك ومردداً آيات فضلهم في كل متددى مع
تصميمك على مكافأتهم لدى سرح القرض . واننا نسوق النصح ولا سيما الى طلاب
العلم ان يذكروا جميل رؤسائهم الافاضل واساتذتهم الامثال الذين هم محبة هدام
وأُسَ نجاحهم ونبراس بصائرهم ودعامة سعدهم ، ولولاهم لتكاثفت غمام الجهل في
اذهانهم وتراكت جرائم الفساد في البايهم واستوطنت الترهات عقولهم حتى اصبحوا
من آفات المجتمع وعاهات الوطن .

وكذلك نخض الأبناء على ان ينطلقوا في ميدان الثناء على مكارم ابائهم الذين
مهّدوا لهم عقبات الفلاح بما بذلوه في جنب تربيته من الهمة والغيرة ، وما تحمّلوه من
النفقات الباهظة على تعليمهم . واننا يقومون اليوم بهذا الواجب المقدس اذا شتموا
عن ساعد الجذ التقاطاً لدرر المعارف وفرائد الشمائل ، وبرهنوا بحسن مساعيهم انهم من
اطوع البنين واخضعهم لاوامر والديهم واحرصهم على مرضاتهم واغبرهم على
سعادتهم وراحتهم ، فان الشكر اصدق ما كان مؤيداً بالعمل ومقروناً بحسن الجزاء ،
ولا خير في العرفان اذا كان مصدره اللسان لا الجنان ، وما اقبح الشكران اذا زال
يزوال النعم وانقطع بانقطاع الاحسان .

الصحة

هي من أجل النعم التي منَّها الله على الانسان ، اذ عليها مدار الراحة والهناء ، ويدونها لا يطيب عيش ولا يصفو بال . والمرء لا يعرف قيمتها الا متى فقدها ، فتنتابه اللعل وتُذيقه الأمرين . فكم من ليلة يطويها الليل بدون ان تذوق عيانه طعم الرقاد ، لما يقاسيه من الآلام المبرحة التي يضيق معها الصدر وينفذ الصبر . وكم من نهار يكون في عينيه اشد سواداً من خُمة الظلماء ، لما يشبُّ بين أضلعه من نيران الاوجاع المذيبة التي تُفقدُه الرشد والصواب .

ولو دخلت الى فؤاد احد المومنين بعد اعتلاله ، لرأيتَه يذوب حسرةً علي فقدانه صحته الغالية التي اصبحت في نظره اثن من الذهب الوهاج المُودع في خزائنه ، بحيث كان يؤثر ان يَحْصِر ماله على ان يَحْصِر صحته ، اذ عرف بالاختبار ان المال لا يُجديه أقل نفع بعد تضعُّع ركن عافيته . ولا تعجب اذا غبَّ المَثْرُون اهل البؤس الاصحاء الاجسام السليمة البنية ، ولو كان في طاقتهم ان يشتروا صحتهم الناضرة بكل ما لديهم من النقود لعدوها صفقة رابحة . كيف لا وهم كَلَّمَا أَلْقُوا نظرة على ما لديهم من الاموال يتلهفون أيَّ تلهف ، اذ لم يبقَ في مكتبتهم ان يصرفوها كما كانوا يصرفونها بالامس في سبيل ملذتهم وترفهم ، بل اضطرتهم الحال الى ان يتفقوها في التطبُّب والتعالج وتناول الأدوية التي تنفر من مرارتها نفوسهم المعتلة وقلوبهم السقيمة . فالى جميع هذه المغبات نظر العقلاء بأذهانهم النفاذة فارتفعت منزلة الصحة في عيونهم واشتدَّ حرصهم عليها .

ومأ يجب التنبُّه له أن اللعل متى نهكت الاجسام ، وأوهنت القوى ، وأخرجت الصدور ، تسوء اخلاق الليل ، فيتجنَّب الناس معاشرته حتى اهله وخلَّانُه ، بما يزيده بلاء على بلاء . وغم على غم ، فيقضي أوقاته معتزلاً ، وما اصعب العزلة مع تباريح العلة . واذا اراد ان يدفع وحشته بطلاعة ما يُؤنسُه ، فهيات ان يفهم ما يتصفَّحه ، لان العقل يعتلُّ باعتلال الجسم ، ولذلك جاء في المثل المأثور : ان العقل السليم في الجسم السليم

واننا لنأسف أشدَّ الأسف على ان السواد الاعظم من اهل وطننا لا يوعى القواعد الصَّحيَّة ، بل يُسرف عافيته كما يسرف المتلاف ماله بدون شفقة كأنَّما لا قيمة لها . ومن الناس مَنْ يُنفقون هذا الكثر الثمين في ميدان أهوائهم ، ولا يصحُّون من سكرتهم الا بعد ان تكون قد حملت عليهم الاوصاب والأدواء بجيوشها الجَّاراة ، فتدخل اجسامهم الواهنة بدون ادنى معارضة وتفتك بها فتكاً ذريعاً .

وممنهم مَنْ يَنكَبُ على حشد الاموال انكباباً مُجهِّداً ، فيجمع منها نصيباً كبيراً لا يلبث أن يُنفقه على مداواة العلل التي بطشت بجسمه ، بعد تجشُّم الانصاب والمشتات في سبيل الأصفر الرئان ، حتى يصبح صفر الدين . وهَبْ أنه لم يصرف كل ما جمعه على معالجة أدوائه ، فان النقود التي تبقى في صندوقه لا تريده الا تنفجماً ، اذ يرى نفسه عاجزاً عن التمتُّع بشمرة تعب الطويل . وأية غصَّة أشدَّ من هذه الغصَّة بل أية نغصة أوجع من هذه النغصة .

وممنهم مَنْ يفقد صحَّته في معاناة الاعمال العقلية على غير تبصُّر بالعواقب ، فلا يُولي جسمه قسطاً من الدَّعة والراحة حتى يتزل به الداء فيقعده عن كل عمل ، ويجرمه كلَّ لذة ، فيدفن معارفه في صدره ويقضي بقية ايامه بالعذاب والألم . ولو أنَّ هذه الفئة راعت النظام المنطبق على الحكمة في ما زاولته من الاعمال الفكرية المذنبية للدماغ لتسنى لها ان تُفيد بلادها بمعارفها الغزيرة ومداركها الواسعة ، وما ذوت أغصانها الناضرة في ربيع الحياة ومِيعة الشباب .

على أننا نرى عدداً كبيراً من المجاهدين في سبيل الله او خدمة بلادهم يُضخَّون بصحتهم وراء ما يتوخونه من نبيل الغايات وشريف المقاصد . ومنهم من يجود بروحه دفاعاً عن شرف دينه او ذوداً عن حوزة وطنه ورفعاً لشأنه . فهؤلاء هم الجديرون بكلِّ إطراء وإعجاب ، بل الحرثيون بان يُخلَّد ذكركم على صفحات التاريخ حتى يقتص آثارهم ويقتفي معالمهم مَنْ يعقبهم من الاخلاف . وأية ضحية اعظم من ان يبذل المرء انفس ما عنده في ساحة الجهاد او في جنب مصلحة الجمهور .

ونحن نقف عند هذا الحد من البيان في هذا الموضوع الخطير لضيق المقام على امل ان نعود اليه ونوقيه حقه من الإسهاب في المقبل ، اذ لا يغرب عن بصيرة احد

ان الوطن لا يرقى الى رابية العز والمجد الا على سواعد الشبان الاقوياء البنية الناضري
العافية الصافي الذهن الناهضي الهمة . وبهذا القدر غنى للمستبصرين الالباء .



المدرسة

منبت الرجال العظام

المدرسة هي مقياس كل أمة من الحضارة والعمران ، وعنوانها من المجد والعز
والسودد والعرفان . فاذا بلغت حدّها من الترقى والكمال ، وأتحفت العالم بعدد كبير
من نوابغ الرجال ، أدركت الأمة المدى البعيد من الشهرة ، واستقرت قدمها على
قمة المجد والفلاح ، وعزّ جانبها في كل صقع ، ونظرت اليها الابصار بعين الاعجاب
والاحترام . ولنا بما ورد على صفحات التواريخ من تراجم العظماء الاعلام أعدل شاهد
على ما نحن بصده . فان الغزاة الابطال الذين دوّخوا الارض وسادوا في الدنيا
وصالوا ، انما جنوا ثمرات النصر بفضل الدربة التي بلغوها ، والبسالة التي نشأوا عليها
في المعاهد العلمية . وكذا قل عن الجنود الانجاد البراسل ، فان الوطنية التي غرسها
اساتذتهم الأباة في صدورهم هي التي حبّبت اليهم تجرّع كأس المنيّة في ميادين
القتال ، ذوداً عن شرف بلادهم ودفاعاً عن ذمارها .

وبديهي أنّ لكل أمة مزية تمتاز بها عن سواها ، فان الفرنسيين مثلاً يشهد
لهم تاريخهم المجيد البطولة ومضاء الغزوة والجرأة والاستماتة في سبيل الشرف ، حتى
لقد يستصغرون المنون في هذه السبيل ، ولا يعابون بالاختار والاهوال ، وذلك بفضل
الحمية التي تجري في عروقهم والحماسة التي تترج بدمائهم ، مما توارثوه نسلًا فنسلًا حتى
اصبح من مزاياهم المميّزة . ولا مرية ان الذي انشأ فيهم هذه المناقب الفريدة انما
هو المدرسة التي من ثديها يتعضون لبان الإباء ، ومن معينها يستقون مكارم

الاخلاق . . واذا رأينا في أمة اعوجاجاً في طباعها وخللاً في عاداتها وفساداً في تربيتهاء فانما منشأ ذلك المدرسة التي يتخرج فيها بنوها. ولذلك تبذل الدول الرشيدة قصارى مجهودها في اصلاح مدارسها اذا رأت فيها شوائب تشينها ومفاسد تُشَوِّرُ حِيَّاهَا وتكدر صفائها ، فلا يمر زمن حتى تسد ثلمتها وتندارك علتها وتصلح ما اختل من نظامها . ومن العلوم ان الامم الحية يكون مبلغها من التقدم بقدر صفاء مناهلها العلمية التي هي مرآة مدنيته ومظهر احوالها . .

وانه ليروتنا ان زى المعارف قد اخذت تتألق بدورها في سماء بلادنا من نصف قرن ونيف، فرأينا فيها المنشئين البلقاء ومصاقع الخطباء والعلماء المحققين والشعراء الفلقين وارباب الصحافة النابغين والمؤلفين المدققين الذين خلّفوا في خزائن العلم والآداب آثاراً رائعة تحدّث عن مقدرتهم العلمية عصرًا بعد عصر ، غير اننا مع ما عرفنا به من الذكاء النظري لم نقو حتى اليوم على مجازاة الامم التجبية التي حلّت في سماء الاختراعات ، فأحدثت فيها كل غريبة مذهشة بل كل معجزة تقف الاذهان عندها حيارى . ولقد رأينا الحرب العنوش التي طوينا صفحاتها السوداء بأيدي مرتجفة بعض تلك الاكتشافات الغريبة التي يكاد لا يسلم بها العقل لولا ثقته بمقدرة العربي العجيبة الذي خرق ببصيرته الثاقذة حجب الحقائق ، وشق ستور الاسرار وحل رموز الطبيعة ، وكاد يأتيك بالآيات الينّات فضلاً عما ابدعه من الاستنباطات العصرية التي لم يكن يحلم بها العقل البشري قبل القرن العشرين الذهبي . وإن المجال لأضيق من ان يستوعب تلك الغرائب التي انبثت فكرته المخصاب وهمته الناهضة ونفسه البعيدة المرامي . على انه اذا فالتنا معرفة جميعها فلم تفتنا معرفة بعضها ، وهو كافر لان يخلب بصائرنا قبل ابصارنا حتى لا نتمالك عن ان ننظر الى اولئك المخترعين وهم من أبناء جنسنا ، كأنهم قد جُبلوا من غير طينتنا ، او أُوتوا من المواهب الفائقة ما لم نُؤْتَهُ نحن . ولو سبرنا غور عقولهم لرأينا في ربوعنا الشرقية من امثالها بل أثق منها ، كيف لا والغربيون أنفسهم يشهدون لنا بالذكاء المتوقد ، وانما نحن تفوتنا الوسائط المتوفرة لديهم ، وأحسب العلم الذي بلغ عندهم ابعد مبلغ من الكمال ، في حين انه لا يزال عندنا في مهده . فاذا ربي الشرقي تحت سماء المغرب ، وارتضع افاقين

المعارف في كلياتها العالية بزرّ العربي ورجح عليه ، وكان بين اقرانه من المبرزين السباقين الذين لا يُشَقُّ لهم غبار ، كما يؤيد ذلك كل من أُتيح لهم الحظ لأن يتلقوا العلوم والفنون في مدارس اوربا الراقية وهم اكثر من ان يُحصوا .

ومن الاسباب التي قضت علينا بالتقهقر والتخلف في ميدان العمران والمدنية الصحيحة ، وكان حائلاً بيننا وبين التبخر في مذاهب العلاء والعز والترقي الحقيقي ، انما هو الحُلل البين الواقع في تربيتنا الاجتماعية الناشئ عن الحُلل الذي زاه في تربيتنا المدرسية ، وهو الذي اورثنا تلك الادواء العُضالة المتفجئة في اخلاقنا وعاداتنا واذواقنا وميولنا بحيث اصبحنا ، ونحن من وطن واحد ، شعباً شتى وأحزاباً متفرقة ، لا نُفكر ألا في خراب البلاد وتقويض دعائم الالفة والوثام فيها ، وإضرار نيران التشاؤم والتباغض والتنافر بين اهلها ، حتى أمسينا وكأننا خارجون من برج بابل من عهد قريب ، لا تفهم الفنة منا لغة الأخرى ، بل تأتي ان يقع فيما بينها التعارف الموجب للتآلف . ولا جرم ان الكوارث الدهماء التي تُعدُّ من المفجائع الموبقات ، انما حلت بنا بسبب التعصب الذميمة الذي درج وترعرع في أحضان المذاهب الدينية ، بحيث ينظر ابناء كل مذهب الى أتباع المذهب الآخر كما ينظر العدو الى عدوه . وكيف تتآخى القلوب المتنافرة ، او تتعاقد الارواح المتصارمة ، أم كيف تتصافح تصافح الولاء والاخاء تلك الايدي التي تحرّكها عوامل الكره والحسد والعداء ، أم كيف تسعى الى المصلحة الوطنية العمومية تلك الأقدام التي تغلي في صدور اصحابها مراحل النفرة والبغض من عهد عهيد .

ان الاصلاح في بلادنا هو في الوقت الحاضر من اشق الامور وأوعر العقبات ، ولا قيل به الا للمدارس التي يديرها رجال حكماء عقلاء ، قد استوفوا نصيبهم من الاختبار وربوا على بادئ الديمقراطية السليمة ، التي تعلّمهم كيف يبشّون روح الاخاء بين طلائعهم المختلفي المذاهب حتى ينشأوا ، وهم اخوان في الوطنية ، لا يشعرون بذهبيهم الديني الا في معابدهم وجوامعهم ، وليس لهم رابطة الا الوطن وحده . ومن البعث ان نرمي بأبصارنا الى هذه الغاية التي هي غاية الغايات ، بدون ان نهج هذا المنهاج القويم ، نابذين من قلوبنا كل ما يدعو الى التفور والانقسام . ونحن الى الاتحاد

أُحَوِّجُ منّا إلى العلم ، لانه أية فائدة لنا من المعارف اذا وهّت بيننا اسباب الولاء ، وانطوت احناء صدورنا على الشحنة والبغضاء ، أفلا يكون الجهل مع التحزّب الديني الاعمى أولى من العلم وأخفّ ضرراً ، لأنّ المتحرّز يتخذ من علمه سلاحاً يحارب به مَنْ يخالفه في المذهب الى ان يستحكم النزاع بينهما ويتطايّر الشرر الى الرّاع ، وهنا الطامة الكبرى .

فاتقوا الله يا ارباب المعاهد في الناشئة الموكولة رعايتها اليكم ، واعلموا ان مهمتكم خطيرة يناقشكم الوطن عليها الحساب . فلقد دخلت البلاد اليوم في عهد جديد ، ومن الضرورة ان تُروّنا ثابتة جديدة متخلّقة بغير اخلاقنا ومتزعة على غير عاداتنا واخلالنا ، وإلّا فأفقلوا مدارسكم ، فلا تُثقلوها خير من ان تُعرّضوا الملامة العتلاء في أمّتكم ، فينظروا اليكم نظرههم الى الحوّنة المارقين . .

هذه هي نصيحتنا نسوقها الى رؤساء المدارس واساتذتها ومديرها ، لافتين اليها انظار خطابتنا وعلمانا وأرباب الصحافة فينا الذين هم قادة الرأي العام ، يتصرفون في أعنة الخواطر على ما يشاؤون . فاذا كانت المعاهد لا تروّنا في صدر نهضتنا المخترعين والمكتشفين والمستنيطين ، فلا أقلّ من ان تُوحّد قلوبنا وتؤثّف عواطفنا ، وتجعل منا على اختلاف مذاهبنا وطبقاتنا وترعاتنا ، كتلة واحدة تعمل لخير الوطن وتعزيزه وانهاضه من دركات الحمول الى رابية الشهرة والنباهة . وما من شيء على ذوي الهمم الشمّاء وارباب النخوة القومية بعزير .

المهنة

لا يكفي الوالد ان يُعول بنيه على وجه لائق بمقامه موافق لحاله ، بل عليه ان يعلمهم من المَهَن ما يُعينهم على الارتاق والتعيش بطرق شريفة ويُقوِّمهم في المستقبل على القيام بشفقات عيالهم مما يستدرونه من المهنة التي اقتبسوها . ومهما بلغ المرء من بسطة اليد والخنض والسعة فلا مندوحة له عن ان يُحِبَّ الى بنيه العمل ويعودهم السعي وراء الرزق ، ولا عذر له في ما لو اغضى عن تعليمهم احدى الحرف التي تفتح في وجوههم ابواب الاكتساب اعتماداً على ما لديه من الاموال ، فان الله قد حتم على البشر جميعاً بالسعي وراء معيشتهم اذ قال لابينا الاول : بعرق جبينك تأكل خبزك .

وجميع الحكماء في الدنيا لا يدخرون وسعاً في حث بنينهم على النشاط والدأب في العمل علماً منهم بما ينجم عن ذلك من الفوائد الجليلة لهم ولاولادهم ، فضلاً عن انهم بهذه الطريقة يحثون لمر بنينهم بحيث اذا دارت عليهم الدوائر فأفقدتهم اموالهم لم تُغلق في وجوههم ابواب الارتاق بل ربما تمكَّنوا بفضل الحرف التي تعلموها من ان يستردوا الاموال التي خسروها ويسترجعوا المقام الذي كانوا عليه في المجتمع المدني . ولذلك زى على القوم بل الملوك والامراء وارباب الثروة العريضة يبذلون قصارى المجهود في ان يعلموا اولادهم الفنون الجميلة والمهن العالية حتى اذا قلب لهم الدهر ظهر المِجَن لم يعدموا وسيلةً يتسببون بها الى الارتاق خوفاً من ان يصبحوا على عاتق البشرية حملاً قادحاً او ينظر اليهم الشامتون بعين الازدراء . ولأن يكنَّ المرء ويدفن في ظلمات الرموس خير له من ان يحتاج الى غيره ولا سيما في الشؤون المعاشية . وانه لياخذنا العجب العجيب من ان اغلب المثَّرين في بلادنا يتقاعدون عن تعليم بنينهم احدى الحرف حذراً من ان يُنسبوا الى البخل والطمع ، أو خوفاً من ان يقال عنهم انهم يزاحمون الطبقة العاملة في ميدان الكد والكسب ، وقد فات هذه النعمة النبية ان العار كل العار في اهمال شأن اولادهم الى حد أن يشبوا اغراراً ولا شيء يشغلهم عن ملاهيهم واهوائهم ، فيصرفون ايام الشبية في ما يُتزل عليهم المحن

والشدائد ويكسبهم الحزى والوبال، وربما انقدوا ثروة آبائهم في سوق التعطل والبطالة، فيعيشون فقراء تطحنهم انياب الفاقة وتنشهم مخالب العوز، ولا مورد لهم يترقون منه ولا مهنة تدرك عليهم، فيتضورون جوعاً، ثم ينقلبون على والديهم ويسددون اليهم سهام التعير والتبكيت لاغفالم تربيتهم في عهد حدائتهم وصرف النظر عن امر مستقبلهم.

فماضٍ هؤلاء الاغنياء لو علموا اولادهم في صغرهم مهنة ربما اضطروا الى الاستعانة بها في الايام المقبلة، اما يتحوطون بذلك لامورهم وبينون سداً منيعاً يحول بينهم وبين العدم والعسر. وهب انهم لا يفتقرون اليها فاي اذى يلحقهم من تعلمها. او يخفى عليهم ان الدهر لا يسلم احد من كوارثه معها علا مقامه وغزرت ثروته وتوطد عزه. فكهم من بيت عريق في الحسب بعيد المدى في الغنى قد ذك في هذه البلاد من أسه لتفاضي اربابه عن تعلم الحرف، وكمن بيت كان الفقر مخيماً عليه والشقاء مكتوباً على جدرانته والحمول مشدود الاطتاب في زواياه، قد احرز اهله بفضل المهن التي زاوولها ثروة لا تُحْد، وجاهاً بعيد المتناول ومقاماً باذخاً لا يُطاوَل. واذا كان المتمولون واصحاب اليسر لا يُعذرون في عدم تعليم بنينهم الحرف فما قولك في اهل الفاقة والعوز، وهم من اخرج الناس اليها واشعرهم بمفوائدها. فكهم من الآباء السيئ الحال يتركون اولادهم في الازقة كالهمل التي لا داعي لها، فيتشربون من الرعاع سم الفساد ويروون على المخازي ويتعرعون على الاخلاق اللئيمة والحلال الدنيئة. فاذا احوجهم الامر الى التعيش ضاقت في وجوههم الحيل فيلتجئون الى النهب والسلب او غيرهما من ضروب المنكرات، توسلأ الى المعيشة حتى تتساقط اللعنات عليهم وعلى آبائهم من كل فم. فاي اصلح لك ايها الوالد اتعلم ولدك حرفة تغنيه عن التسول وتكفي الناس مؤونة شره، ام اهمال امره حتى يعيش لصاً ثنياً شريراً ويموت ذليلاً خسيساً. روي ان حكياً مر بغلام بطل متعطل فقال له: يا هذا دع البطالة فان الله يحب من يعمل، وماتعطل احد قط الا ذاق من تعطله شر المصائب.

فاعتبروا ايها الاباء واخشوا سوء العواقب وارحموا صغاركم ومهدوا لهم اسباب الراحة والسعد في هذه الدنيا وذلك بتعليمهم مهنة توفر لهم اسباب المعيشة وتقيهم

غدرات الزمان وتقلبات الايام . ولأن تورثوهم مهنة ملائمة لحالتهم اصلح لكم ولهم من ان يُخَلَّفُوا لهم مالاً لا بد من ان يبذروه في المحظورات آجلاً او عاجلاً اذا لم يكن عندهم مهنة تُلهيهم عن المذاهب الموبقة والناحي المخجلة . فاذا انتصحتهم جنيت ثمرة الانتصاح والا حصدتكم شوك الندم وذقم الحنظل . ولا اخالكم الا منتصحين رحمةً لبلاد انتهى بها التواني الى شفير الذل والفقر، وانقلب بها الكسل اي منقلب حتى باتت تنظر الى هاوية التمس والاستبعاد بطرف هياب وقلب خفاق .

وهنا لا بد لنا من كلمة نوجهها لكل والد لا تساعده حاله على تعليم بنيه العلوم العالية : ايها الوالد متى انهي ولدك دروسه في المدارس الابتدائية ولم يكن في وسعك ان تدخله المدارس الكلدانية لضييق ذات يدك، فابذل الجهد ان تعلمه مهنة يرتقى منها في المستقبل وتوفقه لان يكسب لأسرته المقبلة ، وإلا تُذنب اليه ذنباً تشعر بفظاعته عندما يصبح عتيلاً عليك وعلى بلاده . وإياك ان تضعه في محل لا يتعلم فيه شيئاً يصلح حاله ويضمن له النجاح في المستقبل ، كما يفعل بعض الآباء الاغرار الذين يُقَيِّدون بنينهم بالخدمة في بعض البيوت او الفنادق طمعاً في اجرة زهيدة يُصيبونها في مقابلة عملهم ، فيقصون هنالك بضع سنوات حتى اذا بلغوا السنة الثامنة عشرة تعذر عليهم ان يحترفوا حرفة تفتح امامهم مذاهب الارتقاء الفسيحة ، فيقصون عمرهم في الاستخدام بدون ثمرة ويعيشون في الضنك والتقتير . وهل من غباوة اعظم من غباوة الاب الذي يضيع اوقات ولده في مثل هذه الخدمة الوضيعة . أو يليق به ان يصرف ولده ايام حداثته في ذلك المحل الذي تقيد بخدمته حيث يقضي نهاره بين كئسه ورفع النبار عن سلعه ، وبين استيفاء ديونه وقضاء اغراض لا فائدة له منها . . تلك حال اكثر الاولاد الفقراء في هذه البلاد ، فانهم ينخدعون بالبلغ الزهيد الذين يوَدِّى لهم ولا ينتبهون لخطاهم الا حين لا ينفعهم الندم .

فاذا اردتم ايها الآباء ان تؤسسوا لبنيتكم مستقبلاً سعيداً فاعلموهم من صغرهم حرفة تُغنيهم عن الالتجاء الى غيرهم ، وثقوهم على عيالة اسرة كبيرة يُربونها على طريقة تنفع وطنهم . ورب حرفة اورثت صاحبها الشرف ودفعت عنه آفات العمر وأقصته عن مهاوي التلف .

اقسام المهنة والحكمة في اختيارها

المهنة قسمان يدوية وعقلية ، فاليدوية ما استلزمت مزاولتها عمل اليدين ، بل ما اشترك فيها العقل والجسم معاً من مثل فن التصوير والموسيقى والنحت والجراحة والصياغة والحياكة وغير ذلك من الحرف . واما العقلية فهي التي تنفرد بتعاطيها العقل كفن المحاماة والهندسة وعلم الفلك والفلسفة والرياضيات وما شاكل ذلك . وكلا القسمين لم يبلغ في بلادنا مبلغ الاتقان ، ولذلك نرى النجاح بطيئاً فيها والثروة زهيدة وارباب الاعمال يشكون من كساد تجارتهم وعدم الاقبال على مصنوعاتهم ومنسوجاتهم ، في حين ان الامم الراقية هي القابضة على اعنة التجارة وقد ذهبت في عالم الاختراع كل مذهب ، ونحن مقيّدون بالأساليب القديمة ، ينسج الولد في صناعته على منوال ابيه ولا يتقدّمه خطوة في ميدان التفنن والتجود . وكان علينا بعد ان انتشرت المعارف في هذه الاصقاع ان نحاري الشعوب الناهضة في مجال التألق والابداع ، ونحلّ ايدينا من أغلال المحاكاة المُقعدة عن التقدّم ، ولكن تمسكنا بالقديم هو الذي اوقفنا عند هذا الحد حتى بتنا ننظر الى الغربي بعين الدهشة وهو لا يفوقنا ذكاً . ولا جلدًا . واذا تقصّينا في البحث عن جودنا تبين لنا ان هنالك ما عدا التشبه الأعمى اسباباً جمة اخصّها عدم اتقان مهنتنا ، ودفع اولادنا الى تعلم المهن التي ليس لهم ميل اليها ، فيقبلون على تعلّمها بكره ، وهم خالون من الاستعداد الفطري حتى لقد يقضون السنين الطوال في مزاولتها بدون ان يجروا شوطاً في ميدان النجاح . فاذا سألت احد الآباء ماذا يريد ان يزاوله بنوه الصغار عند بلوغهم سن الرشد اخذ يعيّن لكل مهنة على ميله هو ، ولا يلبث ان يُبرز عزمه الى حيز الفعل ، فيعلّم هذا الطب وهو ميّال للتصوير ، وذاك فن المحاماة مع رغبته في فن الموسيقى . واذا اتفق ان ساق احد اليه النصيحة ليركّك كلاً من بنيه وشأنه ، فيختار المهنة التي له ككفّها قابل نصحه بالازدراء .

على ان بعض الابناء المومنين ينتهي بهم الحق الى ان يحسبوا من الغضاضة

والعار ان يتعلموا احدى المهن تحوطاً لتقلبات الدهر ، فيصرفون أيام الصبا والشباب في اللعب معتمدين على ثروة آبائهم، حتى اذا انقلب عليهم الزمان ونسف بناء غناهم عضوا اصابعهم ندماً . ومن السيدات المثریات مَنْ يحملنَّ الكِبْرُ على تنفير بناتهنَّ من تعلم الحياطة وفن الطبخ والادارة المنزلية وعلم الاقتصاد اِتِّكالاً على ان البائنة (الدوطة) التي يرثنها عن والديهنَّ تُغنيهنَّ عن هذه الفنون التي لا غنى للمرأة عنها مهما اتسعت ثروتها ، فيُزَيِّنَّ لنفوسهنَّ أنَّهنَّ بالمال يُمكنهنَّ ان يستخدمنَّ مَنْ يشأن من الخدم والحاديات لقضاء حاجاتهنَّ البيتية ، حتى اذا تزوجنَّ وكنَّ جاهلات للامور المنزلية، فيصرفنَّ حياتهن بين آلات الطرب وفي اندية الانس متقاعداتٍ عن تدبير منازلهن ملقين تبعه ذلك على الخدم والحشم ، والله اعلم بما يكون وراء ذلك من سوء العواقب ولا سيما اذا غادرت السيدة منزلها وانصبت على موائد القمار تاركة الدار تنعى من بناها . .

وكنّا ننتقن لو انحصرت الكبرياء في نفوس هذه الطبقة الغنية ولكننا نرى كثيرين من الاباء الفقراء تترفع نفوسهم عن تعاليم بنينهم المهن اليدوية ، كأن هذه المهن تقض من قدر اصحابها او تكسبهم عاراً ، فتدري الزرّاع يستنكف من ان يكون ولده مثله زرّاعاً ، فيعمل الليل والنهار في كسب الاموال حتى اذا تمها له مبلغ يستعين به على تعليم ولده في احدى المدارس العالية يضعه فيها سنة او سنوات ، ثم يشعر من نفسه بالعجز عن القيام بالتفقات اللازمة لولده حتى يُتجزدروسه، فيُخرجه منها وهو لم يتلق من اللغات والعلوم ما يساعده على تحصيل معاشه ، فيضطر ان يُعيده الى الحقل وهناك لا تسلم عما يقع بينهما من الخلاف اذ يتصور الولد انه اصبح ارقى معرفة من ابيه ، وان العلم الذي اذخره في صدره يُجلبه عن ان يُمسك بيده المولود ، فيقضي أيامه والحيزرانة تهتز في يده ، ويمشي على الارض وهي تنث من وطأة كبريائه . فما ضر هذا الاب لو انفق الاموال التي اقتصدها على تعليم بنيه في احدى المدارس الزراعية حتى اذا اتقن علم الزراعة عاد اليه حاملاً من نتائج معارفه ما يُسمى زرعه وضرعه وقوتيه الارض ذهباً ونضاراً . ألا ترى القروي في الغرب كيف يستنبت حقوله على افضل الطرق الفنية مجتنباً منهارياً كبيراً ايضاً له ولبنه سعة العيش .

فاذا جلت في اسكواخ القرويين رأيت من حولها رياضاً غناء حافلة بانواع الطيور
والمواشي ، وهم بجالة هنيئة يحسدهم عليها كبار الاغنياء . . . ومن اكبر آفاتنا اننا
نتشبه في اقتباس المهن بسوانا الى حد يورثنا البلاء . فاذا رأينا احدا قد نجح في
دراسة فن الطب مثلاً نشط اكثرنا الى تعليم بنيه هذا الفن حتى تصبح البلاد وفي
كل قرية منها اطباء ، والسعيد فيهم من قام بنفقات معاشه فيضطرون الى الجلاء
عن اوطانهم . وكذا قل عن سائر الفنون التي كسدت أسواقها في انحائها بسبب اقبال
الطلاب عليها . على اننا لا ننكر ان هذا التشبه طبعي في البشر ، الذين دأبهم
التنافس والتحدي ، ولكننا نحن نسيء التصرف فيه ، اذ نكتفي بأن نفتص آثار
غيرنا بدون ان نتفن ونتناق في المهنة التي انصينا عليها ، فيحصل من هذا التراحم
لجميع ارباب هذه المهنة أيبئ ضرر . أما الغربيون فاذا رأى احدهم تاجراً اصاب ثروة من
الصنف الذي يتجربه ، واداد ان يفتح محلاً للمتاجرة في الصنف نفسه ، بذل
مجهوده في مسابقة اخيه في تحسبه ، او اقتصر على جلب الصنف العالي في حين
ان زميله يتاجر بالصنف العادي . فبدلاً من ان نتمسك نحن على هذه الطريقة المثلى ،
نأخذ في التراحم حتى يشملنا الاذى جميعاً . وكان الأولى بنا لو كنا من العقلاء ، أن
نبحث عن غير صنف او تاول فنأ جديداً ، فنصيب من ذلك ارباباً طائلة . وهكذا
تعم الفنون في البلاد ، ويجزل المكسب بدون ان يُعس احدنا بأذى .

ومما يوجب الأسف الشديد ، ان كثيرين من الآباء الاشحاء يقلعون عن تعليم
بنينهم مهنة لائقة بمجالتهم ومقامهم ، ضناً بالدنانير التي في ايديهم ، فيكتفون بوضعهم
في مكتب عادي ، حتى اذا ألثوا فيه ببعض العلوم اخرجوهم منه ، وهم عاجزون عن
التجارة بما تلقنوه ، فيسدون في وجوههم باب الفلاح . فبئس المسلك الذي يسلكه
هؤلاء الآباء ، فانه غاية في الحرق ومضاره اكثر من ان تُوصف . فلو كان عندهم
شيء من الحكمة ، لبذلوا الاموال في تعليم بنينهم بكف ندية ، لانه خير للولد ان
تورثه علماً من ان تورثه مالاً ، لان العلم يجلب المال والجهل يبدده مها كان غزيراً

فاذا كان في قلوبكم أيها الآباء شفقة على بنيكم فلا تتفاضوا عن تعليمهم
مهناً توفر لهم اسباب الارتاق . ولتكن هذه المهن موافقة لحالتكم ، ولا تبالوا

بالتفقات التي تُنفقونها في هذه السبيل ، فانهم اذا ترعرعوا وتزلوا الى ميدان العمل كافلوكم اضعافاً على ما كابدتم في جنبهم ، وذكروكم بالحمد والثناء ، واستزلوا عليكم بعد مما تكلم غيوت الرحمت . فان بلادنا يتعذر عليها ان تجاري بقية الامم النجبية بدون ان تُتقن الفنون والمهن . فعسى ان نرى في فللكها بدر التقدم الوهاج ، بعد اهتمامكم بالناشئة الجديدة وتربيتكم اياها على طرق الشعوب النبيهة .

الزراعة حياة الامر

أولُ فنٍ اقبل عليه الانسان في ميدان هذه الحياة هو فن الزراعة ، لانه من أزم الفنون للمعاش حتى لا يستقيم امره بدونه .

وقد كانت الارض في الدور الاول مخصباً ، توفى غلالاً غزيرة لأقلّ جهدٍ يُصرف في سبيل تنبيتها ، فلما امتست عرصة الآفات فسدت وقلّت محاصيلها ، واصبحت في حاجة الى مداومة العمل فيها وتعهدّها بالعلاجات الوقاية من الجذب . ولا ريب ان الحكمة الإلهية انما قضت على الارض ان يعتورها المجل مرة بعد مرة حتى يعلم الانسان انه لم يُخلق في هذه الدنيا الا للعمل والعناء . فلو كانت الارض تكفيه مؤونته كلّ حياته بدون نصب لاستغرق في سبات التواني وجنى من ثمرات الفراغ ما يُلقيه في مهارة التمس ووهدة البلاء . وما من نكير ان الزراعة هي من ارفع المهن واجدراها بالاعتبار ، اذ عليها يتوقف نجاح الامم ، وبدونها لا يكون لأمة حياة . فهما اتسع نطاق التجارة ، ومهما بلغت الصناعة من التقدم والإحكام ، فاذا لم يكن للزراعة شأنٌ ولا نصيب من العناية بأمرها ، أفضت الحال الى التأخر عاجلاً او آجلاً . ولا تعجب من ذلك ، فان التجارة تستقدم سأمها من المزروعات والمصنوعات ، واكثرُ المصنوعات تستخرج موادّها من ثمرات الارض ومعادنها ، فاذا ماتت الزراعة ماتت الصناعة ، وبموتها تموت التجارة .

ومن هنا يعرف قدرُ جهالة الذين لا يُعلّقون على الزراعة ادى اهمية ، حتى ينظرون الى الزّراع بعين الازدراء ، كأنهم جُبلوا من غير جبلته . الا فليعلم هؤلاء ان الأهم القديمة ، كالفراغة والفينيقيين والكلدانيين والاشوريين واليونانيين والرومانيين لم ترفع اعلامها المهمة في العمورة ، ولم يستتب لها الحكم قروناً الا لاهتمامها بالزراعة وتعزير اربابها . وأما الامم الحاضرة فان الزراعة عندها من الخطورة بأجل مكان ، حتى انها تنظر الى المحراث في يد الزّراع كما تنظر الى السيف الماضي في يد الجندي ، والقلم السيال في يد العالم الشهير ، والجوهرة الثمينة بين يدي الصانع الخاذق .

ولنبحث الآن عن اسباب النخاط هذا الفن المفيد في وطننا المحبوب ، فهي ترجع الى الفقر وقلة الخبرة والتنشيط . أما الفقر فانه من اكبر البواعث الخائلة دون تقدّم هذه الصناعة النافعة . ترى الزّراع يعجز عن استحضر الادوات اللازمة لحراثة ارضه ، وتثقيتها ، وتسميدها ، وقطع نباتها ، وحصاد زرعها ، على الطرق المألوفة اليوم في البلاد الراقية . فاذا اراد ان يحراث قطعة ارض عنده لا تتجاوز مساحتها فدائماً ، صرف على ذلك اكثر من يوم بالمشقة ، ولم يشق من قلب الارض بمحراثه اكثر من ثلث ذراع . فلو كان لديه آلة للفلاحة كالآلات الحديثة الاختراع ، لفلح قطعة ارضه في اقل من ساعة ، وتبيأ له ان يقلبها الى اعماق من ذراعين او اكثر .

وأما قلة الخبرة فهي مسببة عن جهل قواعد هذه الصناعة واسرارها الدقيقة . والجهل ناشئ عن الفقر ، لان الزّراع لا يدخل له من ربيع ارضه ما يُربي على نفقات معاشه ، مع انها لا تتجاوز حدود التقدير والاقتصاد المفرط . ولا يخفى ان الفلاح مهما اقبلت مواسمه ، ينوء أزره تحت اعباء النفقات التي يستلزمها تعليم اولاده في المدارس الزراعية . فما من احد يقوى الآن على سدّ هذه الثلثة الا الحكومة ، وهو خير ما تصطنعه اليوم من الحسنيات الى بلادنا الخصبة البقاع التسعة الاراضي . ومتى غزت مواد القروي في القبل ، يقوم هو بهذا العمل وحده ، ويكفيها مؤونة الاهتمام بشأنه . وما أجدرها أن تُعين من الآن ، في جميع اعمالها واولاياتها ، رجالاً خُبراء بفن الزراعة ، يحول كل منهم في الناحية المعيّنة لها ، حتى يُلقى على القرويين دروساً تُرشدهم الى الحلل الواقع في مهنتهم ، واتخاذ الوسائط الفعالة لتحسين اراضيهم ، وتبهيئتها للزراعة

على وجه يضمن لها الاقبال .

وأما عدم التنشيط فلا نخاله الاعقبة في وجه هذه المهنة الحريّة بالتشجيع والالتفات ، فلانزى احداً يمدّ الى القروي يد المساعدة في جميع حاجاته ، وربما صاف مع الخذلان امتهاناً لشأنه ، حتى يتسلّكه اليأس . فما ضرّ الحكومة لو أسست مصرفاً يستدين منه القروي عند مسيس الحاجة ، في حين انها قديرة ان تستوفي منه الدين لدى استغلال موسمه . وأيّ أذى يلحق بها اذا تبرّعت بجواز ، تجود بها على من يهر رصفاءه بإتقان مهنته ، ويبرز أقرانه بالتأثّق في حرفته . وأية خسارة تُصيبها لو أعفت الفلاح بضع سنوات من الرسوم والضرائب الفادحة ، رغبة في تنشيطه وترغيبه . بل أية مصيبة تنزل بها لو حثّت الاغنيا . على تأليف شركات ، تُعنى بمعاونة القرويين وتوفير اسباب ارتقاهم ، حتى يقف تيار المهاجرة ، الذي كادت بسببه تفرغ البلاد من السكّان والعمّال . أترى يبقي عندنا مال اذا فقدنا العملة والصنّاع ، أو يقوى الموسرون فينا على استثمار اموالهم واستغلال اراضيهم ، متى ترحت هذه الفئة الناهضة النشيطة الى البلاد الاجنبية . فاذا كنتم لا تكثرثون ، أيها الملاكون المثرون ، للفلاح عن غيرة ومروءة ، فلا أقلّ من ان تستحيطوا في امره ضناً بمصالحكم ، وحرصاً على ثروتكم التي اذخرتموها من عرق جبينه . فأنصفوه اذاً يا ابتاء الجدة والميدرة ، وتلافوا الطواري قبل حلولها .

شرف المحراث

اذا ملأت الحضر وسمت من المدر ، وكهرت ضوضاء المدن وجلبه سكانها ،
فهيأ الى المزارع والحقول وروح صدرك بنماتها اللطينة ونفحاتها الذكية ، وفككه
عينيك بتلك البسط الخضراء التي نسجتها يد الطبيعة ويد الزرع معا . هنالك ترى
السنابل تمايل طرباً وترقص جذلاً كأنها نشوى بما في قلبها من البر الذي بدونه لا
يحيا الانسان ، او كأنها هائمة بداعية النسيم وخرير الماء وثغاء الشاء ، أو كأنها تريد
أن تشكر لمبدعها الذي أنبتا وتبرهن للفلاح الذي تعهدا ورباها منذ كانت بذرة
الى أن صارت سنبلة على إقرارها بفضل وقدرها لأتباعه . .

واي مشهد اطيب للنس واقرة للعين وأدعى الى الأنس من ان ترى القرويين
يتساقطون عند انبثاق الفجر الى حقولهم زرافات زرافات ، وعلى منكب كل منهم
سكته ومعوله وفي يديه مهزته ومزادته وخريطته ومزماره وقيثارته وامامه قطعانه
وثيرانه ، وفي صدره همّة شماء للدأب في العمل ، وفي فواده امل كبير بان موسمه
سيكون مقبلاً كل الاقبال بعد اتكاله على مولاه الجواد وتعويله هو على نشاطه وكده .
وحينئذ يقوى على عيالة اهله الذين يُعينونه صغاراً وكباراً على حراثة أرضه
وزرعها . .

يمر النهار ولا شاغل يشغله عن عمله ولا هم يُقلق باله ، وضميره مطمئن لم
يلوث بدنيته ولا يال حرام ، ونفسه ساكنة شريفة لا تطمح الى المناصب والمراتب
العالية ، ولا تُحدثه الا بأن يعمل في حقله حتى يستغني عن الناس ، واكره الاشياء
اليه ان يطمع في مال غيره ، او يحسده على نعمته ، او يزاحمه على رتبته ، او يغبنه
في بيع مزروعاته ، او يبيعه الحليب مشوباً بالماء . وابعض الرذائل الى قلبه ان يثلم
عرض قريبه ، او يُبطن له المقت ، او يضره الشر ، او يُحتال عليه ، او يكره به
الى ما هنالك من المفاصد التي يتترّ عنها ، وربما لا يعرفها ، لانها من مقترحات المدنية
ولا أثر لها في العيشة الحقلية . .

هذه هي السعادة بعينها ، وما اقلّ المتستعين بها ، ولا سيما في المدن حيث تسود المطامع وتجول المخابث وتكثر الافتراءات وتنتقل الى الحيات ، وحيث ترى الضائر ساجدة في بحر المنكرات والمخزيات على غير مبالاة ، وحيث تنازع البقاء معقود غبارهُ ، والحسد مشبوبة نيرانه والاثار هائج بركانه ، والجور موطدة اركانه ، وحيث لا يطيب للتاجر الا الخداع والغبن ، وللمستخدم الا الخيانة والمكبر ، وللحاكم الا الحيف والضغط ، وللقاضى الا الرشوة والظلم ، وحيث لا يحلو للزوج الا ان يخرق حرمة الزواج ، وللشاب الا ان يتمرغ في الحلمات ، ويسبح في بحر الشهوات ، وللفتاة الا ان تذهب في ميدان التفتك كل مذهب خالعة ازار الحياء ، مواربة العفاف في نعش القعة بعد ان نسجت له كفنًا صفيقًا من الاستهتار .

فبنس الحياة المدنية ونعم العيشة البدوية ، فاذا راقك أن ينعم عيشك ويهنؤ طعامك وتطيب حياتك ويطول عمرك ، وأن تطوي أيامك بالشرف والنزاهة والإباء والاستقامة ، فعليك بالحياة العقلية فهي متزّهة عن شوائب المجتمع وخالصة عن العيوب اللاصقة بنفوس اهل الحضّر . .

وما اجهل الذين ينظرون الى المحراث نظرة ازدراء ، حتى كأن الزراعة مهنة وضيفة زرية وكأن الفلاح هو من نفاية الناس ورعاع القوم . ولا ريب ان الذين يذهبون هذا المذهب هم جديرون بالامتهان ، لانهم يبرهنون عن قصر نظر وضعف رأي في الحقائق ، فلا ينظرون الى الجوهر ، ولا الى النفع الحقيقي ، بل تُعمي بصائرهم الظواهر الخداعة فينبئون حكمهم على الزخارف الحشّالة والمحاسن العارّة ويعلمون بالأوهام . كيف لا وهم يزعمون ان المرء قائم شرّفه بمنصب رفيع يُسند اليه ، او برتبة سامية يتألها ، او بثروة طائلة يرثها من أبويه او يفوز بها مجده ، او بحسن طالعه الى ما هنالك من المزاعم التي لا تنطبق على الحقيقة . والذي زاه ويراه كل عاقل أن اجدر الناس بالاحترام من كان أنفعهم لبلاده . والزراع هو في نظر الحكماء اجدى من السياسي والتاجر والمثري ، لان يده العاملة تُنزل على البلاد الخيرات ، ومحراثه الحديدي الذي يهزق به قلب الارض يلقي بين يديها الكنوز الذهبية . فلولا الزراعة لسلّت يد الصناعة وكسدت سوق التجارة . ولله درّ من قال ، وهو من اكبر فلاسفة

هذا العصر « ان أداة الغنى الحقيقية هي المحراث ، والبلاد التي تعتمد على ذهبها بدون ان تعتني بحراث ارضها وزرعها وإغناء أغراسها، يتعذر عليها ان تُطعم سُكَّانها » وقال احد علماء الفرنسيين من امدر غير بعيد « يجب على الحكومة ان تُقدِّم الفلاحين بجميع ما لديها من الذرائع حتى يتسنى لهم ان يستخرجوا من ارضنا ما نحن في أمس الحاجة اليه ، فلستغني عن استيراده من البلاد الاجنبية . ومامن واسطة المنح من هذه الواسطة لرفع منزلتنا المالية وتحسين حالتنا الاقتصادية ومقاومة اعدائنا الذين يحدون ايَّ جدٍّ في ان ينقصوا من قدر اوراقنا النقدية حتي يزغزغوا دعائم ثروتنا ويُضعفوا ثقة الاغيار بنا » .

وان روكفلر ذلك المثري الاميركاني الشهير بعد ان ساح في اوربا بضعة اشهر عاد الى بلاده ، فسأله اصدقاؤه عما رأى في رحلته من المشاهد الجديدة بالعجب والاعجاب ، فقال على النور « ان اعظم مشهد رآته عيني هو رويتي القرويين الفرنسيين يعملون من الشفق الى الغسق يجدد لا يعرف الملل حتي يصلحوا اراضيهم ويُرَبِّموا منازلهم التي خربت بالهزات الكونية . ولا جرم ان هذا العزم المعروف به الشعب الفرنسي هو الذي جعل فرنسا في المقام الذي نراها فيه » .

فلو زار روكفلر او غيره من السَّيَّاح هذه البلاد وتفقَّد بيوتها التي لا تزال حتى الان خربة ، ورأى حقولها الجرداء ، وارضيتها الجلحاء ، وانقاضها البالية ، واطلالها الباكية ، ودمَّنها الدامية ، لرثى حالتنا ، ورقَّ لجمودنا وخمولنا ، وعاد الى وطنه وفي نفسه اسوأ أثر . فابن الصبر الذي عُرف به الشعب اللبناني ، واين المهمة التي رافقت آباءنا واجدادنا حتي نقرروا الصخور ، وحفروا الجبال ، وجعلوا من تلك الاراضي الصلدة حقولاً خصيبة ، ومن تلك الآكام الغامرة قرى عامرة ، ومن تلك المستنقعات حدائق غنَّاء . فكان السواعد القويَّة في وطننا العزيز قد اعترأها الشَّلْكل حتي تروكت الشبيبة ارزاقها يواراً ، وتزحت عن هذه الديار الى المهاجر حيث تذوق المراثي ، وهنا الضربة القاضية والطامة الكبرى . .

ألا التفاتة الى هذه البلاد المنكودة ، فان الحُرَّاب يهددها من كل جانب . أو ما كفاها ما قاسته من البلايا الفادحات في تلك الحرب الظالمة القاسية حتي تنكأوا

اليوم فُرحتها بجلانكم عنها . . تأملوا ايها الشبان الاحباء بسوء مصيركم وأقلعوا عن مهاجرة اراضيكم كما كان شأنكم قبل الحرب . واحرثوا بقاءكم حتى تعود الى حالها الاولى ، فتكفيكم مؤونة المهجرة المرأة ، والا جنيتم عليها وعلى نفوسكم جناية لا يغفرها لكم حقدتكم . وانتم ايها الاغنياء ساعدوا الرعاة على احياء أملاككم وأنجدوهم بالمال واعطفوا عليهم حتى تحيوا بقية الأمل الضئيلة الباقية في صدورهم ، فيبقوا من حولكم يعملون في سبيل مصلحتهم ومصلحتكم معا . فانتم لا تستغنون عنهم وهم لا يستغنون عنكم ، والنجاح مضمون بالتضافر والتناصر ، والفشل واقع مع التواكل والتخاذل . وما اسعد الراع الذي يُعول على زرعه وضرعه ، ويعتمد في معاشه على المولى الرزاق ثم على عرق جيئه ومثانة ساعده ونضارة عافيته ، ولا يتشكل الا على رأس موله ونفاذ محراثه وقوة فدائه .

الشفقة البشرية

اشرف عاطفة تلبت في فؤاد الانسان أن يشفق على ابناء جنسه الذين عضهم الدهر بنابه وحكم سيفه الماضي في رقابهم ، ولا سلاح لهم الا الصبر على مقاساة المحنة وهيئات يكونون من الصابرين ، وهم يتقلبون على احرا من الجمر وأحد من شوك القتاد . فاذا لم تمس الرحمة قلوب اخوانهم في البشرية باتوا يصعدون الزفرات ويذرفون العبرات ، ويمونهم شاخصة الى السماء تلتبس منها فرجاً ، وتبتغي سلواناً . فما اجمل الشفقة وما احمدمساعيها ، وما اغزر منافعها واعذب مجاريها ، فانها تُعرب عما في الصدر من مكارم الاخلاق ورقة الشعور ، وعما في النفس من التجرد والصبر والنشاط ، وبُعد الهمة وكمال المروءة والغيرة . ولذلك ازلوها من الفضائل بمنزلة الواسطة من العقد وعدوها بين المحاسن كالجوهر الفرد . كيف لا وهي الدرّة اليتمية التي لها في اندية الانسانية ارفع مقام ، والوردة الذكية التي تارّجت المجالس بشذاها ورُوت الصدور

بطيب ريارها ، حتى كانت لجراح المنكوبين مرهماً ، وقروح المصابين بلسماً ، وفي حماها لقي المهدون ملاذاً والاعلاء ملجأً والمنكوبون عماداً ، وفي مساكنها ربي اليتامى واللقطاء ، وفي ساحتها ابصر العيان نور الغزاء ، وفي مستشفياتها صادف المسالون فرجاً ، والمويؤون شفقةً ، والمطعون راحةً ، والمقعدون أنساً ، والحزاني تعزيةً . فهي اكبر معين على خطوب الزمان ، واقوى نصير على الكوارث والحدثان ، واصفى مورد لابناء العسر ، واعذب منهل لأصحاب البلاء . ومن مزايها انها لاتنزل صدرها خشت عواطفه ولوئمت طباعه ، ولا تأوي الى قلب خبت طويته وسفلت خلاله ، ولا تقاوج خلقاً شرساً ، ولا تألف الدناءة والحسد والطمع والبخل ، ولا تلامس نفساً اعماها الاستئثار ودب بها الحقد ، وتورطت في الحيانة والمكر ، ومالت الى التعنيف والظلم ، ولا تؤاخي العجب والكبرياء ، ولا تصاحب عشاق الترفه والتنعيم ، ولا ترافق طلاب العظمة والمجد ورؤاد المدح والجزاء الدنيوي . وانما هي نعمة علوية يؤتيها الله من يتوكل على وجهه الكريم في اعماله ، ويفيضها على النفوس التي أعرضت عن الدنيا طمعاً في مرضاته ، وفطمت عن ملاذها حرصاً على ثوابه ، وتجردت عن جميع الاهواء ، وتفرغت للعبادات والحسنات ، ولم يكن لها من مقصد سوى أن تذخر الصالحات ليوم المعاد .

أجل ما من شيء أدل على كمال المروءة وسوخ فضيلة الرحمة في فؤاده مثل ان يحنو على من تربطه بهم روابط الانسانية ، مما يميل للعيون ما انطوى عليه لبه الشفيق من الشواعر الرقيقة ، وتقافيه عن الاخلاق الحيوانية التي لا تعرف للعطف . سلكاً ولا للبر منهاجاً . واي امرى اعظم فضلاً من الذي يتجرّد لمواساة اخيه المنكوب تحفيفاً لبلاياه وتسكيناً لآلامه المبرحة ، حتى انه لا يبالي بما يقاسيه في هذه السيل من المشقات الناصبة ، ولا يلتفت الى دعته وراحته ، ولا يشفق على مقتلته من طول السهاد ، ولا على قدميه من شدة العناء ، ولا على نفسه ان يسومها جهد البلاء ، وانما يطيب له ان يجهد جسده ليريح غيره ، وان يضيع نفسه رغبة في ان يفرج النعم عن المتضايقين من اخوانه ، وأن يجتنب الألم عن الاعلاء من ابناء نوعه على ان الشفقة الطبيعية بالغاً ما بلغت لا يكون لها ما للشفقة المجردة من سمو

المزلة وسدّة التأثير في القلوب ، اذ يندفع صاحبها بعوامل فطرية تكاد تكون قسرية أي اضطرابية ، وذلك كما لو اقدمت الأم على تمريض ولدها المصاب بعلّة وبائية وبيلة ، فان الخوف الوالدي يتغلب اذ ذاك على ارادتها ، فيدفعها الى تحمّل جميع المكارّه والتعرّض لأشدّ المخاطر ، حرصاً على حياة ابنها الذي هو بضعة من جسمها ، وفلذة من كبدها وقطعة من روحها . ولهذا السبب لا يرى الناس بعين العجب والدهش ماتعانيه الأمّهات من الأنصاب المذبية في خدمة بنيهنّ ومعالجة السقام منهم ، واذا يتعجّبون اذا قصرن في هذا الواجب الطبيعيّ ويروهنّ بسهام الملامة الحادة .

والشفقة البشرية لاتعدّم في كل بلد جنوداً بسلاء ، يرفعون منارها ، ويحملون لواءها ، ويخوضون غمارها . واقصد اذا شئت أحد المستشفيات الحافل ببضع مئات من الموبوتين والمشوّهين بعمّات عديدة ، مما تتقرّز عن منظره النفوس ، وتشتر من دمايته العيون ، فهناك تتجلّى لك ملائكة المحبة ، مُلقية عليك محروساً كبيرة لا تتلقّها على غير أيديهنّ . تراهنّ واقفات الى جانب الميؤء يغسلن جراحه التي يسيل منها الصديد ، ولا تفارق الابتسامة ثغورهنّ ، ولا تمّحي البشاشة من صفحات وجوههنّ ، حتى كأنهنّ إزاء حديقة غناء ، لا إزاء اجساد تنبعث منها الروائح الكريهة ، ولا تجاه قروح تتأفّف منها النفس ويتقبض الصدر . ومع ان تلك المعرّضات الفاضلات تسري الى اكثرهنّ العدوى ، وأغلبهنّ يموت في ربيع الحياة ، ومعاً في خدمتهنّ هذه من النصب والضيم وقّع النفس وإفناء الذات ، فلا يزال عددهنّ في نموّ مطرد ، بحيث لا تغتال المتية احداهنّ حتى يحلّ غيرها في محلّها بطيبة خاطر ، على حدّ ما يقع للجنود في ساحة الهيجاء ، فكما حصدت المدافع منهم صفّاً يحلّهم من يسدّ مسدّهم . ولكن شتان ما بين هؤلاء وأولئك ، فان ابن الحرب ربما اندفع مُكرهاً لا مُخيّراً ، وغايته أن يقتل اخاه وهي شرّ الغايات . وأمّا بنات الرحمة فانهنّ يتجنّدن بمهزّة نفس ولا يقصدن الا بحمد الله ، ولا همّ لهنّ الا أن ينقذن المرضى من مغالب المتون ، أو ان يلبّطن اوجاعهم ، ويسكّن آلامهم ، عملاً بفترض البشرية التي هي من اسمى الفضائل واجدراها بالمشوبة وأحراها بالاعجاب .

ولا جرم ان الذي يدفع أولئك الرّعات الى ذلك المعتبرك الهائل ، المحفوف

بالمعاطب والممالك ، انما هو امرٌ علويٌّ ، ليست الدنيا في شيء بالقياس اليه ، ونعني به الجزء العظيم المعدّ في دار الخلد لمن يخدم اخوانه ، ولا سيما اذا كانوا من اهل البرص والشقاء ، ويُرَضُّ مَنْ أُصِيبَ مِنْهُمْ بِالْأَوْبَةِ الْقَتَالَةِ . ولا فرق بين مَنْ يهرق دمه على مذبح الاستشهاد ، وَمَنْ يُذِيبُ جَسَدَهُ وَيُذْوِي زَهْرَةَ صَبَاهُ فِي مِيدَانِ الْجِهَادِ . بل ان الشهداء انما يتجرعون كأس العذاب المرّة مرة واحدة ، وأمّا تلك المجاهدات فانهم يقاسين المكاره كل يوم مراراً ، حتى ان حياتهن هي ولا ريب سلسلة من المراتر ، بل استشهادات متتاليات .

وحسبك أن تتعهد مستشفيات الأوبئة وتلقي نظرة على البرص والمسلولين والمطعونين والمجدورين ، والمصابين بالهَيْضَةِ وَحَمَى التيفوس ، وغيرهم من الممّون بالامراض الوبائية ، حتى تعرف فضل أولئك البطّلات الباسلات اللواتي يُنْسِنُ اللَّيْلُ آلَامَهُنَّ بِطَلَاقَةِ وَجُوهُنَّ ، وابتسامات ثغورهن ، الناطقة بآههنّ عليه من مزيد الارتياح الى قضاء مُهِمَّتِهِنَّ الشّاقَّةَ .

ومن ثم أفأحقّ للانسانية وكل من يحنو على المنكوبين من بنينا ان يتباهوا بأولئك الجنود الابطال ، الذين يتطوّعون في خدمة المويّنين المتجسّسة فيهم الشقاوة البشرية ، وهم لا يرون لهم موثلاً يلتجئون اليه غير حمى الرحمة . وكَمَ من ذي مروءة يُقدِّم على المخاطر قياماً بواجبات النخوة والرأفة ، فيعود المرضى المصابين بالأوبئة المعدية ، وكثيراً ما يذهب ضحية غيرته فيموت شهيد الواجب ، وما احلى الاستشهاد في هذه السبيل . كافأ الله هذه الفئة الفاضلة وأكثر من امثالها وابقاها خير قدوة للشقة والرحمة ، واقوى عضد لمن لا عضد له من ابناء البشرية . . .

هذا واذا كنا نحن لا نبلغ في ميدان الشقة الى هذا الحد فلا اقل من ان غداً للمتضايقين يد المعونة حتى نفتح لهم ابواب الفرج وننقذهم من نيران العذاب . ولا يحسن احد ان اختلاف المذاهب او المواطن يحد له العذر في التغاضي عن مناصرتهم . فان الشقة تقحم كل الحواجز وتحرق كل الحوائل ، فلا يقف في وجهها بعد المسافة ، ولا يصدها عن مجراها غرض من الاغراض ، ولا حاجز من الحواجز ، وانما تسكب سحائبها على جميع اطراف المعمور حتى تُقَيِّمَ بها النفوس الكثيبة ، والقلوب المكلومة ،

والصدور المتقدة ، والجوانح المحترقة ، فلا يقر لها قرار ما لم تواس البائسين ، وترفع
الاتقال الباهظة عن عرائق التبعين .

واليوم مجال واسع لاصحاب الشعور الرقيق للانطلاق في ميدان الشفقة لمساعدة
اخوانهم الذين نُكبوا في هذه البلاد فذهبوا ضحايا النفاظة والقساوة ودُكَّت
منازلهم ونُهت أموالهم ، ولم يبقَ منهم الا شيوخ يندبون الأطلال ، وارامل يُنهن
على من فقدن من الرجال ، وثواكل يبكين على اولادهن ، وصغاراً يتفطرون اسفاً
على فجعهم في آباءهم ، وقد عَضَّهم الجوع وأذابهم الحزن ، وهم اليوم يستغيثون بالاسخياء
الرُحماء ، مستهينينهم لمناصرتهم بما تسمح به نفوسهم الكريمة . فنستحسبكم يا ابناء
الاريمية ان تُقبلوا على نجذمتهم بما يكشف عنهم القُمة ويلطف البلية ، والله لا
يُضيع لكم أجراً .

ولابد لنا هنا من ان نُفتِّح على بعض النساء قسوتهم على بعولهن يوم يُصابون برض
مستكره ، او داء مُزمن مُقعد ، فانهن يُظهرن لهم من التبرُّم والتأفف ما يضاعف
أوجاعهم ويُجهز على صبرهم . وكثيراً ما يدعنهم يتسللون على فراش الألم منطلقات
الى مجتمعات الأنس ، غير مُباليات بتقصيرهن في تريضهم ، ولا حافلات بما يسمعه
من الملامة في تقاعدهن عن خدمتهم وتخلفن عن مساعدتهم في محنتهم . ولا يلقي
احداً في الطريق الا يُصارحته بهتة وشكواهن وفقاد صبرهن ، ويشرحن له
ما هن عليه من سوء الحال وضيق الصدر . افما تحجل هؤلاء النساء ان يتبرَّمن من
مكابدة بعض العناء في خدمة ازواجهن الاعلاء ، او ما يحفن ان يبلوهن الله يوماً
بداء عضال ، ويحرمن كل نصير وكل مؤس . او ما يوجهن ضيرهن على تفريطهن
في اقدس واجب . واكثر الناس انما يتروجون على امل ان تُفرج نساوهم القم عنهم
وتخفف عذابهم وتلطف الالمهم في اسقامهم ، ولولا ذلك لاقلع اغلبهم عن الزواج
وأبوا أن يضعوا في اعناقهم هذا النير الثقيل .

وما عسى ان تكون حال هؤلاء النساء القاسيات القلوب يوم يمثلن بين يدي
القاضي العادل ويسمن منه اقمى كلمات السخط على قوانينهن في خدمة ازواجهن
السقام ، وما يدور في خلدهن اذا حضرن يوماً الى احد المستشفيات ورأين مئات من

«المرضات المتطوعات الى جانب أسرة الميؤنين ، والبشر يتلألأ على جبينهن والابتسامة لا تفارق شعورهن . فأغنى للروءة ، واين الحنو ، واين الإخلاص ، واين الأمانة . أوقات هؤلاء السيدات انهن لو أصبن بأعضل الأعداء ، وابشها على النفور والاشمئزاز لا يتردد ازواجهن عن أن يوقروا لهن جميع الأسباب التي تريحهن وتعين على شفائهن . وكيف يكون موقفهن أمامهم اذا أبرأهم الله من ضلالتهم ، ألم كيف تكون احوالهن اذا اضتهن إحدى العلل الكريهة ، أو يحسرن يومئذ ان يطلبن منهم أقل مدد . ونحن نعرف غير واحدة من أمثال هؤلاء الزوجات اللواتي بلغن منهن اللوم الى ان يخذلن ازواجهن في مرضهم المتعدي ، مع انهم كانوا قبل انقباضه لهم من اسخى الرجال على نسايتهم ، وأوفرهم عناية براحتهم . ولكن « قتل الانسان ما أكفره »

وإنه ليشجينا ان نرى التسوة مخبئة في قلوب بعض السادة الاغنياء ، حتى لقد يعرضون عن خدمتهم أي إعراض يوم تدهمهم علة ، أو تساورهم محنة . فينسبون اذ ذاك ما لهم في جنبهم من الخدم الكبيرة ، ويطوون كل حسناتهم ، وكثيراً ما يكون هؤلاء الخدم قد قضوا الشطر الأكبر من حياتهم في خدمة مواليهم ، وقد برهنوا في كل موقف وفي كل ساعة عن صدق في العمل ونشاط اليه ، وحرص شديد على مصالح من تقيّدوا بخدمتهم . أو يليق بأولئك السادة أن يهملوا شأن مستخدميهم ويعضوا الطرف عنهم في إبان ضيقتهم ، أو يذكروهم ان يخفقوا من صدورهم روح الأمل ، وهم في آخر خريف حياتهم . وكيف يقدم غيرهم على خدمتهم ، متى رأى منهم هذه الجفوة ، لن وقف عمره على السعي في سبيل منافعهم . فاذا كانوا لا يطيقون ان يكون مستخدميهم العجزة في منازلهم فلا أقل من أن يدخلوهم احد المستشفيات ، او يُعْدُوهم ببلغ من المال يُعينهم على التداوي . . هذا ما تقتضي به النخوة البشرية ، وما أندرك بنيتها ونصراؤها في هذه الايام .

وليؤتجه ، هؤلاء السادة الثغاة ، انظارهم الكلية الى البلاد المتتمدنة ، حيث يتسابق الموالي في ميادين المكافآت ، فلا يقتصرون على انصاف مستخدميهم في اجورهم بل يزدونها سنة فسنة تشجيعاً لهم ، وربما جعلوهم شركاءهم في بيوتهم التجارية .

ومتى انتهوا الى العمر الذي يفتقرون فيه الى السكينة والدعة يُفنونهم من العمل ، ويؤذون لهم جُعالة راضية تضمن لهم ان يعيشوا هم وأهلهم بيسر وسعة ما بقي من أيام حياتهم . وإذا أصيبوا في غضون الخدمة بضرر او عاهة ، او بلية او علة وما اشبه ذلك ، حتى عجزوا عن الارتاق ، كانوا من اسبق الناس الى مؤاساتهم وتعزيتهم مكافأة لهم على خدَمهم السالفة الصادقة .

ألا حياء الله ارباب الحمية والشفقة ، وحياء بلاداً ثنبت من اشباه هؤلاء الرجال العظام الرقاق الشعور الكبار النفوس ، واكثر من امثالهم في هذه الربوع التي لا تزورها الشفقة الا ليلاماً ، ولا يعرف اهلها النصفة ما هي ، واذا عرفوها كان من أكره الامور اليهم ان يستنوا بسننها ويتقيدوا بقيودها . ولذلك ينذر عندنا الخدام الأوفياء والعاملون الأمانة ، وهيات ان نرى بين السيد والمسود صلة متينة تُسرّحهم في المصلحة بحيث يُصيب احدهما ما يُصيب الآخر نفعا كان أو ضرراً .

وكانت نمتي لو يكون عندنا من العطف على إخواننا في الوطنية والانسانية ما عند أولئك القوم منه على العجاوات ، فنكون من اسعد الناس حظاً وأرقهم شعوراً . وأي امرئ في بلادهم ، مهما كان عليه من الغلاظة والفظاظة ، يجروا أن يؤذي او يُعذب بهياً ، وإن يكن البهيم أجنب حروناً . والحدوثون في هذه الديار اذا حزن جواد عجلتهم يسلقونه بسياطهم الحشنة ، واذا عجز عن أن يجر المركبات الثقيلة برحوابه أي تبريح ، وعنفوه كل التعنيف ولا ينفكون يضربونه حتى يكشطوا جلده او يزعوا روحه من صدره . وكيف تأمل ان يكون هؤلاء الأجلاف الجفافة ادنى رافة بالناس ، وهم اغلظ كبداً واقى قلباً من الخناس .

فتى نرى الشفقة سارية في عروقنا ، مُخيمّة بصدورنا ، راسخة في قلوبنا ، متجلية في عيوننا ، بادية على وجوهنا ، بحيث لا يقع نظرنا على يتيم ذليل حتى تنهل العبرات من مآقينا ، ولا نبصر فقيراً حتى نُخف الى سدر عوزه ، ولا نسمع صوت مستصرخ متألم حتى نسرع الى إنجاده وتخفيف كربه ، ولا يبلغنا خبر عن غليل مهجور حتى نبادر الى قريضه او تلطيف آلامه ، ولا ينتهي الينا نبا عن منكروب ملهوف حتى نمدّه بما ينقّس عنه الكربة ويفرج الغم . وأية فائدة من انسان لا يعين اخاه على بلاياه ،

ولا يرقُّ له في رزاياه . وأشتى الناس من يخذل الناس في المحن ، لأنهم يخذلونه ويشتمون به إذا تالت عليه الغيرة ، ويجعلونه عبدة لمن اعتبر . والأمة التي لا يكون فيها جيش جرَّار من المتطوعين لتعريض الموبشرين ، واسعاف البائسين ، وإغاثة المتضايقين ، وإعانة العجزة الرازحين ، ومسالمة المتعدين المفجوعين ، وخدمة المرضى المخدولين ، هي ولا ريب من أتعس الأمم وأجدرها بالانقراض .

فلنفرس إذا عواطف المروءة والرفقة والحنان في قلوب صغارنا وأحداثنا ، حتى يتعلَّموا منذ طراوة سنِّهم أن يرفقوا بالضعيف ، ويحنُّوا على الفقير ، ويعطفوا على العجبي ، ويحبُّوا على السقيم ، ويعرفوا كيف ينصرون المظلوم ويرقون لنفقات المصدور ، وكيف يفرجون الغم عن المهموم ويخففون الألم عن الموجوع ، وكيف يؤثِّسون المرزوء ويعزِّون المفجوع .

ولنا كلُّ الامل بأرباب اليسار في البلاد أن يُلقوا على العامة دروساً علمية يُلقِّنونهم بها مبادئ الشفقة والرحمة ، وذلك بأن يتفقَّدوا بأعينهم المياثم ودور العجزة وملاجئ الفقراء ، موزعين عليهم الملابس التي خاطتها لهم عقائلهم بأيديهنَّ النديَّة . ولا بأس أن يُعيَّنوا في السنة يوماً أو أكثر يُقسمون لهم فيه المآدب في بيوتهم الحقيمة ، أو يدعون بعضهم الى منازلهم أنفسهم لتناول الطعام على أحوتهم وموائدهم . فان الأشراف في البلدان المتحصِّرة يحرون على هذه الخطَّة الحميدة ، ولا يستنكفون من أن يؤاكلوا المعدِّمين ، ويُجالسوا المدَّقعين ، ويُنادموا المترِّبين ، وهم يحسبونهم اخواناً لهم وعالةً عليهم ، ويسرُّهم ان ينهضوا بهذا المقترض البشري المقدس ، وتطيب نفوسهم وتشرح صدورهم ، وتنبسط قلوبهم ، وتقرَّ عيونهم ، يوم يطربون هذه الطبقة التَّسعة ، التي ليس بكثير على أرباب السعة في البلاد ان يُذيقوها لذَّة الحياة مرَّةً في العام ، في حين انهم يترقَّهون ويتلذَّذون ويترقَّون ويتنعمون مراراً في اليوم ، ولا يجرمون نفوسهم شيئاً من اطايب الدنيا وملاذها ومباهجها وزخارفها ، حتى كأنها خُلِّقت لهم وُخِّلِقوا لها . واسعدُ الناس أحنُّهم على الفئة المتألِّمة واكثرهم إشفاقاً على من هم في حاجة الى الرحمة والشفقة ، واشتى الناس اقساهم قلباً واغلظهم كبداً ، وأنباهم عن الفقير عيناً وانفرُّهم من الفجيع صدراً .

الاقتصاد

هو أمان أسّ رُسخت عليه قواعد الفلاح واليسر ، وآمن مرفأً لا ذت به الحكماء فراراً من عواصف البؤس والعسر ، وأضيّق دائرة انحصار فيها العقلاء فكانت لهم من أوسع منافذ الفرج ، وافسح مدارج الثراء ، بل هو الحد الأوسط الذي لا يقف عنده إلا المجرّبون ، ولا يحمدُه إلا المحنّكون ، بل المزية الجميلة التي تقي صاحبها تبعات الاسراف والتقتير ، وتضمن له الراحة والسكينة ، وتُفِيزه بأسباب السعد والهناء ، بل السود المنيع الذي لا تقحمه جيوش الفاقة ، ولا تحترقه نوائب الدهر والاقتصاد فن يشتمل مثل سائر الفنون على أصول مبنية على طول التجربة والاختبار ، ومنطبقة على أصول الحكمة والسداد ، ولا بد لمن كان له كلف بالدعة والسعة في دنياه ان يعاها بمزيد التدقيق والعناية . وقد افرد لها العلماء مجلّدات ضخمة اشبعوا فيها الكلام على جميع انواع الاقتصاد ، وافاضوا في ذكر الاسباب التي تصون الانسانية من غوائل الاسراف ، وواضعوا المناهج التي تؤدى المرء الى ما يرمي اليه من الغنى واليسار حتى احاطوا بجميع اطراف هذا الموضوع ، ولم يدعوا زيادة لمستريد . وكنا نود ان نلخص للقراء شيئاً مما كتبوه بهذا الشأن توسيعاً لنطاق مداركهم الاقتصادية ، ولكن المقام اضيق من ان يستوعبه ، فارجأنا تفصيله الى وقت آخر اذ يفسح لنا المجال لا يراده على التتابع في مقالات متوالية . اما الان فاننا نختار على ذكر فوائد الاقتصاد حقاً للنفس على اتباع مسالكه القويمة حتى لا تفوتها ثمراته اللذيذة وعواقبه الحلوة .

لا يخفى ان النفس هما كانت عليه من القناعة لا تزال تائقة الى اطايب الحياة ولاذتها وزخارفها ومباهجها ، ولا تبرح طامحة الى العز والمجد نازعة الى الظهور يظهر الكبراء ، والتزول في منازل العظام . ولذلك لا تفتأ تتقاضى الانسان ما يُفيدها بجميع أمانها ويُظفرها بكل اهوائها . فاذا انتقاد الى مطالبيها الفضولية ، واندفع الى قضاء رغائبها جرّت عليه الويل والحراب ، وعرضته لبلايا الاسراف التي تشدّ

عن الاحصاء حتى تتقوض مباني سعدة ، وتُسَدَّ ابواب فرجه ، وتتداعى اسوار عزه وراحته . والاغنياء الجهال هم الذين يطلقون لنفوسهم الأَعنة في ميدان الاهواء ، فلا يحسبون لدوائر الدهر حساباً . واما الحكماء المستبصرون فانهم يُقَيِّدُونها بسلاسل الاعتدال تحرُّزاً من التهور ، ويذهبون بها في مسالك الاقتصاد فراراً من اضرار التبذير .

وحسب الاقتصاد فضلاً أنه يدفع القمم الافر من هموم الحياة ويخفف عن صاحبه اثقال المعيشة بحيث لا يخشى ضيقاً ، ولا يخاف أزمة . لانه يُعَلِّمه كيف يذخر الذخائر ويُعِدُّ المُدَدَ لوقت الشدة ، وكيف يُسَكِّ نفسه عن الانطلاق في ميدان التنعم والتأنق ، حتى اذا قصرها على الضروريات ، وردَّعها عن بذل الاموال في غير الحاجات ، كان بآمن من العوز والفقر وتبهاً له ان يعيش عزيزاً سعيداً لا يتذلل لغني ولا يلتجئ الى لثيم .

كيف لا وان المقتصد لا يتعدى طاقته في المأكل والملبس ولا يبدد امواله على موائد المقامرة والمسكرات ، ولا يبذلها في الوجوه المحظورة ، ولا في طرق التفتن في المعاش ، ولا يتشبه في ملامه بمن كان اوسع منه حالاً ، واوفر مالاً ، واعلى مقاماً ، وانما يقف عند حده مقتصرأ من النفقات على ما تسمح به حاله بدون توسع وترفع . ولعل بعض الغافلين لا يبالون ببعض دُرِهَمات يصرفونها في غير ضرورة زعمأ منهم أنها لا تزيدهم غناء ولا بؤساً اذا حرصوا عليها او بذروها . فلو تأملوا في المجموع الذي تنتهي اليه ، وهو جدير بالالتفات والاعتبار ، لعلموا انهم على ضلال . فكم من فقير افضى به الاقتصاد الى اعلى مراتب الثروة ، وكم من موسر غفل عن تقلبات الدهر وحدثاته فبدد باسرافه كل ما جمعه بعرق جبينه . وكم من متوسط الحال اعتدل في نفقات معاشه حتى اجتمع لديه من المال ما أعانه على تعليم بنيه في المدارس الكبرى ، حيث انصبوا على اقتساب المعارف والآداب والفنون الرائعة فبدروا بها وفاقوا أقرانهم الأغنياء ، وحرصوا قيا بعد مقاماً ادبياً رفيعاً ، وكانوا سبباً في إعلاء شأن أسرهم ، والسمو بها الى ذروة النباهة . وقَلَبَ نظرك في صفحات التاريخ ترَ عدداً غير قليل من سمّت بهم معارفهم من حضيض الذل والشقاء ، الى صهوات

الغز والسعد ، واغلبهم من المخترعين والمكتشفين والمصنّفين والمؤلفين الذين نبغوا في قومهم ونالوا شهرة عريضة ، وادّوا للانسانية خدماً جسيمة لا تزال هي لهذا العهد تستعجّل بجلائل منافعها . فلو ان اباهم ممن لا يقدرّون قدر العلم لتوسّعوا في نفقاتهم الى حدّ أعجزهم عن إنارة اذهان بنبيهم بالمعارف حتى حرموا البشرية ما جنته من ثمرات ذكائهم واجتهادهم .

فيا حبذا أن يقتدي بهم رجال بلادنا الذين هم على اوسط او ادنى حال ، فانهم وان عجزوا عن ادخال بنبيهم في المعاهد الكبرى لا يصعب عليهم مع الاعتدال في نفقاتهم ان يعلّموهم في المكاتب الصغرى ، حيث يتلقّون من العلوم ما يصدّق عنهم على الاقل مضارّ الجهالة . وكفى بذلك خيراً لهم ولبلادهم .

ان فن الاقتصاد مع عظم اهميته وكثرة فوائده نكاد لا نرى في هذه البلاد من يهتمّ بامره ، او يحفل بالسلوك على مناجه ، او يُعنى بمطالعة كتبه وتدريسها لاسرته حتى لقد يفتق ارباب المنازل اموالهم على غير روية وتقدير ، فلا يعلمون ماذا يصرفون ، وما ينبغي ان ينقطعوا عنه الى ما هو اكثر مناسبةً لحالهم . فنحن ننصح لمثل هؤلاء ان يضعوا في جيبهم دفترًا يرقون فيه كل ما يصرفونه ، ويُفردوا في المساء وقتاً من اوقات فراغهم يبحثون فيه عن الاشياء التي ابتاعوها حتى اذا كانوا في غنى عن بعضها تجنّبوا شراءه في المستقبل . وهكذا فلا يغرّ عليهم وقت وجيز حتى يعدلوا عن النفقات الفضولية الى الضرورية ويذخروا لهم من الاموال ما يتكفّل بعبطهم ورفاهية عيشهم مدى الحياة .

وافضل وسيلة الى تعديل النفقة الاشتراك في الشركات الاقتصادية ، فان اربابها سهّلوا مداخلها على جميع الطبقات حتى لا يُحرم احد فوائدها . وقد وضعوا لها قوانين تضمن للمشاركين الثبات في خطّتهم المعتدلة . فقد فرضوا مثلاً على كل من يتأخر عن تأدية ما عليه للشركة في حينه ان يدفع لها مبلغاً من المال قصاصاً له على تخلفه في الدفع ، فان المشتركين اذا لم يكونوا على سعة اضطروا الى الاعراض عن النفقات الفضولية تحلّصاً من ذلك العقاب ، واذا كانوا من اصحاب الثروة كان الاشتراك امتن حاجز بينهم وبين الاسراف ، لأنهم لو لم يدفعوا للشركة المبلغ الذي عليهم لكانوا

بذروه بدون فائدة وذهب ضياعاً .

ولاجل زيادة الاحتياط والتحفظ ننصح للآباء كلما رزقوا ولداً ان يختصوه بسهم او اكثر من اسهم هذه الشركات ، فان المبلغ الذي يدفعونه عنه بدلاً من هذا السهم يكادون لا يشعرون به اذ يؤدونه اقساطاً ، فضلاً عن كونه من ثرات اقتصادهم ، فلا يبلغ ولدهم سن الرشد حتى يجتمع له عند الشركة مبلغ كافٍ لتعليمه ، فيعلمونه بدون عناء وتقدير . اما اذا لم يتمسكوا بهذه الاسباب الاحتياطية فانهم يبددون ما يفضل عن نفقات معيشتهم على غير طائل ، حتى اذا كبر اولادهم قصرت يدهم عن تحمّل نفقات تعليمهم ، فيتركونهم في عداد الجاهل . ويسحقونهم تحت انياب العسر والشقاء ، وهنا البلاء الاعظم والضرر الاكبر .

وغيرُ خافٍ ان في بلادنا عادات جمّة نتخطى بها حدود الاقتصاد كالمبالغ الباهظة التي نصرّفها في الاعراس على الولايم الانيقة والمربّطات والتبغ والشموع والكحول على اختلاف انواعها ، والتي نبذلها على اطلاق الرصاص كلما عنّ لنا اطلاقه ، والتي نُنفقها على الرياض والانات وسائر مرفّهات الحياة ، كالاقبال على شراء الفاكهة الجديدة باخش الثمان ، والارتداء باللبسة الحريوية الفاخرة ، ودفع اثوابنا العادية الى الخياطات ، وكاستخدام عدة غلمان او فتيات في منزلنا ، في حين ان حاجتنا لا تستلزم اكثر من خادم او اثنتين اذا مدّت ربة البيت يدها الى بعض الاشغال ، ولكن اغلب السيدات حتى المتوسطات الحال يتقاعدن عن كل عمل تؤهمن ان ذلك يحطّ من قدرهن او يدلّ على بخلهن . ولذلك يعولن في جميع امورهن على الخدم والحادّات حتى يتفرغن هنّ للمحادثات والزيارات ، وربما استكفن من خدمة صغارهن وتدير ادارة منزلهن بل ربما قتلن الاوقات متلاهيات عن واجباتهن بما تمسك القلم عن التصريح به خجلاً وحياء . ولا يذهب عن البصائر ما ينجم من الاضرار الادبية والمادية عن تفويض الادارة والشؤون المنزلية الى اناس اجانب لا يُنتظر منهم ان يصرفوا العناية التي تصرفها الامّهات نحو تهذيب بنين ، واحسان تدبير بيوتهن ، مهما كان مبلغهم من الاخلاص والنشاط والغيرة . زد على ذلك ان المزايا التي تستدعيها هذه المهمة تفوت في الغالب هذه الطبقة الجاهلة . وبهذا القدر كفاية لمن كان في قلبه حثان على بنيه

وحرص على سعادتهم .

ولتعلم الأمهات انهن احوج الى الاقتصاد من ازواجهن ، لأن عليهن مدار الادارة المزلية التي تستلزم من العناية والدراية والنفطنة ما لا تجهله الوالدات الحكيمات . فليحتزن من التأني في الملبس ومجاورة حدودهن فيه حتى يشددن على بعولهن الخناق . وليعدلن عن الازياء التي تقتضي نفقات يعجز ازواجهن عن بذلها حتى يدرهن على ان العرق الذي يتصبب من جبينهن في سبيل الارتراق هو مقدس عندهن ، لا يحل اهراقه الا لمنفعة او حاجة بيتية لا غنى عنها . فاذا سلكن هذه الطريقة القوية صلت احوالنا وذهبنا في ساحات الفلاح الى امد بعيد ، والا تبأنت بنا علة الاسراف وزادتنا شقاء على شقاء .

وأحرر بالنساء الموسرات ان يكن في ذلك أسوة فعالة لمن دونهن حتى اذا اقلن عن هذه العادة السيئة اشتغلن بما فيه نفع لهن ولبلادهن ، وذلك على حد ما هو جاري عند النساء الرقيات اللواتي يجتهدن في تزيين نفوسهن قبل تزيين اجسادهن حتى اصبح لهن في الاندية المدنية اعطر ذكر واجل مقام ، وأتین من الاعمال المبرورة ما جعلهن في مصاف الفضلاء والمحسنين على البشرية . وهن اليوم اكر عضد واقوى سند لذوي البرس والعاهات ، يكسون العراة من صنع ايديهن ويطعن الحياح مما يقتصدنه من نفقاتهن ، ويلطفن نواب المنكوبين بما يوقرن من الدراهم التي يقطعن نفوسهن عن بذلها في غير ضرورياتهن .

واما الاقتصاد في سائر الامور المزلية فان الاختبار أهدي دليل الى طرائقه ولا سيما اذا وضعت رنة المنزل نصب عينها ان المال الذي تُفنيه سدى يمكنها لو حرصت عليه ان تؤسس به لبنيها مستقبلاً سعيداً . فلا تحترقن الخسارة الطفيفة التي تحصل لها من إيقاد عدة مصابيح ، على حين انها في حاجة الى اشعال مصباح واحد ، ولا تستغفن بفتات الخبز الذي يبدده صغارها على المائدة ولا بفضلات الطبخ التي تذهب بدون جدوى ، ولا تتهاونن بمرعاة قاعدة الاعتدال في اصناف المطعم والاقتصاد في التأني فيها على قدر ما تتحمله الحال . فجميع ذلك وغيره من امثاله وان يكن من الامور الثانوية ، فاذا روعي فيه وجه الاقتصاد يُحَقِّق حمل النفقات على قرينها بحيث يستطيع ان

يبدله في ما يكون أجدى لاسرته ، كأن يعلم بقاته العلوم التي ترقى افكاره ان او يضع اولاده في المدارس المشهورة بدلاً من المدارس الوسطى ، او يلقنهم الفنون الجميلة في احد المعاهد الاوربية كفن الهندسة ، او التصوير ، او الحقوق ، او الطب ، او الزراعة ، او غير ذلك مما يتوسع به دوائر سعدهم وفلاحهم .

فانهجوا ايها الآباء المناهج الاقتصادية في جميع احوال معاشكم تذخروا لكم ما يُعينكم على نُوب الزمان وآفاته ويساعدكم على التحصن من جيوش الشقاوة ، والتدبر بما يقيكم سهام العوز والفقير ، وتفتحوا لبنيكم ابواب الغبطة واليسر ، وتقصوهم عن مهاوي التبذير الذي لا يُعقب الا الاسف ولا يورث غير الخسران والحرمان . ومتى ألفت جميع افراد الأمة عادة الاقتصاد ، وساروا على سبيله بعناية وتحفظ ، بلغوا ابعد مبالغ النجاح ، واستخرجوا لهم من معدنه اثن الكنوز . وكفى بالأمة الافرنسية المعتدلة في نفقاتها اوضح بيّنة للاقتناع بمنافع هذا الفن ، فانها لم تصل الى اقصى حدود الثراء والسعة الا عن طريق الاعتدال في نفقاتها ، وهي الان من اغنى الشعوب واكثرها اقتصاداً وافرهما مالاً .

الاسراف

ما من امرئ رُذِي نصيباً من الحكمة واختبر صروف الدهر وتقلباته ، وجرب أخلاق الناس وعرف الصعوبات التي يعانيتها المرء في جمع الاموال ، الا لزم جانب الاقتصاد في نفقاته ، فلا يصرف الأموال الا عند الضرورة او في الوجوه المحموده ، خوفاً من ان تقصر يده عنها لدى مسيس الحاجة اليها ، فيبيت اذا نابتته حنة على أسوأ حال ، ويصبح بين مخاطب التواب مستسلماً للجزع واليأس ، لا يصادف اذا استصرخ نصيراً ، ولا يرى اذا استنجد مجيراً ، اذ كان على حالة كان يمكنه لولا اسرافه ان يحيا معها بهنا ، ويعيش بآمن من كل شدة ، فأذنب الى نفسه ذنباً جسيماً لا يستأهل معه

الشفقة والالتفات ، وكان عليه ، لو كان من العقلاء ، ان يذخر له ذخراً يقيه بلايا
الزمان كما تفعل الحكماء ، فتغافل عن ذلك اطاعةً لنفسه الميالة الى الملاهي ، فتجاوز
الحدود ، وخطي خطأ لا ينفع معه الندم ولا يُعقبه الا الحرمان . وأية حالة اتعن
من هذه الحالة ، أم أية مصيبة اعظم من ان يفتقر المرء الى غيره في سدّ ضرورياته
وقضاء حاجات معيشته ، بعد ان كان في غنى عن الاستعطاف وفي سعة عن ذلّ الطلب
والسؤال . وأي عار اقبح من ان ينكب الرجل عياله ويُعرضهم للمهانة والفاقة
ويُقلّسهم على مواعد الشقاء . وأي شرّ اكبر من ان يحرم بنيه فوائد العلم ومنافع
التهذيب اشباعاً لشهواته ، واتّباعاً لأهواءه ، نفسه التهمة الطماعة ، فلا يرب انه لا يعرف
مقدار هذا الذنب الا من شعر بنتائج الجبل ، ودرى بعواقب سوء التربية ، وشاهد
العذاب الذي يقاسيه الهابطون من رابية الرخاء الى وهدّة البؤس والعوز ، ونظر الى
البلايا التي تتاب المسرفين وأُسرهم ، وابصر القلائل والمهموم التي تلازم منازلهم
وتشغل افكارهم .

ومن المحال ان يكون المرء على حظّ من العقل والدين وهو يرضى لنفسه ان
تتلطّخ بهذه الحلّة الشنماء التي تهدّ اركان المجتمع وتزرع الضغائن وتُفسد الاخلاق
وتجعلها شرسة لا تُطاق ، وتحمل على ارتكاب الدنيايا والمنكرات ، وتُعمد عن
الواجبات ، وتُفقد الراحة والسكينة ، وتُعدم كل لذة ، وتَحطّ من قدر صاحبها ،
وتكبّله بقيود الذل ، وتجعل فؤاده اقصى من الصخر . أما العقل فانه يحظر على
الانسان ان ينزل الضرر بنفسه ويُلقيا في هاوية الفقر والعُدم ويجعلها غرضاً للذمة
والاستغفاف ، بل يأمره ان يحوطها كل الحياطة ويتذرّع بجميع الوسائل التي تصون
مقامه وتحفظ كرامته ، وتضمن راحته وتُتيّ سمعته العطيرة ، وتتكفّل لشيخوخته
بالرغد ونعومة البال . فاذا خالف حكم عقله كان ممن استعبد هم الهوى حتى بعثهم
على خنق نفوسهم ، وايّ ضلال اعظم من هذا الضلال ، بل أية عماية شرّ من هذه
العماية . واما الدين فانه ينهي المرء عن ان يُوقع الضرر بغيره ولا سيما اذا كان من
اسرته التي يتحمّ عليه الجدّ في انجاحها وتوفير دواعي سعادها . فاذا بدّد امواله يُسيء اليها
ويكدر صفاء عيشها ، ويُلبّ في فؤادها نيران الاسى والآهف ، ويسدّ في وجهها

لبواب الفرج ' ويضيق دائرة آمالها ويكون مع الدهر عوناً عليها . وأية قساوة اشدّ من ان يعامل الرجل عياله هذه المعاملة العنيفة ' التي ينفر منها كل من في قلبه اثر للرأفة والحنان .

وما تكون منزلة هذا المرف عند اهله اذا ابصروه يهدم اركان سعدهم ' ويحرق بالهموم قلوبهم ' ويرميهم الى ساحات التجارب والعذاب . وما يكون موقعه في صدورهم اذا تحقّقوا انه ذنب خاطف يفتس ثروتهم ' وعدو مبغض ينقص عيشهم ويسبب افكارهم ' وكيف يمكنهم ان يعاشروه او يحادثوه وهو اخون لهم من الدهر واقسى عليهم فؤاداً من الوحش الضاري ' ام كيف يطيقون ان يخدموه ويمرضوه وقد غفل عنهم في آونة اليسر ' وجعلهم اهدافاً لاشد بلايا العسر ' وكيف يسعهم ان يؤاكلوه وهم كلما نظروا اليه انهملت من عيونهم العبرات ' واذا كلّموه تتابعت من صدورهم الزفرات ' واذا ذكروه ذمّوا اخلاقه السيئة وقبحوا افعاله الذميمة ' وربما خجلوا من ذكره ونفروا من صحته وتقرّزوا من روثه ' وهل من مصير اسوأ من هذا المصير . ألا فامدد نظرك الى أسرة نشأت على مهد النعمة والدلال وحقت بمواكب الترف واليسار ' وكانت على اوفى نصيب من الثروة ' لا يلقى لها نال ولا يواشها هم ولا يعلمت بنفسها شجن ' تطوي ايامها بالانس والطرب ' وتبسم لها السعادة باسطة امامها احمل الآمال ' ويحدثها المستقبل بأغزر موارد الهناء ' وأعذب مناهل السعة والغناء ' ولها في العيون اسى منزلة وفي الصدور اعلى مرتبة . ثم سوأت النفس لربها او زعيمها ان يتطرّف في نفقاته ويتمادى في تبذير امواله ' فكان يسرفها تارة في سبل اهوائه وطوراً على موائد المقامرة واحياناً في وجوه تتبرأ منها الحكمة ويأبأها الشرف ' حتى اصبح صفر اليدين فارغ الجيب ' يحفّ حولة بنوه الصغار وقدمصّهم الجوع واجهدتهم الناقة ' وايس لديه ما يدفع تضوّرهم . وهل من أسرة اتقس من أسرة هذا الوالد المرف ' الذي نغص عيشه وعيش اهله بإسرافه الفاحش ' حتى ندم على اضاعه امواله في تلك الطرق الذميمة . وكيف تكون حاله اذا وجّه نظره الى مستقبلهم ورأى الدهر مكشراً لهم عن انيابه ' والشقاء فاتحاً مهواته ليقذفهم فيها ' والذلّ ضارباً خيامه في منزلهم ' والدنيا مكفهرّة الجوّ في عيونهم . افلا يتفكّت فؤاده

لهفًا وأسفًا ويزوب صدره همًّا وغمًّا ، حتى يقضي بين الحشرات والتأوهات ، لاحقاً يوماً
زلّت فيه قدمه من ذروة الاعتدال الى وهدة الاسراف ، ومن رابية العزّ الى وادي
الهوان . فلو كان من المعتدين في نفقاته لما تورط هذا التورط وانتهى الى هذا
المنقلب الرائع .

فليعتبر المرفون اذا كانوا من اهل الاعتبار ، وليتّعظ جميع الآباء بتبعات التبذير ،
والحكيم مَنْ يجعل نفقته على قدر طاقته ، ويدّخر له ولبنيه ما يستعينون به على
النوائب ، لئلا يصيبهم من فجائع الاسراف ما يجعلهم اردع عبدة وازجر موعظة .



التقير

ما من شائبة ادلّ على الخرق وأجلب للهم وأدعى الى المذمة والمهانة كأن
يُتّبر المرء على نفسه او على عياله ، فان التقير من خلال النفوس الوضيعة اللثيمة التي
تأصل فيها البخل وسهل عليها مقاساة المشقات والضيقات ، حرصاً على المال الذي اتخذته
الهاً معبوداً ، وكلّفاً بالدنيا التي اعتبرتها داراً خالدة حتى تمسكت بها تمسكاً صدها
عن التمتع بخيراتنا بل كفها عن سد حاجاتها . وطبيعي ان المرء انما يبذل مجهوده في
حشد الاموال ليستعين بها على توفير دواعي سعيه وهنائه وصدّ هجمات البؤس
والشقاء عنه وعن عياله . فاذا كان عاقلاً لا يحرم نفسه مطالبيها العادلة ولا يمنعها ان تنفق
في سبيل راحتها وتعزيرها كل ما يسمح به الشرع ويخص فيه العقل مما تستلزمه
الحال ويستوجبها المقام ، علماً منه ان الدنيا انما خلقت للانسان حتى يستثمرها
ويستخدما في مصالحه ومنافع ابناؤه جنسه . فاذا ضنّ على نفسه بما لا يُنفقه في تلك
الوجوه المحمودة فقد ظلمها ونجسها حقها وحصرها في دائرة ضيقة لا ينال معها املاً
ولا يدرك بغية ، فيقضي العمر في الشدائد واللّوعات والقلقل والهجوم ويُعاني من
لواذع الذمّ ومُخجلات الذلّ ما لا يتحمّله إلا الانعام الأذنياء النفوس . وما شبه

المقتر بمن كثر كثرأ ولم يدعه الحرص عس شيئاً مما فيه ، فيكون حكمه مع عدم الانتفاع به حكم المعدم البائس الذي يُقلب نظره في نفائس الدنيا ومباهجها وإطايها ، ويده قاصرة عن تناولها والتشبع بها ، فيأسف على حرمانه إياها ، ويود لو لم يقع عليها بصره فيكون انعم بالآ واقنع حالاً . ولا ريب ان اصحاب البؤس هم اسعد حفظاً واعلى منزلةً وأسكن قلباً من المقترين الموسرين ، لخلو خزائنها من الاموال التي تستدعي شديد التعهد والرعاية حذراً من ان تقع عليها ايدي اللصوص ، زد على ذلك ان الناس ترق للباثسين وتنتظر اليهم بلا حيلة الحسان اذا رأت عليهم اثاراً رثة او أبصرتهم في شظف من العيش . وأما الاغنياء الذين سلكوا مسلك التقدير فان الابصار نطاق عليهم ، تستخف بهم كلما شاهدتهم في ملابس لا توافق مقامهم ، والعقلاء يزدرون بهم ويلومونهم كلما بلغهم شيء عن مجلهم .

وقلما يكون الرجل على سلامة في عقله وصحة في دينه وهو ينخرط في سلك اشقاء النفوس الذين يؤذون نفوسهم حرصاً على الديار ، ويتعرضون للمخاطر والعلل والعناء والعذاب ضئاً بالدرهم ان يُنقوها في الطرق التي تريهم وتسعدهم . فاذا دهمهم داء قلموا على فراش الأوجاع ، ولم تجد نفوسهم الشحيحة ببعض دراهم لشراء عقاقير او استدعاء طبيب يُعينهم على الشفاء ، فيذهبون فريسة التقدير ويُخلفون اموالهم لمن بعدهم غنيمة باردة . واذا سمعوا بنعيم يُعولون من الجوع والفاقة سدوا آذانهم قساوة واغضوا عيونهم فظالة ، واذا طلبوا منهم شيئاً من الملابس بخلوا به عليهم ولا يبالون بما يلحقهم من الحزي والعار ، ولا يحتفلون بما يسمعون من عبارات التنديد والاطعن ، ولا بما يصيرون اليه من غضاة القدر . واذا كانوا يشغون على بنعيم بما يُسك رمقهم ويستعراهم أفسخون بالنفقات الطائلة على تعليمهم . وما يكون نصيب هؤلاء الاولاد من الشقاء بعد ان يُجرموا الجالس الى موائد العلم والتهذيب ، وما تكون منزلة والدهم عندهم ، بعد اذ رأوا منه هذا التقدير وتلك القسوة ، وما عساها ان تكون معاملتهم له اذا وقع يوماً في بلية او ساورته محنة ، وما يكون مبلغ أسفهم اذا شربوا على العباوة وقبلوا نفوسهم العمياء بنفوس ابناء وطنهم البصيرة . وما يؤيده الاختبار ان الاولاد اذا ضيق عليهم آباؤهم وهم صغار يصبحون من اكبر

المبذرين عندما يستولون على اموال آبائهم ، فلا يلبثون ان يبذروا ما ورثوه بدون اكتراث ، حتى اذا فرغت ايديهم منه لعنوا والديهم الذين قَتَرُوا عليهم في حياتهم تقتيراً حَسْبَ اليهم بعد وفاتهم التبذير والاسراف . واذا كان المقترون ينتهون الى هذا الحد من التضيق على أسرهم واقاربهم ، فهل يُرجى منهم للاجانب نفع ، وهل يؤمل منهم ان يعملوا شيئاً مفيداً لبلادهم وللمجتمع . ومتى تمرى المرء من اهله ولم ينفع ابناؤه وطنه نبذوه من مجالسهم وسلقوه بقوارص اسانهم ، حتى يعيش وحيداً ذليلاً مهاناً ، لا نصير له في النواذب ولا ظهير في الكوارث . وهذا هو الموت الاحمر والشقاء بعينه .

على أن التقتير لا تقف بلاياه عند هذا الامد ، بل تتخطاه الى امدٍ ابعد خيراً للانسان ان يُدفن في الرمس من ان ينتهي اليه . ولا بأس من ان توسع دائرة الموضوع توسيعاً ربما حصل عنه ما نزجوه من الفوائد لمن ابتلوا بهذه الشائبة الشوها . ألا فليعلم الآباء أنهم بتقتيرهم على بنيتهم يجعلونهم لصوصاً ، وبتضييقهم على نسايتهم يفتيتهم يجعلونهم على التبدل والتهتك والتهور والاستهتار ، حتى يُصبحن من العواهر السواقط . وأية جرمة افظع من ان يُلجى المرء اهله الى اللصوصية والفجور لشجيه عليهم ومُعاسرتِهِ لهم ، ولو كان هذا القبيح الاحق قد راعى جانب الحكمة وسار على نهج الاقتصاد في نفقاته على عياله ، لكفى نفسه مؤونة العار ، ووقى عائلته تلك القوائيل الجسيمة التي هي اعظم من ان يصبر عليها كل من فيه بقية من الإباء والشرف ، وذرة من العقل والإحساس . أو ما كان الأولى بهذا الوالد اللئيم الأحمق ان يصون عرضه وسعة أسرته ببعض ذريهات يُنتفها عليها حتى لا يضطرها الى التلصص وخلع العذار . أو ما كان الاصلح لذلك الغني الشحيح ان يتمتع هو واهله بما اذخره من الاموال ، بدلاً من ان يجلسهم ويجلس نفسه في حياته عنه ، حتى يرثوه بعد وفاته ويُبذروه بدون مبالاة . ثم هم لا يترحمون عليه ولا يذكرونه بخير ، وربما فرحوا بمجاته وشمتوا به واغرقوا في ذمه كما كانوا في حياته يقتحون عليه بخله وينتظرون الساعة التي يرحل فيها عنهم .

ان التقتير لمن اشنع الخلال ، يُنزل بالمرء ما لا يُحصى من المزار ، ويغل يده ،

ويعن نفسه عن الانتفاع بما يملكه ، ويُتقده الراحة والسكينة ، ويذهب بحلاوة عيشه ويحط من قدره ، ويولد في صدره الخوف ويقطع عنه كل موارد الانس والبهجة . وما هو إلا سليل الجهل والنظم والقساوة واللوم . ومن ثواته العار والفضيحة والعذاب والذل وإهانة الذكر . فتنصح لكل من كان موصوماً به ان يقلعه من نفسه ، حرصاً على حياته ان تفتك بها جيوش الرزايا والمكارة ، وإشفاقاً على اهله ان يُقاسوا من اصناف العذاب ما لا يتسع معه مجال الصبر . والماعل من وقف عند النصيحة وأتعتظ بالغير .



المدينة العصرية

كل من فيه بقية من النيرة الوطنية لا يتألك عن ان يقف وقفة الأسف المتلطف ازاء الانقلاب العظيم الذي طرأ على العادات والأخلاق في هذه الربوع التي قدستها اقدام الأنبياء ، حتى لو نشر الله من طوتهم الرموس من اجدادنا الآباء الافاضل ، وعانينا ما اصبحنا عليه من الزيفان عن المراسد والانحراف عن الصراط القويم ، وما صرنا اليه من الإمعان في الأضاليل ، والإيغال في مجاهل التهلك والاستهتار ، لتتسقا الضعاء وأنوا انين الشكالى وتفتجوا تفتج الأيامي ، وآثروا ان يعودوا الى ظلمات اجدائهم على ان يحموا بين اعقاب نصبوا للمال انصاباً يعبدونها وجعلوا للشهوات اصناماً يسجدون لها ، واعرضوا عن مبدعهم الأزلي وتجنّدوا للخناس الرجيم يتلقون عنه الوسوس والترهات والمبادئ . السافلة ، ويروجون سلعة الخلابة بين قوم عرفوا بنفوسهم السليمة وسراثرهم الثنية .

فاين نحن من اولئك الآباء الانقياء الحكماء الذين عاشوا في حى العفة اذوع من زنا بق الحقل عرفاً . وبعد أن ارجوا الآفاق برياً فضائلهم الفواحة وانفاس احاديثهم الذكية ماتوا على فراش التزاهة تنديهم الأنفة وترثيهم الحمية ، وخلفوا

من التذكارات الشميثة والآثار الرائعة ما ينطق بفضلهم إبد الدهر ، وبقي أخلافهم من بعدهم يتباهون بالتمسك بالعصري الذي نسجت ثوبه البراق يدُ الخلاعة والضلالة حتى صار يخلب العيون بسحنته اللمعة وطلانه الحُدَاع ، ولكنه يُذيب القلوب ويُدمي الابصار بما ينطوي عليه من المخابث والحباث ، وما يجرّه وراءه من اذيال العار وما يورث صاحبه من الأذى والخسار . وإننا لنعجب للشبيبة كيف تنهافت على رداء يروق مظهرأ ويسوء مخبرأ مؤثرة إياه على ثوب الآباء القديم ذلك الثوب الذي سديته الحشمة ، ولحمته العفاف ، وحاشيته الأنفة والمروءة .

أجل كنا فيما سلف ، قبل دخول المدنية المصرية الى بلادنا ، نرى الآداب الصحيحة متجلية في اخلاقنا وعاداتنا وبادية في احاديثنا وهيأتنا ، وساطمة من نظراتنا وحرركاتنا ومتلألئة في ملابسنا وازيائنا ومتألقة في مجالسنا وحفلاتنا ، بحيث كانت الأرجاء تتأرجح من رياء رصانتنا ، والاقطار تتضوع بشذا رزانتنا ، والعيون ترمقنا بالتكريم ، والألسنة تتحدث عنا بالاعجاب والتعظيم ، ناقلّة عنا اجمل المأثورات واشرف التذكارات . وكان لنا في القلوب ارفع المنازل واكرم المراتب ، لا كناعليه من عنة اللسان ، وتزاهة الطويّة ، وسمو القصد ، وعزة النفس ، والترفع عن الدنيا ، واباءة الضيم ، والصدق في المعاملة ، الى غير ذلك من الحلى الرائعة ، والحصال الباهرة التي كانت تلازم في الغالب الأكواخ وتطوف حول الحقول ، وتنزل في النفوس الساذجة وتستقرّ في صدور القرويين ، حيث تجدها تربة مخضبة ومغروسة صالحاً للنشوء والنماء ، خلوها من اشواك الفساد والطمع والاحتيال . فلما اشرقت في سماءنا شمس التمدن الحديث أفلت تلك الصفات الزاهية الزاهرة ، وخبت نجومها من الالباب حتى انقلبنا شرّ منقلب وصار بعضنا الى اسوأ مصير ، فاصبحت ديارنا محطاً للملأق والرئاء والحُب ، ومعنداً للمصانعة الحُداعة والمجاملة الخَلابية وشرّاً للإغواء ، واحبولة لإفساد الاخلاق والإغواء ، بل لجة تضيع فيها جواهر شرفنا وكنوز أنفنتنا ، ومهواة تذهب في اغوارها يئابيع ثروتنا ، بل صخرة تصدم تقدّمنا وتسحق هزيتنا ، وعاصفة تقلع اصول اديابنا ، وفاساً تقطع عروق ديانتنا واستقامتنا ، ووناق يقيّد اقدمنا وايدينا ، وحاكم غشوم يستعبد خواطرننا ويعبث براحتنا ، ويقلق ضمائرنا

ويسيطر على قلوبنا برحانا .

فإن تلك النُفُور السليمة والطباع الكريمة والنفوس الأبية والافئدة القويمة الرشيدة ، وابن اولئك الشيوخ اصحاب الخبرة والحكمة والنخوة الذين كان يزين محافلهم الوقار ويجري على سنتهم الصدق ، وتتسَلَّل في حديثهم الغيرة وتقرن أعمالهم بالضبط والإحكام ، وتسيد امامهم المهابة ايناساروا كأنها تيار يصدُّ الشبان الجبال عن ارتكاب المعاصي واجتراح المخازي . وابن اولئك الحكماء الذين كانوا يُحْتَلُونَ بالمجتمعات بمحادثاتهم الادبية ونصائحهم الناجعة ويُعْطَرُونَ الاندية بنفحات شمائلهم ، ويُجَيِّون في قلوب الاحداث عواطف الحمية والبسالة والشمم ، بما يَقْصُونَهُ عليهم من الروايات الحساسة والأنباء المنشطة التي ترتقي اذهانهم وتولد فيهم ميلاً الى العالي والعز وشوقاً الى التحلي بالكلمات البشرية .

وابن اولئك الأطباء الاجتماعيين الذين كانوا يُعالجون اللُلل الادبية المتفشية في الوطن ليجعلوه سليم البناء ، نقياً من جراثيم الخلاعة والفساد ، مُزَهِهاً عن منافع اللامة والدناءة ، بعيداً عن مَهاوي الكفر مُترفعاً عن مهابط الذل . وابن تلك الوالدات الصافيات السليقة الزاهيات الخلال ، اللواتي لم يكن لهن شغلٌ عن تربية بنين ، وإدارة منازلهن وإتقان اعمالهن ، وكنّ اذا فرغن من الاشغال البيتية يعمدن الى الحياكة او الحياطة او التطريز ، وما اشبهها من الامور النافعة التي تُقصيهن عن الملاهي والوساوس وهواجس السوء ، وهنّ مع ذلك ساهرات على اولادهن يُراقبن حركات بناتهن مراقبةً تضمن لهن التصوّن والتحرّز من سموم الأهواء والوقوع في مكاييد الخالعين لعذار الحياء . وأين تلك الأوانس العنيفة ذوات الحدر والحجاب ، اللواتي كان يُضرب بتحصنهنّ المشل ، وكان الغلاف متجبّاً فيهنّ ومتبّلاً في لحظاتهم ، فقد اصبح بعضهنّ اليوم مضغة في افواه الاوغاد وقنينة في اشراك السفلة . ولا ريب ان الذي ذهب بقاء وجوههنّ وجرهنّ للتهنك والاستهتار انما هو التفريط في تأديبهنّ وارخاء العنان لهنّ في الاختلاط بعشراء السوء ، ومطالعة الروايات الغرامية ، وتهادي احاديث الصباية ، ورسائل الشوق والولاء ، وحضور المراقص والمتزّهات والمشاهد المفسدة للآداب المشوّهة للأخلاق حتى هوينّ في اعماق وهدة من العار

والشقاء . فلو لبثَ وراءَ الحجاب ، لا على المشارف والمنافذ ، لبقينَ على قدرهنَّ كاللآلىءِ اليتيمة في اصدافها وخفْنَّ عن البلاد تلك الأوقار القادحة التي أنقلت عاتقها خزيًا وملأت آفاقها هوانًا .

كان اجدادنا اذا عادوا من الحقول الى منازلهم مساء لا يُجدثون بنبيهم الا الأحاديث التي تُنسي فيهم روح الحاسة والورع والمروءة والإباء ، فاذا تناولوا وإياهم طعام الشاء أحيوا سهراتهم في المذاكرات المفيدة والمسامرات المهدية للنفس المقومة للطبع ، وختموا نهارهم بما يُبيّض وجه ليلهم . اما اليوم فان شبّاتنا المتحصّرين يطوون ليايلهم في المطارحات الهيامية ، والمناسبات الغزلية ، والمباحثات المجونية ، وربما قضاها بين تزييق أعراض وتلويث سمعات ، ومعاقرة بنت الحان ، وسماع غناء القيان ، او في دُور التمثيل الخلاعي حيث تُعرض الأشباح التّدعة والصور البذينة التي تُفسد الآداب ، وتحدّر الضمائر وتبيّج الخواطر وتثير الاهواء ، وتحقن الغفاف وتذوي الحياء ، فاذا تهور الليل عادوا الى منازلهم وناموا على أسرّتهم الوثيرة بعيون قريّة كأنهم لم يأتوا امراً إذا يُقلق البال ، ولم يجتروا منكراً يجرّ وراءه الأهوال .

كان الشاب في ذلك العهد اذا تردّد في امتثال اوامر والديه يشعر في باطنه كأنه ارتكب احدى الفظائع ، فلا يلبث ان يعود اليهما ويتدّامى على اقدامهما يستغفرهما ذنبه . امّا اليوم فانه يعفّهما على غير مبالاة ويزدري بهما بكل جسارة ، وربما أهانهما واغلظ معاملتهما وحَدَثَهُ القِحة التي ليس بعدها حقة الى ان يضربهما في شيخوختهما ، غيرَ حذِرٍ من سخطهما الذي يُنزل عليه لعنات السماء ويجرمه بركات الارض .

كان العامل في تلك الايام الميسونة ينصح العمل ويُخلص الخدمة ، ناهضاً بما عليه من الواجبات بكل امانة ونشاط ، غيرَ مضجعٍ شيئاً من اوقات شغله المقدّسة لاعتقاده أن هذه الاوقات ليست له بل لمولاه الذي استخدمه على ان يستقلّ بشمرات عمله في جمالة يؤدّيها له . وكان اذا قصر في الخدمة اقلّ تقصير ، او اضاع شطراً من وقته سدى ، او لم يُحكم عمله ولم يتأنّ فيه حتى يُخلّ ، يلذعه ضميرهُ بمنخسه الحادّ مبكّثاً اياه على اخذه مالاً حراماً لا حقّ له فيه ، وحينئذٍ يُضطرّ إما ان يردّ لمولاه

المال كأنه مسلوبٌ أو معصوبٌ ، أو يعوّضه منه بمضاعفة عمله والجدّ فيه والمضاء عليه . واما اليوم فإن العَمَلَة يُسرفون الجانب الأعظم من ساعات عملهم ولا يكتثرون ، وربما تعلّوا ان مواليتهم هم من اليسر بحيث لا يُؤثّر فيهم مثل هذه الحُسارة الطفيفة ، أو أنهم لا يدفعون لهم اجرة توازي عناءهم وتعادل مهارتهم ، وقد فات هؤلاء العَمَلَة أنهم بقبولهم هذه الاجرة طوعاً على غير اكراه تعيّن عليهم أن يُحضوا العمل ويُحسنوه كأنهم يعملون لأنفسهم .

كانت النساء في ذلك العهد المبارك يلزمن جانب الاحتشام في ملابسنهنّ وازيائهنّ واحاديثهنّ ، اعتباراً أن المرأة يحمل بها أينما كانت أن تنشر اريج الطهر والاباء ، وتتقنّع بقنّاع الحياء حتى يكون لها حرمة في القلوب . وكُنّ اذا اخلن أقلّ إخلال بالحشمة سواء كان في ازيائهنّ أو في حركاتهنّ أو في حديثهنّ فيجعلنّ أيّ خجل ويمتدبنّ نفوسهنّ كأنهنّ جنين أكبر جنائية . اما اليوم فلم يبق في الكُنى والأزياء اقل فرق بين العقائل المُثريات والنساء الفقيرات البطرات ، وبين السيدات الشريفات والخادِمات الخفيفات الطائشات ، بل ربّما رأيت التصوّن بأبهى مظاهره بين النيبالات الصبيات ، والتهتُك بأقبح هياتّه بين الوضيعات اللثيات .

كان الآباء من قبل لا يفسحون لبنيتهم في مطالعة ما فيه أقلّ خطر على آدابهم واخلاقيهم من الكتب الآسنة والروايات الجيّشة العفّة ، وكانوا يحظرون عليهم أن تطأ أقدامهم ساحات الملاهي والمجتمعات المضرة ، وأن يحضروا المناظر التي تسمّ دهمهم وتحقّق الفضيلة في صدورهم ، وكانوا يمتنعونهم من ملابسة قُرّناء السوء حتى يقوم المعائر . واما اليوم فإن الفتيات والأوانس يصرفون اوقات الفراغ في تصفّح الروايات المضلّة والأسفار الوبيثة ، ويشهدون المحافل الخلاعية ، وآباؤهم متغاضون عنهم حتى كأنهم مرتاحون الى ما يعملون راضون عما يقرأون . وخلاصة الكلام أن الروح قد انقلب في هذا العصر عصر المفاسد ، ولا تزال الضمائر مع ذلك مطمئنّة ايّ اطمئنان ازاء تلك الفظائع التي تقشعرّ منها الابدان ، فيا للمصير الهائل والمنقلب المخيف . . على اننا كيفّا قلّنا الأبصار في هياتنا الاجتماعية ومدنيّتنا العصرية ، يبدو لنا من تحت ظواهرها القُرارة كثيرٌ من الشوائب والمفاسد ، بما لم يكن له اثر في وطننا

على عهد اجدادنا الحكماء الأعفَاء . وكنا نودّ لو نبتى على خشونة جاهليتنا ولا نفقد شيئاً من كنوزنا الادبيّة ، ومحاسننا الفطريّة ، واخلاتنا الحميدة ، وعاداتنا السديدة ، لأنه أيّ نفع لنا من مدنيّة يمجّبن رواؤها الكذّاب وغشاؤها الخلاب ، ويُشجّينا بُباها المرّ وقلبها المدخول ، وأيّة فائدة جئناها من مُلابستنا لمن لا بسناهم من سفلة الأعاجم معرضين عن كرامهم ، وكثير ما هم ، أو يقوى احدنا ، مهما بلغ من ذلاقة اللسان وقوّة البرهان ، أن يُقنعنا بأن اجدادنا لم يكونوا مع جهلهم المطبق اسعد منا حالاً واحسن مآلاً واهناً عيشاً وارفع مقاماً . فلا كانت مدنيّة ، التهتك من ثراتها المُرّة ، والتطرف من نتائجها الوخيمة ، ولا كان علم يُجيب الينا الرذيلة ويُنقّونا من الفضيلة ، ولا كان مال يُعرضنا لأجسم الاخطار ويُلبسنا ثوب الهوان ويُسيما عيسم العار .

ان المدنيّة العصرية برونقها القَتّان لأشبه شيء بجُنة ننته عليها كفن قشيب انيق ، فاذا كَشَفْتَهُ عنها غَضَضَتْ طرفك وزويت صدرك وسدّت انفك ، وادبرت عنها هرباً من خُبث رائحتها وسماجة هيئتها . ولا اخالك تعود اليها بعد أن ترَكْتَ في فؤادك هذه التأثيرات المُنقّرة . وكأني بالعقلاء الذين احكمتهم التجارب حتى عرفوا من الأيام طوها ومرّها ، ينظرون الى مدنيّتنا الخدّاعة كما ينظرون الى المقاذر والمنازق ، ويتأسّفون أشدّ التأسّف على ما فقدناه من تلك الكنوز الثمينة التي كانت لأبائنا اعظم ثروة ، بها يُغالون ويُطاولون حتى الأمم العريقة في الحضارة المستبجرة في المعارف المتبسّطة في الفنون والاختراعات ، ولم نعرف نحن قيمتها ولذلك اعتضنا عنها مدنيّة مُبرقشة اغترّت ابصارنا ببريقها الغرّار ، فهيرتنا كما يهوى الشاب الغرّ القاتة المشوّهة الموهّمة . ومع ذلك فلم نشعر بعدُ بما أُنزلت على بلادنا من الصواعق القاتلة ، وما جرّته علينا من المِحْن الهائلة والفجائع القاسية ، ولم نُثِق من سكرتنا التي كانت ولا تزال تلعب بعقولنا السريعة الانخداع ، ولم ننتبه لأفاتها الجسيمة ومعيباتها الوخيمة حتى كأنّ على بصائرنا وابصارنا من القُرور غشاوات فوق غشاوات . وكيف يُبصر المكافيف النور أم كيف يرى القوّة العُاة فجر الحقائق الوضّاح

ومن مضار هذه المدنيّة الغرّارة أنّها ، فضلاً عن استتصالها من صدور شبّاننا

العفة وذهاها بجماء عقائنا وفتياتنا ، لم تُبق في قلوبنا هبةً للشيخ ، ولا احتراماً للآباء ، ولا مكانةً للروساء ، ولا كرامةً لأصحاب الفضل . وتغلب على طباعنا الفساد وسرى الى نيّاتنا سوء الظنون ، ودبّت في سرائرنا المخابث ونارت في ضلوعنا الأضغان ، ورخصت في عيوننا الارواح وكثرت حوادث الانتحار ، وظهرت علام الدمار وأندرتنا الدهر بالفوائل الموبقات والكوارث المجهفات ، حتى امسينا على شفير التنس والبوار ، نُغذّي نفوسنا بالمكر وعقولنا بالغوايات ودخاننا بالمفاسد وضماثرنا بالمطامع ، ونُطعيم أنسنتنا العنّش والبهتان ، فتدس السموم وتنث الاراحيف وتغذف المطاعن وتضرم نيران الفتى ، وتولد الحزازات والمشاحنات والمنازعات . فتفاقت الشرور ، وتضاعفت الجنايات ، وضاعت الثقة ، واضطرب الأمن ، وانفصمت عرى الوثام ، ونشبت الثورات : وأيُّ فؤاد لا يتفتت كمدّاً ولا يذوب لهفاً على هذا المآل الويل والالخطاط المخجل والتأخر المذآل . وأيُّ امرئ فيه مسكة من العقل لا يقبح علينا هذه المعاييب التي أشربتها نفوسنا بعد مُخالطتنا لمن مال عن سواء السبيل من أولئك القوم الضّالّ ، الذين لا تجارة لهم في الدنيا سوى نشر المبادئ الساقطة وترويج سلع الاهواء طمعاً بالمال الذي يستحلّون معه كل المخازي ، ويستصغرون افطس المنكرات وأهول المعاصي . وكان علينا ، لو كنا من المستبصرين ، ان ندع ماعتدهم من الشوائب ونأخذ عنهم محاسنهم العديدة وحلاهم الجميلة ، ونفضّه الى ما لدينا من المناقب الفريدة التي ورثناها عن اجدادنا الحكماء . فلو فعانا لآلقنا من المدنيّة الغربية النقيّة مدنية شرقية لا غبار عليها ولا مغزٍ فيها ، وكنا من ابعده الأهم مدى في الكمالات البشرية ، وأرسخها قدماً في الآداب النادرة والفضائل الباهرة ، واشرفها اخلاقاً وأسامها مبادئ وسلاتق ، واطيها سرائر وأسلمها ضماثر ، وأكلفها بالمعالي واحرصها على نباهة الذكر ورفعة القدر . ولكننا ضللنا في التشبه والافتداء فكان ضلالنا وبالاً علينا وعلى ذرارينا من بعدنا .

ولا يسعنا ان نقف عند هذا الحد من الإجمال في هذا الموضوع الشاسع المجال . وإلا أخللنا بأقدس الفروض ، وقصرنا تقصيراً يريأ بنا عنه ما نكته من الاخلاص لأمتنا العزيزة والحرص على حسن سمعتها . ومتى سردنا للقراء ما عند أولئك الاعاجم

مَنْ حَسَنَاتٍ أَعْرَضْنَا عَنْهَا وَسَيِّئَاتٍ أَقْبَلْنَا عَلَيْهَا ، ثُمَّ بَسَطْنَا لَهُمْ مَا دَفَّاهُ مِنْ حِمَاةِنَا وَأَبْقَيْنَاهُ مِنْ مَسَاوِئِنَا ، ظَهَرَ خَطَاؤُنَا وَشَعَرْنَا بِغُرُورِنَا وَاسْتَفْسَا عَلَى سَوْءِ اخْتِيَارِنَا حَتَّى تَقْسَى فِينَا مِنَ الْأَدْوَاءِ وَالْآفَاتِ مَا يُعْجِزُ أَمْرَ الْأَطِبَّاءِ . وَيُعْيِي أَحْكَمَ الْحُكَمَاءِ .

أَمَّا مُحَاسِنُهُمُ الَّتِي يُغْبِطُونَ عَلَيْهَا فَأَهْمُهَا مَا وَرَدَ فِي مَقَالَتِنَا الَّتِي عَنَوْنَاهَا « أَرْكَانُ النُّجَاحِ » فَهَنَّاكَ يُدَقِّقُونَ فِي مَا يَعْمَلُونَ وَفِي مَا يَقُولُونَ تَدْقِيقًا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ لِمُسْتَرِيدٍ ، وَيَتَرَوْنَ فِيهِ وَيَتَأَنُّونَ حَتَّى يَأْتِيَ آيَةٌ فِي الْأَحْكَامِ وَالْإِبْدَاعِ . وَهُمْ حِرَاصُ أَشَدِّ الْحِرَاصِ عَلَى وَقْتِهِمُ الشَّيْنِ فَلَا يُضَيِّعُونَ مِنْهُ دَقِيقَةً وَاحِدَةً . وَيَعْرِفُونَ كَيْفَ يُرَوِّجُونَ ثَمَارَهُمُ الْعَقْلِيَّةَ وَالْأَدَبِيَّةَ كَمَا يُرَوِّجُونَ غُلَاهُمُ الطَّبِيعِيَّةَ وَمَصْنُوعَاتِهِمُ الْيَدَوِيَّةَ . وَلَهُمْ عَلَى شَرَفِ أَوْطَانِهِمْ غَيْرَةُ لَا تُجَارَى وَحِمَّةٌ لَا تُبَارَى ، حَتَّى لَقَدْ يَهْرَقُونَ دِمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِ الدِّفَاعِ عَنْهَا وَلَا يَبَالُونَ ، وَيَبْذُلُونَ أَمْوَالَهُمْ وَأَرْوَاحَهُمْ فِي جَنْبِ تَعْزِيزِهَا وَإِعْلَاءِ شَأْنِهَا وَلَا يَشْفَقُونَ . وَمِمَّا تَنَازَعُوا وَتَشَاحَتُوا وَتَحَزَّبُوا وَتَقَرَّرُوا فَانْهَمَ يَكُونُونَ عَلَى الْعُدُوِّ حَزْمَةً وَاحِدَةً إِذَا اتَزَلَّ بِلَادَهُمْ شَرًّا أَوْ مَسًّا ذِيلَ شَرَفِهَا ، أَوْ عَرَضَ بِهَا أَوْ تَحَامَلَ عَلَى أَحَدِ عَظَمَائِهَا ، الَّذِينَ طَوَّتَهُمُ الرُّمُوسُ وَلَوْ كَانُوا مِنْ غَيْرِ أَحْزَابِهِمْ . وَيَتَنَافَسُونَ فِي الْمَعَالِي وَالْمُفَاخِرِ ، وَيَتَسَابَقُونَ فِي كُلِّ مَضَامَرٍ ، وَلَا أَثَرَ عِنْدَهُمْ لِلْحَسَدِ بَلْ يَبَارِي أَحَدُهُمْ زَمِيلَهُ فِي إِتْقَانِ مِهْنَتِهِ ، وَبِهَذِهِ الْمَنَافَسَاتِ يُفْلَحُونَ . كَذَا فَلْتَكُنِ الْوَطَنِيَّةُ وَكَذَا فَلْتَكُنِ الشُّعُوبُ . .

وَمِنْ مَزَايَاهِمُ الْفَرِيدَةِ أَنَّهُمْ يَرَاءُونَ فِي نَفَقَاتِهِمُ الْاِقْتِصَادَ الْمُبْنِيَّ عَلَى الْحِكْمَةِ وَحَسْنَ الْإِدَارَةِ ، وَالْمُتَّذَّرَ عَنِ الْبَخْلِ الذَّمِّمِ وَالتَّقْتِيرِ الْمُضَرِّ . أَلَّا أَنَّهُمْ يَبْذُلُونَ الْأَمْوَالَ بِكُلِّ سَخَاءٍ وَأَرْحَمِيَّةٍ فِي وَجْهِ الْبَرِّ وَطَرُقِ الْإِصْلَاحِ . وَمَا أَبْرَعَهُمْ فِي مَنَاصِرَةِ الْمَشَارِيعِ الْحَيَوِيَّةِ وَتَعْزِيزِ هَيَأَتِهِمُ الْاجْتِمَاعِيَّةِ . تَرَى السِّدَّاتِ هُنَاكَ حَتَّى الْمَوْسِرَاتِ يَقْضِينَ أَوْقَاتَ فَرَاحِهِنَّ فِي خِيَاطَةِ مَلَابِسٍ لِلْفُقَرَاءِ الْعَجِزَةِ وَذَوِي الْعَاهَاتِ ، يَتَبَرَّعْنَ بِهَا عَلَيْهِمْ بِطَرِيقَةٍ سَرِيَّةٍ لَا يَشْعُرُ بِهَا إِلَّا الَّذِينَ يَهْتَمُّونَ بِشَوْئِهِمْ وَيَقُومُونَ بِعَاشِهِمْ . وَكَأَكْثَرِ الْمَلَاجِمِ وَالْمَيَامِ وَالْمُسْتَشْفِيَّاتِ وَالْمُسْتَوْصَفَاتِ وَالْمُصَحَّاتِ يُنْفَقُ عَلَيْهَا ذَوُّ الْمَهْرَآتِ وَالْإِرْمِيَّاتِ مِنْ فَضَلَاتِ مَا يَقْتَصِدُونَهُ ، فَيَكْفُونَ حُكُومَاتَهُمْ مَوْئِنَهُ الْإِنْفَاقِ عَلَيْهَا وَيَحْتَفِقُونَ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ الْمُعْسِرَةِ وَطَأَةَ الْبَلَاءِ وَعَبْءِ الشَّقَاءِ .

ولهم حنكة غريبة في تأليف الشركات وترغيب قومهم على اختلاف طبقاتهم في شراء أسهمها . واكثرُ رساميلها من اموال العُمال الذين يذخرون كل يوم من جعائهم مبلغاً زهيداً يضعونه في المصارف الاقتصادية بفائدة طفيغة ، فلا تترُ عليهم سنوات حتى يبرو ما ألهم ويصبحون في يُسر وسعة . والأمة الفرنسية هي في طبيعة الامم ثروة وتوئلاً من حيث مجموعها لا آحادها ، والفضل في هذه الثروة للاقتصاد والحكمة في توفير المال وإغائه بالكنشآت الكبيرة التي يُقدمون عليها بكل جرأة وثقة وطمانينة . وكثيراً ما ينتقل سهمُ الشركات عندهم بوجه الاِراث من جيل الى جيل ، وما ذلك الا لرسوخ ثقتهم بعضهم ببعض . .

ومن مناقبهم الجديرة بالتأني والاقتداء أنهم يسهرون على مصالحهم اشدَّ السهر ، فيراقبون ادرات شؤونهم بكل اهتمام حتى لا يقع فيها ادنى اختلال ، ويتصفّحون اعمالهم ويُدقّقون فيها ابلغ تدقيق تقادياً من السهر والخطو . وللترتيب عندهم المقام الأول ، بحيث لا ترى اقل ارتباك او بلبلة في جميع أمورهم ، ولك أن تتحقّق ذلك من الخطط الهندسية التي تشاهدها في مُدنها وشوارعهم ومعابدهم وطرقهم ، حتى لقد يهدمون الوفاً من المنازل بدون أدنى شفقة مراعاة للفن الهندسي واحتفاظاً بالنظام .

وأما ذوقهم السليم في محاضرتهم ومجتمعاتهم وأحاديثهم وحرركاتهم فهو اكبر من أن يوصف . والفرنسيين هم من أشهر الشعوب في الكياسة والاناقة والمرونة والسلاسة والملاطفة والمجاملة ، ولذلك لا يطيب للملوك الاموال ، في العالمين القديم والحديث ، ألا ان يقضوا كل سنة شهراً او شهرين في باريس عروس الدنيا الثمّانة بل مرآة القبة الزرقاء على هذه الخضراء ، ومجتمع المحاسن الطبيعية والفنية والادبية واليدوية .

ومن مزاياهم الخطيرة التي غُرسَت في نفوسهم ، بعد انطلاقتهم في ميدان الحرية والاستقلال الفكري ، وبعد تنشئتهم على المبادئ الديمقراطية والخلالهم . من أكبال الاوروتقراطية ، أنهم لا ينامون على ضم ولا يطبقون الذلّ والعسف ، ولا قدر عندهم الا لدساتيرهم القوية وشرائعهم العادلة ، فاذا اتى القابضون على أعنة شؤونهم حتى ملوكهم ، أمراً لا ينطبق على الصواب ، او حكموا حكماً يخالف الانصاف ، أو

زاغوا عن طريق الرشاد ، قبحوا عليهم ما انكروه فيهم وربما عيروهم فيه رجاءاً ، وكانت صحفهم الجريئة الحرة في طليعتهم ، ترشق من جعبها سهام التنديد والانتقاد . وبهذا التحوُّط يسلمون من تهورات رؤسائهم وأحكامهم الاستبدادية ، ومظالمهم وغضاضاتهم وشوائبهم ، وينجون من مزالقهم وغفلاتهم وبواد السنتهم . وكيف يتجرأ الحاكم ، والشعب واقف له بالمرصاد ، ان ينزل بأحدٍ سوءاً ، أو يُبرم حكماً ييل به عن جادة الحق والرشاد ، أو يأتي امرأ يلحق ببلاده اقلّ اذى . ولكم من عرش تقوّضت اركانه لمظلمة اقترفها ربه ، ولكم من كرسي حُطِّمت قوائمه تحت الجالس عليه لوسوة تلتطخ بها أو خيانة اجترحها . ولا ريب ان المتساطين على الشعوب اذا رآوا فيهم الجرأة والحرية والشمم والانتباه والمراقبة والاتحاد تهيّبوا أيّ تهيّب وتحرّزوا كل التحرّز ، واذا ابصروا فيهم الجبن والاعضاء على الضيم وتشتت الكلمة احتكموا فيهم ما شاؤوا بدون ادنى حذر .

واماً سينئاتهم التي سرت اثنا عدواها عن طريق الملابس والمعاشرة او عن طريق الاقتداء الاعمى والتشبه الذميم فأكثر من ان يستوعبها هذا المقال ، ونحن نقصر هنا على ايراد بعضها تنبيها لخواطر الساهية والعيون العافلة .

وأول ما نتناوله من تلك العيوب اندفاعهم في ميدان التهتك اندفاعاً قوياً حتى اصبحوا معه الى البهيمية اقرب منهم الى البشرية . وهذه ناريس التي هي مرآة الحضارة ومقياس الذوق ، بل جنة الكرة الارضية ، قد تفتن فيها النفوة في أساليب الخلاعة تفتن العبقريين من هذه الأمة النجيبة في ضروب الاختراع . حتى لا تكاد تلج ردهة من ردهات التشيل الشبهي والتطقي في تلك القاعدة الخلابة حتى تنبو عينك عن المشاهد المستقدرة ، التي تُذكى في الصدور أجيح الشهوات ، وتُميت من النفوس أرق العاطفات ، وحتى تجع أذنك ما يقع فيها من الكلمات البذيئة والعبارات السفهية الجامعة لكل ماخطته يد الفحش في معجم الفحش ، ومايفوه به غلمان الازقة وعُباد الاهواء الاوغاد . واذا أجملت النظر في بعض كتبهم السافلة ورواياتهم الساقطة تحسب نفسك كأنك في مرحاض او في جبانة . وقد قذفوا الى بلادنا من هذه السلع الفاسدة ما تهافت شباننا العماة على شرائه حتى اضاعوا آدابهم ، وفقدوا حيائهم ،

وخسروا عفافهم ، ولا يزالون مع ذلك عاكفين على تلك الموارد الوبيثة كأنها من اعذب الموارد ، وهم لو كانوا من المستبصرين لآيقتوا ان جميع الآفات التي تولت ببلادنا ، وكل الملمات التي اصابتها وسحقت عظامها ، انما انتقضت علينا من ذلك الجور الوبي .

اما الشائبة الثانية التي اخذناها عنهم فهي الوأرع بالأزياء ، حتى اصبح اكبر المؤسرين في بلادنا يشنون من المبالغ الباهظة التي يُنفقونها على ملابس عقائهم وزرّينهم التي تتجاوزن فيها كل حد ، بحيث اوشكت ثروة البلاد ان تغور في تلك الفوهات الواسعة بل الهاوي العميقة . وان الشبان المخنثين ليسوا باقل هياماً بالتبرج من سيداتنا المتبرجات ، مما جرّأ الجنس اللطيف على ان يتجاذى في غيّه ويُفِرط في ترثيته . والله اعلم بما يكون من مصيرنا اذا دامت الحال على هذا المنوال . . .

واما الشائبة الثالثة التي سرت جرثومتها القتالة من تلك الربع الى بلادنا وفتكت باجسامنا فتكها الهائل فهي المضاربة والمقامرة . فكم من بيت كانت السعادة ساطعة الأشعة في سنامه والثروة مخبئة في فئانه ، قد دُكَّت جدارته وتداعت اركانه لتزول ربه او ربته الى ميدان المضاربة وانكبايها على موائد المقامرة . ونحن نعرف أسراً عديدة كان يُعْطِها كبار الناس على ما هي عليه من اليسر والسعة ، فأصبحت تُغْطِ اصغر الناس على حسن حالهم بالنسبة الى الحال المحزنة التي صارت اليها بعد تبذير اموالها في اسواق المضاربات وفي المقامر المتلفات . . .

هذا وقد بقي غير شوائب ليست باقل اهمية من التي ذكرناها كالبراز والانتحار والاستهتار وما الى ذلك مما يضيق عنه نطاق هذه المقالة . فلنتقف الآن عند هذا الحد ولعل في ما اوردناه ما ينفع الغلة ويحث ابناء الوطن على الاعتبار والاستبصار ، ويوقفهم على الخطأ الجسيم الذي ارتكبهوا بخلعهم ثوب آدابهم الشرقي الرائع وترديهم بالرداء الغربي الذي تبدو عليه مسحة من الرونق الخداع والبهاء الكذاب ، وفي حواسيه وطياته مغامز ومفاسد لا تحفى على الحكيم البصير . ولذلك عرضوا نفوسهم وبلادهم لنبال التعيير والامتهان ، وباتوا على شفير الفاقة والإفلاس . ولقد كثر اسوء الخط عدد المتشبهين في اولئك القوم من كلا الجنسين في هذه البلاد ، ولا سيما حيث

نشر التمدُّن بساطه وضرب العمران خيامه وشدَّ العلم اطنابه وبني اليُسْر قبابه ،
وربما سرى هذا الداء العضال في الدساكر والمزارع وتسرَّت جراثيمه في الأرياف
والأرباض بل في الأخبنة والأكراخ ، ولذلك لم يبقَ من سبيل الى الاستهجان
والتبصيح والقدح والتعير ، فكُلُّنا في المصيبة سواء .

فيا أيها الزعماء العقلاء والروساء الحكماء عطفاً على هذه الأمة التي تتوالى عليها
النكبات من كل حدبٍ وصوب ، ورقفاً ببلاد تنقضُ على بنينا الصواعق من كل
أفق وجو ، فلقد بلغ السيلُ الرُّبى وطهى طوفان الشتاء حتى غشى الرُّبى ، فاذا لم
تتداركوا وطنكم زاد خراباً على خراب وضيقتاً على ضيق ، وتعدَّر على أُمهر الأُساءة
ان يُبرئوه من دائه العياء ، وعجز أحكم الحكماء عن ان يُنعشوه من عثرة البلاء .
وكنا نودّ لو يتَّسع لنا النطاق لاستيفاء مضار المدنية الحديثة واستقصاء مفسادها
وآفاتِها ، ردعاً للنفوس الكليّة بطلاوة الحديد عن ان يستورطوا في مخابثها ويتسرَّعوا
في حمات قبائحها ويُغربوا في ميدانها ويتوغَّلوا في مذهبها . ولكننا اجتزأنا الآن
بهذا القدر اليسير ولعلّه كافٍ للتبصرة والتذكير . وستعود الى تفصيل هذا المُجمل في
مقالات مترادفة متناسقة تُشبع فيها الكلام على كل ما انتقل اليُنا من المساوىء
وألفناه من العادات الذميمة وتطبَّعنا به من الطباع اللثيمة ، بعد تهاقُّتنا على تلك المراتع
وإقبالنا على تلك المناهل والمشارع ، حتى اذا شعرنا بوبائتها واطَّلعنا على وبالها
ووخامتها اقلعنا عنها وانقذنا البلاد من غوائلها ودواهيها ، ومسحنا عن جبهاتنا عارها
وكفينا نفوسنا مخازيها ..



الاتقياد الاعمي

ان هذه الآفة من أعرق الآفات في ربوعنا اللبنيّة واجسمها ضرراً ، وأدّ لها
على ضعف الارادة وقصر النظر ، وتقييد الحرّيّة وتسخير الضمير ، وأحراها بالذلّ
والغضاضة والامتهان ، لأنها تُعرب عن حساسة في النفس وسفالة في الأخلاق ،
وتُفصح عن توغل في ميدان الجهالة والغبابة ، وتنبئ عن إغراق في الاستسلام

ولإعراق في الرق والعبودية .

واننا لنعجب من رجل أنفث في السماء ورأسه لا يُفنيق من سكرة الخيلاء كيف يُسَلِّم الى زعيمه زمامه كما يُسَلِّم الفرس الى فارسه عنانه . . . مع ذلك يثني مشية الطاووس ويتثنى تثنى الأغصان ، فكأنه يعدّ من المفاخر ان ينضوي الى وجيه ، او يتطوّر لخدمة كبير ، واقفاً نفسه على تنفيذ مقاصده ، حتى اذا ظفر مولاه ببغيته تركه وشأنه ، وهنا الشماتة والمار . .

وحسبك ان تقي ساعة في ساحة الشهداء يومَ انتخاب الاعضاء للمجالس البلدية او النيابة حتى ترى كيف يكون الانتقاد الأعمى والتطوُّع المدهش والاستدقاق المخزي . هناك تتراحم الاقدام وتحتك المناكب وتسابق السيارات والعجلات مشحونة بالصيادين المسكرة الدهاة والقناصين الماهرين ، والى جوانبهم الطرائد التي اصطادوها والأسماك التي علقت في شباكهم .

هناك تُبصر ما يُدمي العيون ويُقرّز النفوس : اناساً يشترن الضمائر بالدنانير ، ويفرّون الخواطر بالأصفر البراق . هناك ترى الدلائل الختالين ، والعبيد المستسلمين ، ومن حولهم زعماء الأحزاب ورجلهم يموجون ويمدون عصابت عصابات مترقبين سوانح الفرص لاستهواء مندوبي الشعب ، وهم بين طُروب جذلان تتلأل على اساور جبهته اشعة الأمل بالفوز وتلوح على بحياه امانر القلبة والانتصار ، وجزوع فيشل يانس كاسف البال كلوح الوجه ، يتطاير شرر الغضب من عينيه ، وتتقد جذوة الحقد فوق شفثيه ، وهو مع ذلك لا يزال يُشدّد قواه الحائرة ويشعد عزيمته النابية لعله يفوز بأمنيته .

فما الذي حمل تلك الزارفات التي تتسوّج وتضطرب في الشوارع كأنها قطعة من غاب على ان تمادر ربوعها الهادئة الآمنة ، وتقبل على ساحات المدينة الفسيحة حتى تريد جلبة على جلبة ، وضوضاء على وضوضاء . وما الذي بعث المرشّحين نفوسهم للعضوية النيابية على ان يجولوا تلك الجولات في ميدان السياسة ويكرّوا تلك الكرات العدائية على اقراهم الزاحمين لهم ، وما الذي حدا المتجمهرين الى موالاة الاجتماعات وتجاذب الأحاديث وقطع العهود وتغليظ اليمين . وما الذي دعاهم الى تأليف

الاحزاب وجمع الأشقات وضمّ القوى ، بل أي شيء يُريدون بهذه المعركة العنيفة والى آية غاية يرمون .

فاذا كانت مصلحة الوطن هي التي أنطقتهم بما نطقوا ، وأنهمضتهم لما له نهضوا فللّهِ درّهم ودرّ الغرض الذي اجتمعوا له ، لان منصب النيابة من اجل المناصب وأوسعها مجالاً لخدمة الأمة واكثرها تحميصاً للرجال واجلاها للقيم والأقدار ، ومتى كان المرء على اوفى قسط من المعارف والمدارك واعظم جانب من الخبرة والدهاء وجودة النظر فخرام عليه ان يعتزل كرسي النيابة ويحرم أمتة ثرات غيخته وحكمته وذكاؤه . واما اذا كانت مصلحتهم الذاتية هي التي استزلتهم الى الميدان فما كان أحرارهم ألا يخططوا لنفوسهم هذا الثوب الغليظ من الخيانة والهوان .

وانه ليؤلمنا أي إيلام أن يتقاد الشعب الى هؤلاء السادات انقياداً اعمى ، ويعينهم على نيل بُغيتهم ويُهد لهم السبيل الى الفوز بنصب لم يُخلق لهم ولم يُخلقوا له ، وكان على زعماء الأمة وعقلائها ان يعتقدوا الاجتماعات ويتبادلوا الآراء ، ويوالوا المفاوضات حتى يردعوا العامة عن الاستنامة الى جميع الذين تتبرأ منهم الوطنية حتى يحولوا بينهم وبين المنصب النبالي الشريف .

ونحن لا ننكر ان عُشاق المناصب يشذّون عن الاحصاء في البلاد العريقة في المدنية ، واكثرهم من اعيان أُمهم ومن ضيابة الشرف وأقطاب العلم والسياسة فيها ، ولكنهم لا يقصدون بترشيح نفوسهم لمثل هذه المناصب السامية الا أن يخدموا بلادهم بكل ما أوتوه من المواهب الفريدة والمناقب الحميدة ، لا أن يبيعوها في سوق النخاسة ويميلوا عليها كما رأوا في الميل منفعة لهم . .

ولمذ الآن الى اوائك المتحرّين الذين يخوضون الميدان السياسي ويجاهدون ذلك الجهاد الحماسي رغبة في ان يُحرز زعيمهم النصر ويفوز بما تطمح اليه نفسه ، أترأهم يعرفون ثقل المهمة الملقاة على عواتقهم ، أو يخطر في بالهم ان الموقف الذي هم فيه من أهيبّ المواقف واحتيا بالاهتمام ، أو يشعرون بخطورة تبعيتهم وعظم مسؤوليتهم امام الله والوطن والشعب الذي عهد اليهم ان يمثّلوه في انتخاب خير الرجال لخير المناصب ، أو يفتكرون أن العيون ترصدهم من كل جانب ترى أُمهم من المخلصين

ام من الخائنين ، وأن النفوس نطاق عليهم ، والأعناق مشرّبة اليهم ، والقلوب ترف فوق رؤوسهم نازرة بناد الصبر الى ساعة الاقتراع ونتيجته . أو يجولون أن التاريخ فاتح صفحاته الخالدة ليُسَطر فيها آثار أمانتهم او خيانتهم ، وأن الأمة التي استأمنتهم على ان يحضروها الخدمة ترعاهم بعين يقظى حتى اذا برؤوا في قولهم وانجزوا ما عاهدوها عليه نقشت مبرّتهم على حبة فؤادها ، ولألا استزلت عليهم مساخط السماء ولعناتها . أو يرفعون ابصارهم في تلك الساعة الرهيبة الى العرش العلوي حتى يتهيبوا الموقف ويتحاشوا عن اتباع الهوى وينفروا من الانقياد العبدى ويترفعوا عن الخسائس . أو ينظرون اذذاك الى ما يحول في خواطرهم ويتمثل في ضمائرهم من الحقائق ، فلا ينطقوا الا بما يوحيه اليهم الوجدان وتغلبه عليهم المصلحة الوطنية . فلو كانوا يفعلون ذلك لما رأينا من اكثرهم ما يضحك ويُبكي مما يلقي على الوطن أثقل عبء من العار ، ويؤول الى الحراب والبوار ، وكان مجلسنا النيابي من أجمع المجالس للرجال الأتماء الزهراء ، وكان المفوض البلدي حافلاً بالأعضاء الصادقين الاوفياء .

ولقد مررنا مرّة في ساحة الشهداء وشهدنا المعركة الانتخابية ، وسمعنا بأذنيننا ما آثرنا معه الصّم ورأينا بقلبتنا ما حبّب الينا العمى . رجالٌ أُميون لا حظّ لهم من العلم والسياسة ولا نصيب من الخبرة والكياسة ، ولا إلمام بالواجبات الوطنية ، ولا فهم على شيء من الاخلاق الأبية والشمائل الشريفة ، واقفون في تلك الرّجة الفسيحة كأنهم تماثيل جامدة او جلاميد ناطقة ، فسألناهم عن السبب الذي يسوقهم الى ترشيح فلان لمنصب النيابة ، فكان بعضهم يقول : إن يداً قوية تضطرني ان انحاز اليه ، « ولعلّ تلك اليد هي الاصفر البراق » وقال آخر : إن له عليّ ايادي بيضاء ، وهذه هي الساعة التي يُمكنني ان أكافئه فيها . وقال غيره : إنه اقرب اليّ في الجوار من سواه ، فضلاً عن كونه من ملّتي ومن مذهبي . وقال غيره : هو من حزبنا ومن اشدّ الاعداء لمن يُضمر لنا البغضاء ويحارننا بالعداء . الى غير ذلك من التعليقات الواهنة التي تبهرن على أن أولئك المندوبين الذين سيلقون الفرعة لم يفقهوا خطورة المهمة التي انتدبتهم لها الأمة .

ولقد كنّا نُنْهَد لهذه الفتنة العذر لو وقفت عند هذا الحد ، ولكنها تطلّخت في دنايا

تغضّ دونها عيون الشرف والتزاهة والشتم ، وتأبأها الوطنية الأبية والحمية القومية . كيف لا وقد كنتَ هنالك كأنك في سوق رائجة تُعرّض فيها الضمائر ويُباع الوطن وتُداس الغيرة والاستقامة ، وما أكثر البائعين والمبتاعين . كنت ترى ميزاناً منصوباً في إحدى كفتَيْهِ المصلحةُ العمومية ، وفي الأخرى الذهب الوهاج الذي كانت ترجح كفتَهُ على تلك رجحانَ الجبل على الحمل . كنت ترى الأمانة متسليّةً مرتديةً بثياب الحداد ، والحياة تخطر رافعةً لواءها على رؤوس الأشهاد . كنت ترى الدُّهاة المَكْرَة ينفخون في ابواب التعصّب ناصبين حباثلهم ليصطادوا بها تلك النفوس العمياء . فما كان اقبحه منظراً وأخزاه مشهداً يُقَيِّتُ الأكباد ويصدع الابواب ، ويجرح الضمائر الحرّة والصدور التّزيهة .

أجل لقد شتت يومئذٍ بين الأحزاب حرب سياسية ضروس ابن منها حرب البسوس ، وذُكِّرَتنا بحرب الوردتين التي هزّت الحافقين . ولكن ليس في هذه الحرب السافلة من سلاح سوى مكرٍ مُستباح ، ولم يكن الظفرُ فيها إلا لا يذلل المرشّحين مالا وأكثرهم احتيالا . وكنت تسمع في ذلك القضاء ضياحا كاد يشقّ حجاب السماء ، حتى تظلم خاطر الليل الهادي من الضجيج ، وتألّم من يريق الدنانير الذي كان يزق ثوبه المخملي ويُفقد روعته وهيئته . ولعله خجل كل الخجل من الافعال الدنيئة التي أتاها الخائنون تحت جنحه ، وقد بدت لكل ذي عينين كأنها وقعت والشمسُ في كبدها .

فأي جُرم أهول من أن يبيع المرء وطنه ببضعة دنانير ، وأية خيانة أفضح من أن يُعرّض أُمته للتعمير والتفريق ، وأية جناية اكبر من أن يُضحّي بشرفه وشرف قومه على مذابح السفالة والطمع ، وأن يعصي خالقه ويخالف حكم ضميره تشيعاً لأُميره ، وأية خلة اقبح من أن يصعد عشاق المناصب وخطّاب المجد على سلام الرشوة والخذاع ومرآقي التذلل والترئّف ، وأي عار أجسم من أن تنحني رؤوس أولئك السادة الصيّد أمام هؤلاء العبيد هارقين ماء وجوهم على أعتاب الحكّام ، غير مبالين بما يجرون وراءهم من أذيال الحزّي ، ولا عابئين بما يُجْلَنُون في صدور العقلاء من قبيح الأثر وفي بلادهم من سوء السمعة . وهل توازي اللذة التي يذوقونها عند جلوسهم

على المقعد النيابي ما يسمعون من كل فم، ويتصفّحونه في كل جريدة من انهم ارتقوا الى تلك الذروة على اكتاف الأذئاب، بعد أن أعموا بصائرهم بندرات الذهب، واطمعا أبصارهم بالبرق الحلب، وبعد إذ داوهم بحقن تحدير الضائر وتسكرن الخواطر... ألا قاتل الله المناصب ما أغرّها للهائين بالمراتب، وتزّهنّا عن مساوي تسود صفحات تاريخنا وتغضّ من اقدارنا عند اصحاب الأنفة والزهة والعفاف.

على اننا لا نستغرب الجهد الذي أفرغه المرشّحون استهواء للمندوبين واسمالة للزعماء واستعطافاً للمتسلّطين، وانما نأنف من الذرائع التي تذرّع بها بعضهم ادراكاً لغايته ونيلاً لبغيته. ولم نكن نعهد للرشوة من اثر في مثل هذه الترشيحات النيابية والبلدية الا من ربع قرن، وقد لعبت اهمّ ادوارها في السنين الاخيرة. ولعلّ الضغط من اصحاب الوجاهة والمكانة والسيادة على النفوس الضعيفة، هو الذي استدرجها الى التلطّخ بما تلطّخت به، فاصبح المرشّح الذي تُعارضه السلطة وتحول دون أمّنيته، مضطراً الى تأليف حزبٍ له ينضمّ تحت لوائه بما ينفحه به من الدنانير الفرّارة، وما من شيء أصيد لقلوب السفلة من المال، فانهم يوترونه على رضى الزعماء والوجهاء والعظماء والروساء، بل على نفوسهم وضائرهم ووطنهم وأمتهم. فتداركاً لهذا الخلل وفراراً من هذا الداء الويل، نستهم الحكومة ان تُشرك الشعب كلّ في الاقتراع حتى يألف الحرية والاستقلال، ولا يتلوّث بالחסائس والمخازي التي تفسد سمعته. لانه مهما تدقّت ثروة المرشّح وتناهى كرمه يعجز عن ان يستميل اليه بما له ألوفاً في ألوف من ابناء ولايته، وانما يسهل عليه ان يستدرج بنقوده مئة اومئتين من المندوبين كما هي الحال في ايامنا هذه. ولو كانت الأموال التي تُبدل في هذه السبيل تذهب من خزانة المرشّح لهانت البلية، ولكنه لا يلبث ان يتصّدّم الشعب بطرق جائرة وحيل مستعربة ودهاء مدهش، حتى يضمّ الى ما أنفقه في تلك السبيل اكداساً من المال، وهذا على ما زجّج من ادعى الدواعي الى التهاوت على المناصب. فعسى ان يُقلع اعياننا واغنياؤنا عن هذا المورد الذي لا يخلو احياناً من المرائر والمكابر، وعسى ان ينشأ ابناءؤنا على الاستقلال الفكري، والترفع عن الدنيا، وإيثار المصلحة العمومية على كل مصلحة، حتى نرفع عن ظهر الأمة أوقاراً ثقيلة رزحت تحتها وكادت تسحقها.

المداهنة

من أخطر الأدواء الاجتماعية وأجراها على الالسة وابعدها انتشاراً أن يُخالف المرء حكم ضميره في حديثه ومقاله . ولا يخفى ما في ذلك من المكر واللوم ، لان صاحب هذه النقيصة لا يرى له ذريعة يستميل بها القلوب اليه إلا ما ينسجه من عبارات الملق والمدالسة ، فينثر على عشيره أزهار الثناء على مزية لا يظنّها فيه ، حتى اذا تنشئ رايها بطيبة خاطر زاده اطراء الى ان يسكر فؤاده بسلافة المدح الكاذب ، فيشغله عن اصلاح نفسه بما يسمعه إياه من كلمات التقريظ ، حتى لقد يتوهم القبح فيه حسناً والتقص كمالاً ، فيقع في لجة الصلف والزهو ويتطوّر تطوّراً يعقب الحرمان والفشل ويورث الملامة واللف .

ولقد تفشّت هذه الشائبة في بلادنا حتى يكاد لا يخلو منها طبع ولا يشطاماها لسان . وانما سؤل للنفوس العلق بها توهمها أننا في عصر لا يحمل بنا فيه أن نبرز جميع مكنونات صدورنا خوفاً من ان تصيب موقفاً سيئاً في قلب السامع ، فيتكدر صفاء طبعه ويتقلّص ظل أنسه . ومن المعلوم انه اذا سارت في الرأس سورة الخيلاء راجت عند المتعجرفين سلعة المداهنة ، وآثروها على لهجة الصدق والنصح ، وراعوا لصاحبها جميلاً كبيراً كلّما اثني على مآثرة لم يأتوها او عزا اليهم فضيلة لم يتجملوا بها ، او كبر في عيونهم عملاً لا يستحقّ عند العقلاء ذكراً ، او لطّف عليهم ذنباً اقترفوه فهدّ له عندهم عذراء الى ما هنالك مما يسدل على البصائر غشاوة من الاغترار ويُثير في الاذهان غمامة من الغواية والضلال .

على ان المداهنة لا يكون لها نصيب من الهزة والارتياح عند اصحاب العقول الراجحة والرأي الصائب ، اذ يخرقون بداركهم النافذة سرائر المداهنين ويُبصرون بلواحظهم الحادة ما لهم في صدورهم من المذلة . حتى اذا مدحهم بما ليس فيهم ، او رفعهم الى مرتبة هم ادنى منها ، لقموهم حجراً او أشعروهم على الأقلّ انهم ارفع من ان يُخدعوا ، وابعد من ان تقطعهم المداهنات عن تهذيب نفوسهم وتقويم اخلاقهم ،

بل أجلُّ من ان تتَمَوَّه لهم الحقائق واسمى من ان يتعاطوا خمرة يخبئها ذوقهم السليم .
ولذلك ينجحون من ان يُطَلَّب في مدحهم ويُبالغ في وصفهم ، ويُنجحون من داهنتهم
باطراح ما نسب اليهم وهو مغالف لظنِّه فيهم وظنهم في انفسهم . وهيات ان يعود
ارباب هذه التجارة الى عرض سلعمهم على من نبذها لهم نبذ التواة ، وانما يبسطونها
امام الجهلاء ويهدونها اليهم طُرفة ثمينة تصادف عندهم مقاماً رفيعاً وتستوجب مزيد
شكرهم وجيليل محمدهم . ولا ريب ان المدالسين اذا آنسوا على بضاعتهم اقبالاً
ازدادوا بها اِتِّجاراً ورغبوا في عرضها طمعاً في ان يخطبوا مودةً من يسمعون له ويتألَّفون
منه وربما لم يكن لصداقته عندهم شأنٌ يحملهم على ان يتودَّدوا له ويصانعوه ، وانما
غرَضُهم ان يزدروا به ويستخفوا بعقله الذي يستغزُّه الثناء الاًبلاغ حتى يُعْميه الغرور .
فاذا غادروا مجلسه انبأوا اصدقاءهم بسرعة مهزته للاطراء وشدة اغتراره به ،
وسهولة اصطياذه بشباك المداهنة والدهاء .

وايُّ عار اعظم من ان يسخر الناس بالمرء وهو يتوهم أنهم يُكرِّمونهُ
ويُجْانونهُ ، وأن يلبسوه ثوب الضعة والمهانة وهو يظنُّه من حلال الملوك ومطارف
الأمرأ . وايُّ عيب افضح من ان يُجْلَعَ على نفسه رداء تسع على جسمه اذياناً
وأن يترياً بزي ليس عند الناس ولا عند نفسه معروفاً به . ومن العجب ان يرضى بان
يُعزى اليه ما لا يعرفه هو في نفسه ، فكأن هياماً بالثناء يحمله على قبول ما استعير
له ، وربما اهتزَّ به طرباً بل ربما نسب الى محدثه العداا اذا لم يسمعه ابلغ عبارات
الاطراء ، او لم يكرِّرها عليه كلما التقى به حتى كأنها حلية من حلاه او سمة
من سماته .

وبديهي ان المداهنة تشين كل امرئ وتحتط من مقامه عند ارباب الأنفة
والصدق ، لانها من مولدات الكذب والنفس والحيانة . ويقبحُ بكل رجل ان
يتلطَّخ بها ولا سيما اذا كان من عليّة قومه ، او ممن يترتب عليهم الاصلاح والنصح .
فاذا داهن الرئيس مروثوسيه والاب ولده والمولى خادمه اتسعت ثلثة عيوبهم
وازدادوا تهاقناً على المنكرات وقادياً في الشر . وما من شيء أضر بالانسان من ان
يكنتم عنه اصحابه ما فيه من الشوائب ، فان النفس قلما تشمر بنقايتها لشدة ميلها

الى المدح ، ولذلك تراها كثيرة الانخداع ، فاذا لم يكن لها ناصح يُعِثِّرها ويُوقنها على صوبها رزيت بحالها من النقص ، ولا يحفى ما في ذلك من سوء النتائج .

على ان الضرر يكون اشدّ وابلغ اذا كان حول الرئيس او الحاكم قومٌ دأبهم المداينة والمَلَقُ والاطراء ، فانهم بعداهنتهم يُخَوِّنُونَ زعيمهم ويُعَرِّضُونَهُ لِلْمَلَامَةِ والذم ، اذ يُقْصُونَ عن بصيرته نور الحقائق حتى يستمسك بالبطل ويزداد تصلباً برأيه واعجاباً بنفسه وثقةً بصلاحه وكفاله ، فيظلم من حيث لا يتصد الظلم ويُفسد من حيث لا يريد الفساد ، ويسلك في سياسته مسلكاً معوجاً يُنْقِرُ منه القلوب حتى يصير بغضاً الى مروءتيه محترماً لديهم ، وهنا الطامة الكبرى . فلو كانت بطانة الرئيس مُخلصه له امينة في حقه لأوقفته على كُنه الأمور واطلعت على عيوب نفسه ، رعاية لسنّة الوفاء . ولا بدّ اذا كان من العقلاء من ان يُجَلِّ نصحهم محلّها من الاعتبار ويعمل بموجبها . واما اذا كان من المعجّين بنفوسهم فانه لا يُعِير كلام الناصحين أذنّاً واعية ، بل يفعل بحسب ما تزيّن له النفس ، والنفسُ أمارة بالسوء . وكثيرة الاغترار ، وحينئذٍ فلا يقع اللوم الا عليه .

ونحن لا ننكر ان المهابة تتسلّك عادةً المقربين من الرؤساء وتمنعهم عن ان يُخْلِصُوا لرؤسائهم القولَ حرصاً على مناصبهم ان ترزعها الحرية في الكلام ويهدمها النصيح . فلاّن يعتزل المرء منصبه قياماً بواجب الامانة أولى من ان يبقى فيه بالمرور والرتاء والبهتان .

ولا ريب ان الصحافة لا يُغتفر ذنبها اذا تلوّثت بأدران المداينة وعمدت الى التشويه والتسليق ، فانما أستاذ الشعب ودليله ومصباح هداة . فاذا كتمت عنه عيوبه وحسّنت لديه عاداته السيئة بقي على جهله وضلاله . واية خيانة افطع من خيانة شعب برّمتة ، لا يؤثّر فيه شيء . تأثّر الصحافة . ولا عذر لأحدنا فيا اذا تقاعد من النطق بالحقيقة مها ناله من الحسائر المادية ، فان اصلاح عيب في الأمة افضلُ من جواهر الارض وكنوزها . هداانا الله جميعاً سواء السبيل ووقفنا الى خدمة البلاد بصدق وامانة واخلاص .

الترف الذمير

فشت هذه العلة المخجلة في البلاد حتى لم تسلم من جرائيمها طبقة من الطبقات ، ولا خلقٌ من الاخلاق ، ولا سياتلاب المناصب فانها متأصلة فيهم حتى نكاد لا نرى لهم دواء ناجعاً ولا علاجاً شافياً ، واذا اهتدينا الى معالجتهم فهم لا يُجِبُون أن يتدأوا خوفاً من أن تفارق العلة ابدانهم فيكونوا بفراقها اكثر اعتلالاً منهم ببقائها ، وهنا الشر الأكبر ..

يُريد عُشاقُ المناصب ان يستروا على كرسي السيادة إماً تُلذِّذاً بسكرة السوُدد ونشوة العز ، أو تسلياً الى الانتقام من عدوٍ يطلبون قهره ويتغنون عسفه ، او طمعاً في المنافع المادية والمكاسب الدنيوية التي يُصَيِّبونها من وظائفهم او من وجوه محظورة عليهم . وأكثرهم يسمي اليها بالتُرُف والتذلل والاستعطاف والاسترحام وما شاكل من ضروب الهوان ، حتى اذا قَبِضَ له يُن الطالع ان يظفر بأمنيته جرّ أذيال الخيلاء وسبح في جو التيه والعُجب ، حتى كأنه افتتح حصناً منيعاً أو شيد لوطنه من المجد صرحاً شامخاً .

فلو كانت المناصب لا تُسند إلا الى ارباب الجدارة والعفاف لما كان من سبيل الى طلبها بطرق مخزية ، ولما بطر الفاتزون بها هذا البطر المضحك . ولو كانت الحكومة نزيهة والرئيس حزوماً مهيباً منصفاً لما جرؤ احد على الارتشاء والإرشار والاستبداد بعباد الله والتلاعب بحقوقهم والميث بدعائهم . فائقوا الله يارب العالمين . ان الترف حلة شماء لا يألؤها الأنوف الأثني ، لانه يترفع عن الاستكانة والصغارة وتأبى نفسه الحرّة ان يسعى الى الخطوة عند الحكماء عن طريق التملق والمصانعة ، وهو أجلُّ من ان يكون عبداً رقيقاً طمعاً في منصب اورغة في نيل رتبة او ادراك مطلب ، بل يوثر ان يستمر بين قومه نسيّاً خاملاً وهو حرّ تزيه شريف ، على ان يقبض على نواصي المجد ويجلس على عرش السلطة بالخنوع والتخاشع . اما الرجل اللئيم فلا يهتئ ان يُجرّ على اقدام ذوي السوُدد ، ويعقر الجبين عند اعتاب اصحاب

الكلمة النافذة للفوز برغائبه ، فاذا نال منصباً بطر وشمخ بانفه وطنى وبغى شأنَ
الوضع الحسيس اذا ظفر بنعمة وهو غير اهل لها فلا يبرح يتبختر ويختال حتى يفقدها
والمترلف لا يكون حرّ الضير ولا أميناً ولا صادقاً ولا نصيحاً ، لأنه يلجأ في
الغالب الى المداجاة والمواربة والمدح الكاذب والملق ، حتى يتسنى له ان يتقرب من
يتوقع منه فضلاً او مقاماً ، فاذا رأى عيباً في خلال مولاه صورته في عينيه كمالاً ،
واذا ساء خلق من اخلاقه أوهمه أنه من محاسن الطباع ومكارمها ، واذا اتى فعلاً
ذمياً مثله له مكرمة رائعة ومأثرة باهرة ، واذا اقرّف زلفة عدّها له من المناقب
الثريدة والحصال الممتازة ، فضلاً عما يُلَقِّق له من الاحاديث ويُزخرف من الاقاويل ،
ويتقل له من التخرّصات على من يُبطن لهم العداء ويضمر البغضاء ، قصد ان يبت
اسباب الولاء فيما بينه وبينهم ، حتى اذا صفا له الجو بإيعادهم عنه شفى غليله وبلغ
مدى امانيه ، وهنا الخيانة بعينها ، والعياذ بالله من اهلها السفلة الساقطين

ويا حبالو وقف المترّفون عند هذا القدر من المكر والمخاطلة ، ولكنهم كثيراً
ما يتعدّونه الى خيانة أمتهم ووطنهم بضروب يتتّره القلم عن ايرادها ، وهي في
عرفهم من اساليب الدهاء والسياسة ، وما اقبح السياسة اذا أدّت الى الغدر بالاوطن
ونقض الذمام . ولعمرك الحق اننا لا نعجب من هذه الفئة الخداعة ان تملك
نفوسها الدناءة ويفرّجها الطمع في المناصب حتى تتعّرف هذا المنكر الفظيع ، مثلاً
نعجب ممن يُعيرونها آذاناً واعية ويحملون كلامها محل الاخلاص . وكيف يمكن
ان يكون المداهنون من الصادقين المخلصين لمن يحاولون التلّف منهم ، مع انهم
لا يخلصون الحبّ بلادهم التي احبّتهم بنسبها البليل ومائها النير .

ان التلّف لا يكون مع المقدرة والجدارة ، ولا يقتزن بالازاهة وحسن القصد ،
وانما يهيم به العاجز الضعيف الذي لا يرى له وجهاً للتقدّم والارتقاء الا من ابوابه الواسعة
ومذاهبه النفسية ، ويتوخّاه ذو الطويّة المتلوية والسريّة الخبيثة ، لان صاحب
الاهليّة المعروف ببسطة معارفه ، وسعة مداركه ، ولطف تدبيره ، واستقامة سيرته ،
انما تبحث عنه المناصب والعالي وتجري وراءه مواكب المجد والعزّ ، بحيث لا يفترق
الى خطبتها بالتلّف والتودّد والتذلل والتخضع ، كما يفعل القاصرون الجهال . ومن

المحال ان يحاول المرء مقاماً تقصر عنه طاقته وهو يقصد به خدمة المصلحة العامة ، ولكنه يُريد . مصلحة نفسه وهيئات ان يدركها مع هذا العجز ، واذا انتفع فانما يكون انتفاعه الى زمن يسير . وحسب ما يصادف من المهانة والازدراء لتربيته بشوب ضفت عليه اذياله . واذا سكنت عنه الألسنة حيناً ولم تسلقه بقوارصها اللاذعة فالقلوب لا تسكت عنه بل تسقطه الى أحط الدرجات ، على حين ان غيره من ارباب المعرفة الواسعة نازل من الابواب في اعلى مراتب الكرامة ، ولو لم يكن له منصب يرفعه في عيون الاغبياء .

فالى المترفين الذين يبيعون نفوسهم وضمايرهم في سوق النذالة نسوق النصيحة حتى يعيشوا اعزاء النفوس ، ويكونوا بين اهل وطنهم من أباة الضيم وشم الأنوف . واذا راقهم الترف فليكن بالاعمال القوية والمآثر المشكورة والمساعي المحبودة التي يخدمون بها بلادهم والانسانية معاً . وما اشهى يوماً نرى الحكام في هذه الربوع يتأفون من علمائنا وفقهائنا واعياننا حتى يقبلوا المناصب التي يعرضونها عليهم . فحينئذ تكون البلاد قد بلغت الشوط الاقصى من التقدم والاستقلال . وحبذا أن يكون هذا اليوم قريب العهد حتى يحق لنا ان نقول مع من قال : أطلق يا رب نفس عبدك بسلام .

التهور والاستهتار

التهودون هم من اسوا الناس حالاً وانكدهم عيشاً ، والمستهترون من أزيهم بصيرة وأكلهم نظراً واصلبهم وجهاً واخلعهم عذاراً . وابن هم من البهيم الذي لا عقل له ، فانهم اكثر تعرضاً منه للأخطار والأسواء . يرون الشر ازاء عيونهم ولا يتقونه ، ويتصدون للموبقات ولا يباليون ، ويؤثجون بنفوسهم في اثون الاهواء ويخوضون غمرات القبايح ويخبطون في حنادس الاضاليل وهم حيارى عيهون . واما البهيم فانه بقوة الغريزة المركب عليها يشعر بما يضره فيتحاماه ، وتقع عينه على شفا

هاوية فيتلافاه . ولذلك نرى الناس معها كانوا عليه من الرقة والحنان لا يوثون للشتهور ولا يحدبون على المستهتر . وربما مرّ جلف بجيوان يسلقه احد الساقة القساة بسياطه الحديدية ، فيشفق عليه كل الإشفاق ، ثم هو لا يعطف ادنى عطف على من يقتحم المهالك ويعتسف المخاطر ويلقي نفسه بين اشراك الشهوات . .

فما اشبه المتهور بطفل غيّر قاصر يرى النار امامه مندلاً لسانها متطايراً شرارها فيقصعها حتى تلذذه فيسلاً البيت عويلاً ونحيباً الى ان يخفّ اليه من يرقّ له ويخفف عذابه وآله . والطفل من حيث قصوره وجهله معذور بتعريضه لما يؤذيه ، واما البالغ المدرك فاذا تهور فما الى معذرتيه من سبيل ، واذا استهتر فما له من نصير ولا شفيع ، اذ يُقدم على المعاطب والهوى قائده ويومي بنفسه في المتالف ومعه عقله او بعض عقله . ولهذا السبب لا يهرع احد الى نجدة اذا ارتطم ، ولا يحنو عليه حانه متى ارتبك ، بل يشمت به العدو كلها هوى في مغواة ، ويخذله حتى الصديق ولو رآه في اعماق مهاوي الضيق .

ومعلوم ان المبدع الازلي السامي قد منّ على الانسان بعقل يميّزه عن العجوات ويرفعه على سائر الكائنات ، فجاءت الشهوة تُكدر مرآة نفسه الصافية النقيّة ، فأسبلت على حياها من القبار سدلاً كثيفاً حجب عنها نور الحقائق حتى ركبت مطية الأهواء وامعنت في مجاهل الغي ، فاسترقّتها الملكات السافلة واستعبدها العادات الذميمة وعصفت عليها الشهوات من جميع الجنبات ، فلعبت بارادتها الخائرة كما تلعب الريح العصف بالسنن الخفيفة الواهنة . فاذا لم يقوَ المرء على كبح نفسه الجبّوح ولم يلجم ارادته الشّمس ولم يجمع هواء الثائر في صدره ، بات بين يدي الرذائل والأهواء اذلّ من العبد المكبل واطوّع من البعير الدّلول المشكّل ، وامسى في قبضة الميخن أخوّر من العصفور بين مناسر النسر . وإنك لترى ممسوساً قد خُوط في عقله وذهب الحنون برشده حتى بات يهذي هذياناً كأنه في بُجران ، فلا تتألك عن ان تتلفّ لبلواه وتتفجع لمحتته . وتُبصر الثّروة يركبون مراكب الشطط ويمضون على وجوههم حتى تصرعهم الاهواء شرّ مصرع وتطرحهم في اسفل وهدة ، ومع ذلك فلا ينفق لهم فوادك ولا يلتاع صدرك ، بل ربما اندفعت في تزيينهم

وتقرّيعهم ، ثم لنقلب عنهم مَنَعَطاً بسوء مآلهم وهول مصيرهم .

وهل من احد احقّ يساهم العذل والتأنيب ، وأحرى بان تُغمض جوفه لاحظة الرحمة من هؤلاء الضالّين الغاوين الذين جنوا على نفوسهم الجبالية اثر الجناية ' يوم اخذوا يتهورون ويستتهرون ، وقد غفلت عيونهم عما يُخبي . لهم الدهر في حجة صروفه من التبال النافذات . فلو لم يُغلَقوا آذانهم ويُوصدوا قلوبهم دون نصائح الناصحين ، ولم يقابلوا بالازدراء عظات الحكماء الراشدين حتى تهكروا واهرفوا في المعاصي إسراف الحمقى ، وقرعوا في كل حماة ، لا هورا في تلك الماهوي المبهجة والمصارع المذلة ، وما صاروا عبداً لأصنام الشهوات يُقدّمون لها كل يوم بل كل ساعة انفس ما يملكون ، ألا وهو العقل والحرية والدين والضمير والوجدان فضلاً عن الصحة والشرف والصيت والجاه والعرض والمال .

على اننا كيفما اجلنا رائد الطرف في هذه الاصقاع وايما سرّحنا بصائرنا في منازلنا ومحافلنا وملاهيها ومقاهيها ، لا تقع عيوننا الا على ما يُقذّرها ويُدميها من المشاهد المخزيات والآثار المشجيات بما يدلّ على ان الاستهتار ضارب اطنابه والتهوّر موثق في الصدور اسبابه . وحسبك ان تؤمّ في هذه من الليل احدى المقامر التي يختلف اليها عشاق المياسر ، حيث يجلس الى الموائد الخضراء الموسرون فضلاً عن الموسرات ، حتى ترى الأموال كيف تُبذّر والاجسام كيف تُصهر والقلوب كيف تُجرح والأجفان كيف تُقرّح . هناك تُعائِن الوجوه الذابلة الذاوية اشدّ صفرة من الزعفران والعيون القائنة اشدّ حمرة من الارجوان . هناك تقرأ على الجبهات سطور الامل واليأس والبشر والكآبة والفوز والفشل ، وتُبصر على الحدقات شرار الغضب ونيوان الندم واللّهف ، وتلمح على الشفاه قارة البسمة الكذّابة وطوراً الومضات الخالّية . ويجول المكر في حلقات المتقاملين جولاته الخدّاعة ، والظفر لمن يكون اشدّهم احتيالاّ واوفرهم دهاءا واكثرهم سرّاً واسترهم شعوراً . وهل من رجل في الدنيا اتّمسّ من المقامر حظاً وأسوأ مالاً ، يُجيّ لياليه في الميسر من التمسّق الى الشقّ حيث يُسرف اموالاً اذّخرها بشقّ النفس ، او اورثه اياها آباؤه بعد جهد جهيد وعناء مديد ، فيجرمها أفلاذ كبده وحشاشات مهجته ، حتى لقد يطوون مراحل الحياة على مجامر

البؤس والفاقة ، ويشثرون فقراء وُضعا . ليس لديهم مهنة فيترقروا منها ، ولم يقتبسوا علماً فيعينهم على معاشهم ، ولم يُبقر لهم أيهم المِتلاف رأس مال فيتاجروا به . وربما كان بين ليف هذه الأسرة فتكات جمع بين الحُسنيين : حسن النفس وحسن الجسد ، غير ان فقر والدهن وسعته الحبيثة كانا من احجز الحواجز بينهما وبين الزواج . وتأمل كيف تكون حال فتاة في بيت ابويها ولا سيما اذا صارت عواناً او بارت بوار السِّلَع .

اذا كان الأصلح لهذا المقامر أن يطوي ليليه بين اعضاء أسرته معتنياً بما يصلح احوالهم اعتناء الاب البرّ الزفيق والوالد الحكيم الشفيق . او ما كان الأجل به أن يُنفق ما خسره من المال طريفاً كان او قليداً في ما يُريح نفسه ويُسعد اهله ، بدلاً من ان ينفق في سُبل اوردت جسمه العليل ، وفواده الحشرات ، وصدرة الزفريات ، وعينيه أسخُن العبرات ، وبدلاً من ان يُعرض أسرته لتصاريف الدهر وغيره الساحقة حتى ترزعزت اركان سعدا واضطربت اسباب راحتها وكذرت موارد بهجتها . فكم من ليلة قضتها قرينته الفاضلة ومن حولها صغارها يسألونها عن والدهم أين يُجي سهراته ، فكان جوابها لهم دمعات تترقرق في عينها ثم تسيل احراً من الجمر على وجنتيها ، وتنهذات محرقة تُصعدها من صدرها الكلام مع انفاسها المتقطعة الملتبحة . وكيف لا تخنقها النصأت ، ولا تُذيبها التلثفات ، وهي غرقى في بحر الهم والغم يرشقها زوجها من تلك الغرفة الجهنمية بالسهم بعد السهم . ألا تبتأ لهذا الأب الجهول الذي يُعرض ثروته للتلف وأسرته للعطب ، وسحقاً لليد التي ساقته لأول مرة الى لجة الشقاء وهاوية الافلاس . فلو كان قد امتنع عن ان يصحب المقامر الى بيوت الميسر يوم ألغوا عليه بان يصحبهم اليها ، لما الفت قدماء الاختلاف الى هذا الملهى الذي هو ولا ريب مدفن الاموال ومثلفة الاجسام والأعراض ، وكفى أسرته التبعة تلك الفجائع الهائلات والبوائق المجهفات . .

فإذا ان يتفكر عشاق الميسر في عواقبه الوبيلة حتى لا يتعرضوا ولا يُعرضوا أسرهم لنكباته التي يغور في لجتها الصبر ، وملماته التي أفلأ أنها تُعقب الذل والعسر ، لتلا يكونوا عبدة لمن اعتبر . والماعقل يتحرز من أن يكون موعظة لسواه ويُجلى

نفسه عن ان يُقدم على امر فيه هلكته ، او يألف عادةً مؤذيةً يتعذر عليه الانعتاق منها حتى تتسلّكه . والحكمةُ كلُّ الحكمة في ان يقف المرء في وجه نفسه موقفَ الزم ، كلما زينت له الإقدام على عملٍ تكون فيه العقبي وخيبةٌ عليه اثلا يستطرقة ويتعسر عليه فيما بعد النكوص عنه .

واكثرُ الناس تهوُّراً واستهتاراً الذين لا يجترسون الاحتراس الواقى يومَ يُباشرون امرًا مغبًىً وبيلةً عليهم . فاذا فعلوه مرةً عاودوه أخرى حتى يشقّ عليهم تركه ، ولو تمثّلت لأبصارهم مضارّه الجسام . وذلك على حد ما يقع لبعض الفتيان الأغرار قبل مخالطتهم للشراء السّفهاء ، فانهم اذا رأوا فتاةً خفيرةً اتدّ بسلوك الحياء الى ابصارهم فيعضّونها حشمةً وتضوّنأ ، ولكنهم اذا ابتلوا بعشرة بعض المستهترين لا يلبثون ان يتلقّوا عنهم احاديث الفحشاء ، ثم يتدرّجون في ميدان القحة والتّهتك حتى يبلغوا اقصى غاياته . والله اعلم بما يكون من امرهم ، وكيف يكون متقلبهم في هذا الميدان المحفوف بالأخطار والهلكات .

هذا ولولا ضيق المقام لأطلقنا اليراع في هذا الموضوع المهمّ حتى نتناوله من جميع اطرافه ، ولكننا نقف الآن عند هذا الحد ، ولعلّ الذي اوردناه من الأمثال على مضارّ التهوُّر والاستهتار كافٍ لأولي الاتعاظ والاعتبار . فليقيسوا عليه ما لم نذكره مما لا يحفى على بصائر الألباء



آفات المناصب

كلُّ يرى من نفسه ميلاً الى السؤدد والرفعة والرواحاة ، وهذا امر طبيعيٌّ ناشئ عن حبّ الشهرة والكلف بالمجد والمهيام بعلو المقام وغلور الذكر . فادا اشتدّ ذلك الميل في قلب امرئ صرف كل قواه الى إحراز الغايات البعيدة في مضارّ العلاء ، فلا يسكن له بال حتى يفوز بآماله ، ولا يبالي بما يقاسيه في سبيل ذلك من العناء والكدر . واذا كان على جانب عظيم من الهمة لا تُقَعِّده وعورة الطريق عن

متابعة مسيره ، بل يذلل العقبات ويمهد المصاعب ، ويزداد مضاء ونشاطاً كلما شئت عليه المطالب وتعمّرت الرغائب .

ولا جرم ان النفوس الأبية المعروفة بالغرائم الماضية هي التي تتنازع اطراف المعالي ومطارف السوءد ، لان فيها من الأنفة ما يترها عن مهابط الهوان ومهاوي الحمول ، ويرفعها الى روابي العز والكرامة ، بخلاف النفوس الوضيعة فانها تقع بأذى الحظوظ عجزاً وصغاراً . واذا كانت القناعة عن ضعف وقعود همة فان صاحبها لا يستوجب الا المذمة ، لانه لو تهيأ له ان يتبوأ مرتبة عليا او يفوز بنصيب من الثروة بدون جد وكدح لعد ذلك من الغنائم ، وكان فرحه بالحصول عليه فرح من صادف كترأ بدون نصب . فيلزم عما تقدم أن الطموح الى المنازل العالية اذا وقع بصاحبه عند حد التزاهة والعدالة كان من الأمور المحمودة ، لان حب المجد هو الذي يستحث الهمم على المشروعات الجليلة والأعمال الخطيرة ، ولولاه لما وُطن الهمام نفسه على تقمّم المصاعب وتهجّم المكاره والمهالك ، ولما طاب له أن يطوي ايامه ويحيي ليلاليه في ترويض النفس وصل الذهن وتهذيب الطبع واكتساب العادات الحميدة ، ولما لذ له ان يخوض غبار المعارك ويقتحم لحج المعاطب والمخاطر ، ولما راقه ان يقتل العمر بين صرير الاقلام ومداد الحبار ، ولما سهل عليه ان يحبل نفسه فوق طاقتها بجنا عن اكتشاف حديث او وضعا لمؤلف نفيس يخلد في الدنيا أحوثته ويعلي بين الأنام شأنه

ومعلوم أن الأهم الراقية لم تدع طريقاً من طرق العلياء الا سلكته ، ولم تترك من العز شأوا الا وقد انتهت اليه ، ولذلك زى فيما بينهم من ارتفع بمعارفه وآدابه ، وسياسته وتجارته ، واختراعاته واكتشافاته ، وشجاعته ووطنيتته . وقلنا زى بيننا من اقتدى بهم في المداير التي انتهجوها للارتقاء الى ذرى الرفعة والكرامة . فأين علماؤنا اصحاب الاستنباطات الباهرة ، واين ساستنا ارباب الدهاء والحصانة ، واين تجارنا الذين يتاجرون بمنسوجات معاملنا ، واين قوادنا البواسل الذين يتهاكون في الدفاع عن الوطن ، واين محسنوا الذين شيدوا الأندية الخيرية وغروها بكمارهم وتبرعاتهم ، واين شركائنا الدائبة في انشاء المشاريع الوطنية التي تحيي البلاد وتوسع

نطاق عمرانها ، وابن حُكَّامنا الذين يعتنون بإسعاد الشعب وإنهاضه من هاوية الذل والشفاء . فجميع ذلك تكاد لاتقع عليه عينٌ في بلاد فسيحة الارعاء كثيرة السكَّان . وانما نرى أغلبنا يأتُمُّ مراتب المجد عن طريق المناصب في الحكومة . وجبذا لو كان في مناصب بلادنا مجد ، وانما هي عبارة عن سرابٍ يُخدع مظهره ويسوء مخبره . ألا ترى طالب المنصب عندنا كيف يسعى اليه بالترُّف والتذلل ، واذا ظفر به كان عبداً للحاكم بحيث لا يتجرأ على أن يصدع بالحق اذا كان مولاه من أنصار البطل ، ولا يتجاسر على ان يُنصف بين المترافعين خشيةً ان يُسيء بانصافه الى بعض الأَحْظِياء المتطرفين فيتحاملوا عليه ويُعنوا بخلعه عن منصبه . وأيُّ مجد يناله الاسير والرقيق ، وأيُّ عزٍّ يدركه المقيَّد بارادة غيره ، وأيُّ شرف لمن يعيش ذليلاً وضيعاً ، وآية راحة لمن يبيت خائفاً ويُصبح مضطرباً مهموماً . فالى متى يتلاهى وجهاتنا بهذه القشور ، وحتام بتأرحم كبارنا على المناصب ويعتبرونها من اسباب سعادهم وعظمتهم وهنائهم ، والى متى لا نرى في الشعب نهضة الى الارتقاء عن غير طريق الاستخدام .

ولا يخفى ان مناصب القضاء والادارة انما أنشئت في الدنيا للقيام بمصالح الجمهور ودفع الظالم والذود عن المحارم وتوطيد دعائم الأمن ، حتي لا يبقى في وجه الشعوب سدودٌ تحول بينهم وبين التبشُّر في مذاهب العمران وميادين المدنية . ولذلك ترى الامم الناهضة لا تعهد في مناصبها الا الى رجال يصلحون لها ، واذا آتست من احدهم ميلاً الى منصب لا يحدر هو به قوامته يجامع قواها حتى لا يلحق أذىً بعباد الله . أمّا نحن فليس عندنا لهذا الامر الجلل شأنٌ ، ولذلك ترى البلبلة في ادارتنا والتأخر في احوالنا . والصحفُ الصادقة الوطنية تنقُ من هذه الاثقال وتبث اولياء الامر الشكوى اثر الشكوى ، وتُهب بالشعب للمطالبة بحقوقه ، وهو غريق في جلة الحمول لا يُرعى سماعاً ولا يُعير التفاتاً

ولقد مرَّ على بلادنا ما ينيف على نصف قرن ولم نَرَ للنجاح فيها بريقاً ، بل تداعت جدران عزنا ونفدت خزائن اموالنا ، وبارت اراضيها وتلاشت زراعتنا ، وأهملت صناعتنا ، وقلَّ نسلنا وغطَّت آدابنا وأحلاقنا ، وتقوَّضت اركان ألقنتنا وتفرَّق شملنا . وعلى الجملة فاننا تحوَّلنا من مهاد الراحة واليسر الى حضيض التلق والموان ،

وهوينا من ذروة الشرف الى دركات الصفاة والضعة ، حتى اصبحنا حديثاً سائر أوعظنا
 زاجرة تهددنا وامل الانقراض من كل جانب . فإ الذي آل بنا الى هذا المتقلب السيئ ،
 أصواءق دكت منازلنا أم زلازل خسفت اراضينا ، أم حطت نزل ببقاعنا ام أوبشت
 تنفست في قُطرنا . لا لعمرى ولما تهافتنا على المناصب هو الذي جر علينا هذه المحن
 وتلك الرزايا .

ينشأ الغني في بلادنا على أيسرة النعمة والدلال ، فلا يُقوّم له طبع ولا يُصلح
 فيه عيب ، ولا يُقوّم له ميل ، ولما يرى على هواه ، فلا يشب حتى يُصبح فوّاده
 عشاً للشوائب والمفاسد ومغرساً للملكات الذميمة . واذا وضعه ابواه في المدارس
 يقضي فيها عدّة سنّات لا يقتبس في خلالها من المعارف إلا ما يزيد بطراً وُخيلة .
 وقتها ينصبّ الموسرون على التحصيل ، لانهم يعتمدون في الغالب على ثروتهم ،
 فيخرجون من تلك الربوع العلمية وهم آخلاء من الادب وأعطال من حلى التهذيب
 ومحاسن العلوم والفنون . ولا يرون لهم ذريعة الى ادراك المعالي الا بان يتقلّدوا اعنة الادارة
 والقضاء ، ولذلك يبذلون في هذا السبيل قصارى المجهود ، ولا يدعون طريقاً تُبلغهم
 مرادهم الا يقتحمونها . وأغلب الطرق التي يسلكونها ادراكاً لمقاصدهم الترفّ
 والمدالسة والتذلل والاستعطاف ، الى ما هنالك مما يكسبهم الذل والهوان بدلاً
 من العز والوجاهة .

وما ادراك ما يَزل من الاضرار بالبلاد اذا تقلّد مناصبها من امثال هؤلاء
 الرجال . ألا فليخافوا الله فيما يلحقون بعباده من الاسواء ، وليتقوا يوماً يناقشهم فيه
 الحساب . ولعلّك تقول : كيف تنسب خراب البلاد الى عشاق المناصب وهم عدد تزر
 بالقياس الى سائر الشعب . فتجنّ ندفع هذا الاعتراض ببراهين شتى لا تُدحض ولا
 يستهين بها الا المكابرون . قل لي رعاك الله ، ما الذي فرّق كلمتنا وغرس الضغائن
 في صدورنا ، ونشر الفتن في ربوعنا ، وعرض وطننا لنوائب كادت تطحنه وبلايا
 اوشكت ان تهوي به في اعق لجج العار والبوار . أليس تراحم كبرائنا على مقاعد
 المجد ومجالس العلاء . فأية قرية لا تلعب بها يدُ التفريق ولا تعصف بين اهليها
 زوابع التحزّب والتعصّب . أم أيّ قضاء لا يقوم ولا يقعد انخيازاً الى زيد وكيد عمرو

وتعصباً على بكر ، بل اي رجل لا يحمل لواء التشيع مُعْرِضاً عن الاهتمام بصالح اهله خدمة لزعيم يسير هو تحت لوائه . ومتى تناهزت القلوب وتضاعفت الصدور ، فأنذر البلاد بالخراب العاجل .

وبديهي أن حركة الاعمال تتوقف على الاموال ، فاذا لم يكن في البلاد رجال من ذوي الثراء تأخرت التجارة والصناعة والزراعة التي هي من اغزر موارد العمران وآل مصير الشعب الى السوء والانحطاط . ونحن وان كنا لا نخلو من اغنياء الا ان اغنيائنا هم في حكم الفقراء ، لان دنائيرهم مكدسة في خزائهم ، لا يُنفقونها في الوجوه العائدة بالنفع على الجمهور ، وانما يستخدمونها لتنفيذ مآربهم وادراك مقاصدهم . وكثيراً ما يتخذونها سبيلاً الى العروج في مصاعد العلا ، بل كثيراً ما يصرفونها في كُتبت بعضهم بعضاً على خلاف ما نراه في الأمم النجبية الراقية . وبسبب نزوب يتابع الارتراق عندنا كثرت المهاجرة التي اورثتنا من المضارّ الجسيمة ما لا يقع تحت احصاء . فلو كانت هذه الفئة الغنية تُطفي من صدرها عشق المناصب وتُكتب على المشاريع النجحة للبلاد ، لاتنفتحت ونفعت الفئة العاملة ، وصدتها عن التقاتل لأغراض شائنة ليس من ورائها الا الخسران والخذلان . فأملنا في اغنيائنا العقلاء ان يُخلّوا كلامنا هذا محلّ النصح والاخلاص ويعملوا بمقتضاه . فاذا فعلوا حقاً لنا ان نباهي بهم في كل محضر ، ونلهج بذكرهم الطيّب في جميع الاندية . وليكونوا على ثقة انهم يكونون اذ ذاك ارفع مقاماً واعلى مجدداً ، لان المجد الحقيقي هو المجد الخالد الناشئ عن حسن الاحدثة وجميل الفعل والخلق . المهمم الله وإيانا ما يؤول الى خير الوطن والأمة اللبنانية الكريمة .

العجب بالنفس

احاط العباء علماً بالمضار الفادحة التي تصيب المعجبين بانفسهم المدّعين بما ليس فيهم حتى قالوا عنهم انهم اعداء نفوسهم ، فجاء هذا القول المأثور آية في البلاغة وقطرة من قطرات الحكمة اذ جمع غوائل العجب بأبلغ معنى واوجز تعبير . ولا ريب ان العداوة مها ساموك من المكارة ونصبوا لك من الاشراك لا يبلغون منك ما تبلغه انت من نفسك اذا كنت من اهل الدعوى ، فاذا حملوا على سمعتك حملة منكرة لا تصادف افتراءاتهم عند العقلاء آذاناً واعية لما بينك وبينهم من العداوة حتى كأنما يكتبون على صفحات الماء ، واذا حاولوا ان يوسعوك ضيقاً استنصرت عليهم بما يتقيدك اذامهم ، واما اذا كنت مُعجباً بنفسك فإنك تجني عليها من حيث لا تدري ، تُعرضها للمهانة وانت تظن انك تستل عليها التكريم ، وتهوي بها الى دركات الخمول وانت تتوهم انك تسبوها الى اوج الشهرة والمجد . ولا بدع في ذلك فان الضلّفاء المستكبرين يسبحون في فضاء الوهم والغرور فلا ترسو قدمهم على قمم الحقائق ، ولا تنفذ بصائرهم حجب مساوئهم ، وربما صورها لهم الاعجاب محاسن ، وأراهم حسنات غيرهم سيئات . حتى لقد يزعمون ، على شدة فاقتهن الادبية والعلمية ، أنهم من نواضع عصرهم ونوادير زمانهم . فاذا تكلموا تحيل لهم أن الحكمة تتدفق من أسلات لسانهم ، واذا كتبوا وهموا ان البلاغة تسجد ليراعهم والسحر يقطر من نفثات بيانهم ، واذا خطبوا تحيل اليهم ان الاسماع اصداق الآلى اقوالهم ، والاضاليل اهداف للوامع برهانهم ، الى ما هنالك من الاوهام التي تنصب من مخيلتهم جارفة معها ما لهم من الكرامة في الالباب ، فيستيقظون وهم فوق طوفان من المثالب تتدافع على متنه المخاذي من كل جانب .

وبديهي^١ ان العجب لا يرى له على الغالب مرتعاً خصباً الا في العقول القاصرة ، ولا يجد جواً فسيحاً الا في قلوب الاغراب الذين جاد عليهم العلم بشيء من العرفان فظنوا اذهانهم منبسطاً لأنواره ومتحفاً لأنآره ، حتى تغطرسوا وبسطوا اجنحتهم على ارباب التحقيق . ولا جرم ان ذلك من نتائج الجهل الفاضح الذي لا يمتد معه

النظر الى سماء الخفافى ، ولولاه لعرف كل حدة وشعر بقصوره ولم يتجاوز طوره
 وربما سرى العجب في عروق الكتّاب المتأدبين فكان سداً منيعاً دون تعقّبهم
 في المعارف . فلم يعلّقوا في حباله لبغوا في العلوم نبوغاً باهراً ، ولكنهم قبل ان
 يُرووا ظمأهم من مناهلها الصافية اخذتهم نشوة الحيساء بما ترشّفوه من كروس
 المذاهين ، حتى توهموا انهم قبضوا على نواصي العلم واحاطوا باطرافه . ولاتعجب من
 ذلك فان اصحاب الدعوى والصلف ، بما يترآكب في اذهانهم من أبحر الكبرلا يرون
 احداً ابعد مدى في العلم منهم ، وان الحد الذي انتهوا اليه هو الحد الاقصى ، ولذلك
 يتقاعدون عن الاستفادة والاستزادة حتى يتقدّمهم في المدارك من كان دونهم فطنةً وذكاءً
 ولا تسل عما يحوق بذوي العجب من ضروب الهوان والخسران ، فانهم فضلاً
 عن تهقيرهم في المعارف وتقصيرهم في جميع الفنون يستهدفون للتثييب والتفريع
 ويثيرون عليهم سخط الجمهور ، ويغرسون الضغائن والحزازات في الصدور حتى
 يعيشون بلا نصير ولا ظهير . ولا تستغرب ان تضرب التغيرات من حولهم نطاقاً ،
 فان نفوسهم الصلغة مجتمعة المقابح والعيوب ، وألسنتهم عقارب لداعة ورووسهم مثار
 للخيلاء ، فلا يحترمون من يستوجب الاحترام ، بل يمتنون ما يأتبه غيرهم ترفعاً
 واستصغاراً ، ولا يريدون الا ان يحتسبوا العظمة ويحسكروا الإطراء . ويختصوا
 نفوسهم بالجلالة . وليت شعري كيف يقوى ارباب الأنفة على تحمّل هذا العب
 الثقيل ، بل كيف يطيق اهل المعرفة الراسخة ان يسحب عليهم ذيل الكبرياء من
 هم عند هذه الدركة من الشطط والغباء .

ولهذا السبب حرّز الحكماء من مخاطر العجب وانذروا المجتمع بعواقبه القتالة
 حذراً من ان يسم قلب العمران ويتزع جذور التألف . ولا شك انه من اضر الشوائب
 بالانسانية واهدمها لمباني المدنية واسدّها لأبواب النجح ، ولذلك لم تناسك عن ان
 تطيل نفس الكلام على مضاره الباهظة ، حتى اذا تحطّم هذا الحاجز المتين ، الحائل
 دون تقدّمنا جرينا في ميدان الفلاح ابعد الاشواط .

وأبهظُ خسارة يترها العجب بالاعداث انه يُقعدهم عن الترقى في مدارج العلوم
 والآداب ، ويثنيهم عن تثقيف اخلاقهم وترويض نفوسهم ، اذ يثقل لهم انهم اصبحوا

من التأدب والترويض بحيث لم يبقَ لهم حاجة للاستزادة من المحاسن ومكارم الاخلاق،
وأمسوا من المعارف على حظٍّ وافٍ يفنيهم عن الاستفادة بشروح أستاذهم، ولذلك
يصبحون صعبى المقادة مترفعين عن الانتصاح والاستيضاح، متقاعدين عن الاقتباس
والتحصيل فيحرمون فوائد شتى - ولا يزالون يتدربون في صلابة الرأي الى ان
تهبط نفوسهم الى غور النقص والغواية - فاذا فطنهم احد الى عظم ارتكبه، او حذرهم
من عيب امتزج بنفسهم ظنوه تحاملاً منه وابتوا على مركب الضلالة ' يتعنثون في
مغامزهم، مؤثرين التقلب في غيهم على ان يرجعوا الى مُرشد يُنهجهم في المسائل
العويصة سوابل الهدى والسداد، وذلك مخافة ان يشعر الناس بتصور نظرهم اذا
استعانوا بغيرهم - وهناك سلسلة من المعاييب يُطوِّقها اعناقهم الصلف والدعوى .

واما الكبار فلا تسل عن مخاسرهم اذا لعبت بنفوسهم حُمية الادعاء، فانهم
ينقطعون عن الاستشارة والاستنصاح ويستبدُّون بادارة شؤونهم ويستصوبون كلَّ
ما يُجرونه من الاعمال، فاذا انتقدهم احد لمغمز فيهم حملوا انتقاده العادل على محل
الحسد والمقت وأبطتوا له الضغينة والعداء، ولا يروقههم الا ما يُنشئونه ولوتراحت
فيه الشوائب والمظان، ولا يلذَّ لهم الا اطراء افعالهم والاعجاب باقوالهم، واذا وقع
في مسعهم ثناء على فاضل لمأثرة اتاها او تنويه بعالم لمقالة نثَّقا وشأها مجت
آذانهم عبارات التعريض ونسبوا الى الغلو والمداهنة، ولم يألوا جهداً في تحقير ما اكبره
المنصفون وتصغير ما أعظمه المحققون، ولا يزالون في سكرة الاعجاب وهم متشاغلون
عن إصلاح طباعهم المختلفة وابراء اذواقهم المعتلة الى ان يذوقوا من عفتهم مايكدر
صفاء الحياة .

على ان العُجب وان كان غاية في القبح في جميع الطبقات فهو في الرؤساء اقبح
صورة واسوأ عاقبة، لانهم يشغلون مقاماً تدور على قطبه مصالح الجمهور. فاذا
ادعى الرئيس العصمة حتى استقلَّ باشغاله وانفرد باعماله، ولم يستصحب بآراء العقلاء
ولم يفت عند نصح الحكماء، فلا تسل عن مواقع الخلل في ادارته وموضع النقص
في احكامه، ولا تأخذك الدهشة اذا رأيت إعراضاً من قومه عنه، ولا تعجب
للائتقادات العنيفة أن تتساقط على افعاله واجراءاته، اذ انه لا يقنع لتاصح، ولا

يستمع الى مُشير ، ولا يلتفت الى مخلص ينتبه الى غفلاته ، ولا يميل بسمعه الى مرشد يدهله على عثراته ، حتى لقد يشطّ فيا يُجويه ، ويضلّ فيا يرتنيه ، ويزيغ فيا يُبرمه ويتقصه ، ويثيه فيا يُقرّره ويدحضه ، وهو مع ذلك يتناول على مروضيه ويستبدّ بشؤونهم ويستخفّ بمصالحهم ، فلا يضبط لهم امراً ، ولا يُحكم لهم شأنًا ، ولا يُقوم لهم معوجاً حتى ترى اللبلة فاشيةً في تصرفاته منتشرةً في أعماله واشغاله ، وحتى تراه على حال لا يُحقّق معها املٌ ولا ينجع فيها علاج ، فيقضي العمر مستقيم الرأي قرين الخلل حليف الاضطراب اليك المهانة ، ويودّع الحياة وهو خجلٌ من صفاتها السوداء . وقانا الله شرّ العُجب ، واوقف كلاً متاعند حدّ نفسه ، فان في معرفة الحدود برهاناً على فضل العقل والكمال ، وفي تعديها دليلاً على الحق والسفخ والضلال



الاستئثار او الغلو في حب النفس

هو الداء الويل الذي يلازم الانسان من مهده الى رسمه ، فاذا استحكم من فؤاده افسده وأعماه وشغله عن ابناؤه جنسه . بل هو الفرس الجحوح الذي يقود راكبه الى مهاوي الضلال والنواهي . بل الحاجز الكثيف بين العقل والهدى والرابط الوثيق بين القلب والهوى ، والعدوّ الأشدّ للحقيقة والصواب والصدق والاخلاص . بل هو نبت الرناء ومطلع الحور ومعدن الطمع والشر . بل الحاكم الظالم الذي تظلمت البشرية من زيغ أحكامه ، ورزحت المدنية تحت يواظ أثقاله . ولا بدع فان المستأثر تتلاعب في صدره الاهواء وتترامى به من نقيصه الى نقيصه ومن دنيته الى دنيته ، حتى يصبح عشّاً للذائل ومنغرساً للمخايب والمفاسد ، وحتى يرتكب من المنكرات ما يجعله في ساقه الأوغاد ، وتهبّ في قلبه عواصف الجث والرداءة فتستأصل منه العواطف السريفة والزرعات العالية بحيث يصبح اسير مطامعه رقيق ميوله ، تناديه المروءة فيصمّ أذنيه عن اجابة نداءها وتتصدّى له النفوس المنكوبة فيتمامى عنها قسوةً وغتافاً . ولذلك تراه وحيداً في المحن لا يرقّ احد لبلواه ولا يؤاسيه في يونساه .

وحسبُه من الخسران أن الناس لا يعقدون عليه املاً ولا يرتجون منه خيراً، ولا يقبلون منه نصحاً ولا يُحسنون به ظناً. لانه اذا وعد أخلف واذا سعى فلنفسه، واذا اتّشّن غدر واذا استشير خدع، واذا عاهد نكث واذا نالته نعمة كفر بها . وكلُّ من هذه المعاييب حريٌّ بتغيير القلوب عنه والإعراض عن صحبته . وما تكونُ حال امرئٍ يتجافى عنه معارفه ويُخذله اصحابه ويتقبض عنه اهل وطنه ، فهو كالمضو النّين لا يفيد الانسانية ولا يستفيد ، فلأن يُبتر من جسمها أصلحُ له ولها

ومهما اتّسعت حالُه فلا يطمئنّ له جانب ولا ينطبق جفنه على لذة الكرى، لان هواء التروّقد في جنبانه لا يزال يُحيي فيه الطامع ، ويُثير الذّغرات الكامنة احرازاً لما تُخّذه به النفس ، وهيبات أن يفوز بما يتحرّاه من جسيات المطالب، وهو عند هذا الحد من الحساسة والحرص والحسد والاستنثار . وهبّ أنه استوفى حظه من مباحج الحياة واطايبها، فلا يسكن شرهه ولا يُروى ظمأه، لأنّه يريد أن يسابق جميع الاقران في كل ميدان مع انه من اعجز الفرسان، فاذا تخلّف عنهم لزمه الهمُّ وشبّ في صدره القم ، حتى ينبو عن مضجعه جنبه ولا تذوق مقلّته طعم الرقاد .

ولا تسلّ عن المحظورات التي يحترّحها المستأثر وصولاً لما يتوّخاه من الرغائب ، فانه لا يستنكف من الكذب والبُهتان ولا ينجل من مواطن الذل والهوان، ولا يستعحي من الحيانة والمكر ولا يخشى مغبات الانساد والنسيمة ، ولا يُهشّه ان يجثّ ذكره ويسقط قدره ، وانما يطيب له ان يظفر بجميع امانيه ولو عانى من ضروب العار والمهانة والخسف ما يضيق به الصدر .

وبديهيّ ان الاستنثار اكثرُ ما يُستبجح في اولياء الامر الذين في يدهم زمام العباد . فاذا تمكّن من نفوسهم اقدمهم عن الاشتغال بمصلحة الجمهور، وصرف كل قواهم الى خدمة مصالحهم انفسهم . وحينئذ لا يتألكون عن ان يستزفوا ثروة البلاد بالطرق المحظورة لينفقوها في الوجوه التي تناسب اهواءهم وتعود الى تعزيز مقامهم ورفعة شؤونهم . وما كان احراهم بان يراعوا جانب الحق ويضعوا الى صوت الضمير الذي يُحجّهم على تقديس الحقوق وتزويه كراسي القضاء والسيادة عن الاستنثار والاستبداد، وكلاهما من اقبح المساوي . واشنع الشوائب ، ولا ريب ان الزعيم اذا قصر عنايته

على خيره الخاص وضع بينه وبين مروؤسيه سداً قوياً ، فينفرون منه ويحقدون عليه ويحذونه اذا استنصر بهم ، وربما تألبوا عليه متى امكنتهم الفرصة منه وثلثوا عرشه تحت قدميه . وهل من رجل اتعس حالاً من رئيس يظهر لمروؤسيه بمظهر العدو ، ولا يطيّب له الا تذليلهم ولا يلذ له الا تقهقرهم . ومتى بلغ سوء الظن بالروّساء الى هذا الحد كانوا افتك من الأوبئة البطّاشة .

علي ان رذيلة الاستئثار لا تحلّ في قوم الا اهلكته ، ولا تُقيم في مجتمع الا قوّضت دعائمه . فاذا رأيت في بطانة الرجل انقساماً وحقدًا وحسدًا واغتياباً فلا تشكّ ان حبّ النفس المفرط هو الذي بدّد الألفة من بينهم وانزل في محلها الوحشة والجفاء والنفرة . واذا وجدت التعصب ناشراً في أمة اعلامه وابصرت ان الوطنية ليس لها عند اهلها شأن فاحكم ان الاستئثار متعلّب على نفوسهم ، يفترس منها المحبة والائتلاف والمبادئ الشريفة والعواطف السامية . واذا نظرت الى معهد لا يُخرّج للبلاد شبّاناً يعزّزونه بعارفهم الواسعة وآدابهم الرائعة فتبيّن ان مديري ذلك المعهد قد آثروا المكاسب الدنيوية على التربية السديدة والتعاليم الصحيحة . واذا وقع بصرك على لجنة تداعت جدرانها بعد ان كانت موطدة الاركان ، وتشتّت شملها بعد ان كان على اقوم نظام ، فبيّن أنّ محبة الذات هي التي انتجت ذلك التشعب وفكّكت تلك السلسلة . واذا عاينت مجلساً تدب فيه عقارب الاعتياب والحُبث والرئاء فلا تخالجن ضميرك ريباً في ان هذه المحبة الموقوتة قد دبّت في عروق اربابه فسنت دماءهم ومزّقت وحدتهم وافسدت نياتهم . واذا رأيت قوماً فرتق فيما بينهم اختلاف المذاهب ، وهم اخوان في الوطنية ، فقل ان الاستئثار الذميم هو الذي غرس في صدورهم ذلك الروح الحبيث وبث في اذهانهم تلك الافكار السافلة . وقصارى الكلام انه حيث يكون الاستئثار لا تكون غيرة ولا مروءة ولا حمية ولا شرف ولا انصاف ولا اتحاد ولا قوة . ومتى خلت الديار من هذه المزايا التي هي من اقوى دعائم العمران والتقدم ، فأنذر اهلها بالخراب والوار عاجلاً او آجلاً . وفي الله البلاد شر هذه النقيصة الذميمة ومهد لها عقبات التجرد والنخوة والتهالك في سبيل المصلحة العامة حتى لا تتخلّف عن سائر البلدان النشيطة في مضمار العزّ والمجد .

مضار المسكرات

ألف سوادُ الناس في هذه البلاد معاقرة المسكرات حتى أصبحت فيهم ملكة لا يرون عنها محيداً ، واكثرُهم يشغلهم الالتذاذ بها عن التنبُّر بغوائلها الفتناءة ، فلا ينتبهون لمضارها الا بعد تريحها بهم وتغلبها على ارادتهم السقيمة الضعيفة ومن المعلوم ان الذين يدمنون شرب المسكرات انما يتطلعون منها في اول الامر كمية قليلة ، ربما احدثت في نفوسهم على قلتها انتباضاً واشمزازاً ، اذ لم تألفها بعد اجسادهم ، ثم يتدرجون في الاستراة منها حتى اذا لعبت سورتها في رؤوسهم ودب دبيبها في عروقهم ارتاحوا الى معاقرتها ارتياحاً يجعلهم بعد مدة من السكّير الشريهز والمعاقرين المفرطين . ومنهم من يقتصر منها على قدح يتناوله قبل الاكل تنبيهاً لشهوة الطعام وتفكيراً للنفس ، غير ان هذه الفئة قلما تأمن تجاوز حد الاعتدال في الشرب ، فيؤول بها الامر الى ما لا تحمد عقباه .

وبديهي ان السكّير لو عرف ما تأتله به المسكرات من المحن قبل الاقدام على شربها ، لثفرت منها نفسه كما تفر من السم الذعاف . كيف لا وهي تؤهن جسده ، وتضعف بصره ، وتطغى شعله ذهنه ، وتجعله شرس الطبع خائر العزيمة فاتر الهمة ، بل تفسد في الجملة دينه ودنياه ، وتعرض أسرته لاشد النوازل واقتك الآفات . واذا كنت في ريب من ذلك فانظر اليه وهو على مائدة الشراب متلجلج اللسان محمر العينين مياد الراس يكاد يغشى عليه ، وكثيراً ما يتقيأ ما شربه حتى تتقرز العين من مرآه ، فاذا حمل الى بيته أوسع أسرته سباباً وشماً وتجديفاً ، وربما انهال عليها بالضرب ، فتأملوا في سوء حاله وحال أسرته الشقية به

على ان السكّير يكون في الغالب قصير الحياة ، يُدركه العجز في كهولته ، وهو معرض لعلل موبقة أهبط تصلب الشرايين وما يتفرع عنه من الامراض القلبية والرئوية . ولو لم يكن للمسكرات غير هذه الاضرار لكان التحرز من شربها فرضاً على من فيه مسكة من العقل ، ولكنها تتطرق مضارها الى النفس والاخلاق

نُعْمِي البصيرة وتُفسد حكمها ، وتضرب سداً بينها وبين المدركات ، وتتناول الذاكرة فتحجو من صفحاتها محفوظاتها السالفة وتذكراتها الغائرة ، وتُحجزها عن اذخار ما تريد اذخاره من المقولات والمنقولات . ثم انها تجمل في الطباع خشونة وشكاسة ، فيغضب السكّير ويعربد من لا شيء ، ويُسمعك من احاديث البطولة والحماسة ما يُضحك الشكلى ، وكثيراً ما يسلق ندماءه بقرص كلامه ولواذع لسانه ، ولا سيما اذا خالفوه في رأيه . وبما يزيد في بلائه أن ضرر هذه العادة غير مقصور على السكّير وحده بل ينتقل الى ذريّته ، فينشأ اولاده وحفدته بُلهاء العقول مهازيل الاجسام ، سبّئي الاخلاق ، ضُعفاء الارادة والحافضة ، متاخبين جبّناء ، من اهل الاهواء ، مُعرّضين للسّل الرئوي ، ويكونون في الغالب سكّيرين لان السكّير لا يلد الا سكّيراً كما انه لا يُنجب وان كان نجيباً .

قلنا وبعد ان رأيت ما رأيت من عواقب المسكرات الوخيمة فلا تعجب اذا اتفق الدين والشرع على تحريم معاقرتها والافراط من شربها ، اذ تقوّض اركان المجتمع وتقصم عرى الوئام بين اعضاء الأسرة ، وتُفسد الاخلاق ، وتُذيب الاجسام ، وتضعف الاذهان ، وتُتلف النسل ، وتُثير بركان السموات ، وتحمل على ارتكاب المعاصي والمسكرات . وهل من داء ادوأ من هذا الداء الدوي ، وهل من جناية افظع من جناية الآباء اذا ادمنوا شرب المسكرات واتولوا بنفوسهم ونفوس بنينهم كل هذه البلايا . الا فليستّوا الله في فلذات اكبادهم ، والاكتوا اقصى من الضواري واصلب من الجلامد . وما اشدّ ما يكون عقابهم يوم يناقشون الحساب امام منبر القضاء . وما يكون مقامهم عند ابنائهم يوم يعلم هؤلاء ان العلل التي حلّت بهم انما ورثوها من والديهم السكارى . .

باب الشعر

الملاحاة الجوية

فَتَحُوا السَّمَاءَ وَطَارَدُوا الْعُقْبَانَ
 وَالْجَوُّ وَدَّعَ عَزَّهُ وَهَنَاهُ
 وَالرَّيْحُ قَدْ سَلَسَتْ مَقَادُئُهَا لَهُمْ
 اللَّهُ دَرَهُمْ إِذَا مَا أَطْلَقُوا
 فَتَخَالَهَا عِنْدَ الْمَهْوَطِ صَوَاعِقًا
 تَحْكِي الطَّيُورَ بِشَكْلِهَا لَكِنَّا
 لَوْ حَاوَلَ النَّسْرُ النَّفْيَ لَحَاقَهَا
 أَوْ لَسْتَ تَحْسِبُهَا وَقَدْ طَارُوا بِهَا
 أَمَّا جَنَاحَاهَا فَلَا تَطْوِيهَا
 فَإِذَا ارْتَقَتْ قُبُوبُ السَّحَابِ وَحَلَّتْ
 مَا كَانَ أَبْدَعُ مَشْهَدًا عَايَنْتُهُ
 شَاهَدْتُ «فَدْرِينَ»^(١) الْجُرِّيَّ مَحْلِقًا
 مِنْ فَوْقِ مَرْكَبَةٍ يَجْرُكُهَا كَمَا
 لَمَّا دَنَا وَقْتُ الرُّوحِ لَسَمْتُ مِنْ
 زَفَرَاتِ مَصْدُورٍ تُصَدِّعُهُ النَّوَى
 حَتَّى إِذَا حَبِيتْ مَرَاجِلُهَا جَرَتْ
 قَالُوا بِسَاطِ الرِّيحِ وَهُمْ كَاذِبٌ
 مَنْ كَانَ يَحْلِمُ أَنَّ أَطْبَاقَ السَّمَاءِ
 مَنْ كَانَ يَحْسِبُ أَنَّ مَضَارِ السَّمَاءِ

وَجَرُوا عَلَى مَتْنِ الْهَوَا فُرْسَانًا
 مَذَّ صَيْرُوهُ خَلِيلَهُمْ مِيدَانًا
 حَتَّى غَدَتْ مِثْلَ الذَّلُولِ لِيَانًا
 لِلْمَرْكَبَاتِ السَّابِحَاتِ عِنَانًا
 وَإِذَا تَعَالَتْ خِلَتُهَا بِيْرَانًا
 أَمْضَى جَنَاحًا بَلَى أَشَدُّ جَنَانًا
 لَا رَتْدَ خَوَارِ الْقُوَى عَيَانًا
 كَالْبَرْقِ آتَا وَالسَّهَامِ أَوَانًا
 حَتَّى يَكُونَا لِلْهَوَا مِيزَانًا
 وَقَفَ الْعُقَابُ إِزَاءَهَا وَلِهَانًا
 يَسِي الْقُلُوبَ وَيَفْتَنُ الْأَذْهَانَا
 كَالنَّسْرِ يَسْبَحُ فِي السَّمَاءِ جَذَلَانَا
 يَهْوَى فَتَخَفَّقُ تَحْتَهُ خَفَقَانَا
 أَحْشَانَا مَا يَبِيعُ الْأَشْجَانَا
 فَتَنْشِبُ فِي اضْلاَعِهِ نِيرَانَا
 كَاللَّيْثِ يَزَارُ فِي الْفَلَاحِ غَضْبَانَا
 فَإِذَا بِهِمْ قَدْ شَاهَدُوهُ عَيَانَا
 سَتَظْمُ فِي رَحَبَاتِهَا سُكَّانَا
 سَيَصِيرُ يَوْمًا بِالْوَرَى غَضًّا

(١) هو أول طيار خلق في سماء بيروت

فَبَنُوا لَهُمْ فِي جَوْهَرِهِمْ أَوْطَانًا
مَلَكَ الرِّقِيعِ بِبَاسِهِ أَزْمَانًا
لَا يُحْرِزُ الْإِنْسَانُ فِيهِ مَكَانًا
فِي الْجَوِّ تَحْمِلُ فَوْقَهَا الرُّكْبَانَا
فَاللَّهُ خَوَّلَ آدَمَ السُّلْطَانَا
خَرَقُوا السَّمَاءَ وَسَحَّرُوا الْأَكْوَانَا
حَتَّى رَأَيْتَ أَيْدِي الْوَرَى الْأَرْكَانَا
تَطْوِي الرِّقِيعَ وَتَنْثِي نَشْوَانَا
أَوْجَ النَّبَاهَةِ يَنْشُرُ الْعِمْرَانَا
يَقِفُ اللَّيْلِبُ أَمَامَهَا حَيْرَانَا
سِحْرًا وَنَحْسَبُ رَبِّهَا شَيْطَانَا
تَلِدُ الْعُلُومُ الْمُعْجَزَ الْفَتَانَا
يَسْقِي الصَّدُورَ مِنَ الْعُلُومِ لِيَانَا
أَوْ لَمْ تَرِيدِي صَنْعَهُ لِقَانَا

فَالْأَرْضُ لَمْ تُشْبِعْ مَطَامِعَ أَهْلِهَا
لَا خَفِضَ جَنَاحُكُ أَيُّهَا النَّسْرُ الَّذِي
قَدْ كُنْتَ تَرْعَمُ أَنَّ مَلِكَكَ خَالِدٌ
فَإِذَا بِهِ وَالْمُرْكَبَاتُ سَوَابِحُ
لَا تَأْخُذُكَ حَيْرَةٌ مِمَّا جَرَى
أَيْنَ الْمَفْرُِّ مِنَ الْأَنَامِ فَإِنَّهُمْ
مَا كُنْتَ تَخْشَى فِي حِمَاكَ مُزَاحِمًا
فَلَقَدْ مَضَتْ يَا نَسْرُ دَوْلَتُكَ الَّتِي
وَمَضَى زَمَانٌ كُنْتَ فِيهِ مُنْمَعًا
يَاشْرُقُ مَا لَكَ خَامِلًا وَالْقُرْبُ فِي
أَفْلا تَرَاهُمْ يُحَدِّثُونَ غَرَائِبًا
مِنْ كُلِّ مُعْجَزَةٍ تَكْادُ نَعْدُهَا
لَا، لَيْسَ مِنْ سِحْرُ هُنَاكَ وَإِنَّمَا
سَقِيًّا لَصَدْرِكَ يَا فَرْنَسَا إِنَّهُ
أَيُّ اكْتِشَافٍ لَمْ تَكُونِي أُمَّةً



وطني المفلدى

وَقَلْبِي لَا يَوَدُّ سِوَى عِلَاقَا
وَمَا عَوْدَتِي إِلَّا وَفَاكَ
وَكَمْ أَجْهَدْتُ فِي مَدَدِي قِوَاكَ
عَلَى فِكْرِي الْمُحَلِّقِ فِي سَمَاكَ
وَخَيْرُ النَّاسِ مَنْ مَاتُوا فِدَاكَ
فَعَزَّزْنِي وَشَرَّفَنِي هَوَاكَ

سَوَادُ الْعَيْنِ يَا وَطَنِي فِدَاكَ
نَشَأْتُ عَلَى هَوَاكَ فَتَى وَفِيَّا
فَكَمْ عَزَّزْتَنِي وَرَفَعْتَ شَأْنِي
وَكَمْ أَتَزَلَّتْ مِنْ وَحْيٍ جَمِيلٍ
أَيَا وَطَنَ الْأَسْوَدِ فِدَتُكَ نَفْسِي
رَضِعْتُ مَعَ الْحَلِيبِ هَوَاكَ صِرْفًا

سَأَبْذُلُ مُهْجَتِي وَدَمِي وَقَلْبِي
وَأَرْمِي عَهْدَ حُبِّكَ كُلَّ عَمْرِي
فَمَا لِي فِي سِرِّكَ حَمِيٍّ مَنِيْعٌ
لَقَدْ أَبْقَيْتَ لِي شَرَفِي مَصُونًا
إِذَا مَا انْتَابَنِي دَاءُ غُضَالٍ
وَكَيْفَ يُلْمُ لِي دَاءُ وَبِيلٌ
لَأَنْتَ حَدِيقَتِي وَنَعِيمُ رَوْحِي
سَأَنْشُرُ فِي الْوَرْدِ ذِكْرَكَ حَتَّى
وَأَجْعَلَ فِي الْفُؤَادِ هَوَاكَ دِينًا
لَأَنْتَ سَقِيَّتِي عَلَاءٌ زُلَالًا
وَأَنْتَ حَمَلْتَنِي فِي كُلِّ خُطْبٍ
فَصَرْتُ فِتَاكَ فِي كُلِّ دَوَاهِي
أَكْرُ عَلَى الْيَدَى لَيْثًا هُصُورًا
وَلِي قَلْبٌ جَرِيءٌ لَا يُبَالِي
وَكَيْفَ أَخَافُ غَارَاتِ الْأَعَادِي
جَعَلْتُكَ بَعْدَ رَبِّي خَيْرَ رَبٍ
وَلَمْ يُخْطِ بَنُوكَ وَهَمَّ سَكَارَى
سَتَدْرُكُ مُهْجَتِي غُرَرُ الْأَمَانِي
وَأَرْشَفُ فِي الْحَيَاةِ أَلَذَّ كَأْسٍ
فَكَمْ أَنْجَبْتَ مِنْ مَوَلَى خَطِيرٍ
وَكَمْ أَنْبَتَ مِنْ بَطْلٍ كَمِيٍّ
وَكَمْ نَشَأْتَ مِنْ حُرٍّ أَيٍّْ
عَلَيْكَ وَقَفْتُ يَا وَطَنِي حَيَاتِي
إِذَا مَا مِتُّ فَاحْفَرِي ضَرْحِي
وَلَا تَجْعَلِ الْجَسْمِي يَوْمَ دَفْنِي

فَدَى شَرَفٍ تَسْلَسَلَ فِي دِمَاكَ
وَأَبْقَى فِي الضَّرِيحِ عَلَى وَلَاكَ
وَهَلْ يَحْمِي بَنِيكَ سَوَى حِمَاكَ
وَلَيْسَ يَذُودُ عَنْ شَرَفِي سِوَاكَ
شَفَايَ الْأَرْضُ يَنْفَعُ فِي رُبَاكَ
وَقَدْ نَشَقَ الْفُؤَادُ شَذَا ثَرَاكَ
وَحَسْبِي نَعْمَةٌ أَتَى أَرَاكَ
يَفْغُوحٌ بِكُلِّ نَاحِيَةٍ شَذَاكَ
وَأَجْرِي طَبَقٌ مَا يَهْوَى عِلَاكَ
وَأَنْتَ أَنْزَلْتَنِي بِسَنَا هُدَاكَ
حُسَامًا فِي يَدَيْكَ عَلَى عِدَاكَ
وَحَسْبِي عِزَّةٌ أَتَى فِتَاكَ
إِذَا مَا حَاولُوا يَوْمًا أَذَاكَ
بِذَلِ الرُّوحِ إِنْ خُطِبُ دَهَاكَ
وَفَوْقِي بَاتَ خَفَاقًا لَوَاكَ
وَمَا ضَلَّ الْأَثَلَى عَبْدُوا بِهَاكَ
بِحُبِّكَ بَعْدَ أَنْ نَشَقُوا هَوَاكَ
مَتَى أَدْرَكَتَ فِي الْعُلْيَا مَدَاكَ
مَتَى اسْتَوَيْتَ حَظَّكَ مِنْ هُنَاكَ
بَنَى لِلْمَجْدِ صَرْحًا فِي ذُرَاكَ
أَنْتَ مَا تَعَذَّرُ مِنْ مُنَاكَ
كَسَاكَ مِنَ الْمَفَاخِرِ مَا كَسَاكَ
وَمَا أَشْهَى النِّيَّةَ فِي رِضَاكَ
حَيَالَ الْأَرْضِ تُؤَنِّسُنِي صَبَاكَ
سَوَى كَفَنٍ تُطَرِّزُهُ يَدَاكَ

اللغة العربية على منبر الخطابة

كَتَبَ اللهُ لي البقاءَ مديدا
 ما جفاني من نشأتي قطُّ ولدي
 أيُّ نحرٍ بين اللغاتِ كنحري
 أيُّ صدرٍ يحوي الكنوزَ كصدري
 في الفياقي نشأتُ لكنَّ بُردِي
 شعرائي قد أخرسوا بالقوافي
 حَلَّقُوا في العليِّ نُسُورا وصادوا
 ولكم رَنَحَ المنابرِ خفرا
 فتصمَّحَ أسفارهم إنَّ فيها
 كلُّ نذبٍ يخوض بحرَ بَياني
 وإذا ما تلا تراجمَ قومي
 ورأى الذوقَ في الفلا حَضْرِيَا
 قد طويتُ الزمانَ عصرا فعصرا
 وتفرَّدتُ بالبلاغةِ حتى
 عجزَ الناسُ عن لحاقِ عُباري
 إنَّ حفظَ الذمامِ قد باتَ عندي
 أيُّ عهدٍ قطعتهُ كان منه
 وإذا ما وعدتُ انجزتُ وعدي
 إنَّ نفسي تطيبُ إن يقضَ يوما
 والمعالِي ' وقد بلغتُ مداها
 نخوةً في حَماسةٍ في إياه
 وجواري للخائفين ملاذَّ

واللغاتُ الحسان تهوى الخلودا
 بل كَسَوْنِي من العلاءِ بُردا
 قَلَّدَتْهُ يَدُ القريضِ هُفُودا
 وَيُريكَ الجان فيه نضيدا
 راقَ وشيأَ ولا يزالُ جديدا
 كلَّ شاذٍ يُسَكِّتُ الثَّرِيدا
 ما رَأَوْهُ مِنَ المعاني فريدا
 خُطْبائي وارقصوا الجلمودا
 حِكْمًا تجعلُ الضُّلُولَ رشيدا
 لا يُحِلِّي بغيرِ دُرِّي الجيدا
 أَبْصَرَ الأسدَ والاباةَ الصَّيْدا
 ورأى اللُّطفَ كيف يأوي البيدا
 ومَلَأَتِ الزَّمانَ عِزًّا وجودا
 رَفَعَ العُجمُ في الرُّبِّي لي بُنودا
 وتجاوزتُ في السِّباقِ الحدودا
 سُنَّةً لا أَطِيقُ عنها مَحِيدا
 حَوْلَ غُنْتِي القِيودُ تعلو الثُّيُودا
 وكثيرون ينكثون العهدوا
 في سبيلِ الوفا وحيدِي شهِيدا
 هيَ كانتَ على كَمالي شُهودا
 لا تَرى في الحِلِّي لَهَنَ نديدا
 يجعلُ المحتمِّي به صنديدا

كيف أخشى العدى وحولى سور
 كيف أخشى غارات رب الليالي
 كيف أخشى ذبول روضي وعندي
 معهد قد لقيت في جانبيه
 يوضعُ النشء من ثدي حلياً
 يا بني العرب عزوني فتحيوا
 وانثروا في الملا مآثر قومي
 كانت العرب في الحيام ملوكاً
 كانت العرب أرحب الناس صدراً
 لا يرون الوفاق الا نعيماً
 فانبدوا منكم التنافر حتى
 وتباروا في ما يُفقد فلاحاً
 انما الشرق في الجاهلة عبد
 من قلوب بها أفل الحديد
 وامامي لبنان يُدمي الأسود
 منهل طاب مصدراً ووروداً
 عطف أمر على الوليد وحيداً
 فيشب الفتي حساماً حديداً
 وأذيعوا في الأرض ذكري الحميدا
 وتحذوا بالمكرمات الجدودا
 أتكونون في القصور عبيدا
 ولدى الضيم اصلب الناس عودا
 ويرون الشقاق خطباً شديداً
 تجملوا العز في البلاد وطيدا
 وابذلوا في العلوم جهداً جهيدا
 فارفعوه بالعلم حتى يسودا

الهزار الصداح

مرحباً بالهزار يشدو طروباً
 نغمات تجلو الهموم عن الصد
 ما غناه الهزار الا مدام
 إنما الطفل بلبل يتغنى
 إنما الطفل زهرة تملأ العي
 انما الطفل كوكب يلبس الرب
 حبذا الطفل يوم يمرح ريحاً
 فوق غصن الدلال يسبي القلوبا
 وتنفى عن الفؤاد الكروبا
 يتسنى بين العروق ديبسا
 في حماه فيخرس العندليب
 ن جالاً وتنفهم النفس طيبا
 ع رداء من البهاء قشيبا
 بين سرب الطبا ويعدو وثوبا

للمعالي وللعلوم كُشُوباً
 وله عزيمةٌ تُذِلُّ الصَّعُوباً
 وله الرأيُ كالشَّهابِ نُقُوباً
 وله فكرةٌ تُريه الغُيُوباً
 إِنَّ مِنْ حَوْلِكَ السَّمِيعَ المَجِيباً
 فتَنقَلَّ على الصُّدُورِ حَبِيباً
 تَرْتَجِي أَنْ تَرَكَ نَجْلاً نَحِيباً
 وَارْعَ مِنْهُ مَرْعى الحَنَانِ خَصِيباً
 بدلالٍ يَكُونُ سِحْراً مُذِيباً
 حَبْذاً الأُنْسَ بالبَتِينِ نَصِيباً
 حينَ تَعْدُو لَدَنْ القَوامِ رَطِيباً
 في هَوَاكَ الغَرِيبُ يَحْكِي النِّسِيبَ
 وإذا ما نَطَقْتَ تُعْجِي الخَطِيبَ
 كانَ مَجْرَى الكَهْرِباءِ عَجِيباً
 كانَ كالنَّارِ في الصُّدُورِ سُوباً
 من سِقامٍ يُعْجِي الطَّبِيبَ الأَرِيبَ
 سَرادها حينَما تُغْفِي طُرُوباً
 وَسَمِعْنَا بَعْدَ الغِناءِ نَحِيباً
 زَاخِرَاتٍ فَخْضَتْنِ لُغُوباً
 فتَوَهَّشَتْ سَراباً كَذُوباً
 فَوْقَ هَامِ الوَدَى خَفَّتِ الخُطُوبُ
 وَتُدَانِي عِنْدَ المَساءِ الثُّرُوبُ
 فَكَرِهَتْ المَقامَ فيها غَرِيباً
 مُذْغِدا المَرءَ في المَلاحِمِ ذِيباً
 مَعَ طُغاةٍ يَأْبُونُ إِلَّا الحُرُوبُ

حَبْذاً الطُّفْلُ يَوْمَ يَغْدُو طُوباً
 حَبْذاً الطُّفْلُ يَوْمَ يُضْحِي قَتِيباً
 حَبْذاً الطُّفْلُ وَهُوَ كَهْلُ رَصِينٍ
 حَبْذاً الطُّفْلُ وَهُوَ شَيْخٌ وَقُورٌ
 إِلَيْهِ يَابِلْبَلُ الرِّياضِ تَرْتَمُ
 وَلَكَ الصُّدْرُ حينَ تَصْدَحُ غُصْنٌ
 وَتَفْكُهُ حَبٌّ أَمٍّ رَوْومٌ
 وَارْشَفِ اللُّطْفَ مِنْ أَيْكٍ زُلَّالاً
 وَتَدَلَّلْ ما شئتَ فَالْقَلْبُ يُسِي
 أَنْتَ أَنْسٌ لَوادِيكَ وَسُلُوى
 خَفِيفُ الحِياةِ يَغْدُو رِبِيعاً
 مَلَكٌ أَنْتَ فِي السَّرِيرِ وَدِيعٌ
 فَاذا ما سَكَتَ تَسِي نُهانا
 رُبَّ ثَعْرٍ رَصَعْتَهُ بَابِتْسامِ
 رُبَّ دَمْعٍ نَثَرْتَهُ كَاللَّآلِي
 وَمُتاعَتِكَ اللُّطِيفَةُ تَشْفِي
 أَنْتَ لَا تَدْرِي ما الحِياةُ وما أَسَ
 كَمْ رَأَيْناكَ فِي الحِمَى تَتَغَنَّى
 هَلْ تَرَأَتْ لِمَقْلَتِكَ الأُماني
 أَمْ تَعامَيْتَ عَنِ صُرُوفِ اللَّيالي
 أَمْ رَأَيْتَ الخُطُوبَ وَهِيَ جِبالٌ
 أَمْ رَأَيْتَ الحِياةَ كَالشَّمْسِ تَبْدُو
 أَمْ عَرَفْتَ الدُّنْيا بدارِ عَتارِبِ
 أَمْ رَأَيْتَ الدِّماءَ تَجْري بِجارٍ
 فَأَبَيْتَ الحِياةَ بَيْنَ الضُّواري

كلهم يدعي التمدنَ صرفاً
 أي حرب كهذه الحرب شوماً
 لا تخف أيها الصغير الرزايا
 ما شقاء الحياة إلّا من المر
 كل من يألف المخابث يُسمي
 والذي يُحدث المجازر يلقي
 ساءل الناس واعتزل كل شره
 واصنع الخير ما حيت وجانب
 فالذي يزرع البلاء يقوم
 يحسب الناس أنه في نعيم
 والذي يصرف الزمان شريفاً
 هو حي بالذكر والذكر يبقى
 ها أبوك الفضال يمينا جليلاً
 أنزلته القلوب فيها اميراً
 فتشبهه بفضله تحي رغداً
 وتمتع بعطف أمك وانعم
 أيها الطفل كن فتى عبقرياً
 واملأن التاريخ مجدداً وغزواً
 مثلك التابعون في الارض كانوا
 جئت بكراً لوالديك فذاقا
 وغداً تصبح الأديب المرجى

وهو للحرب لا يزال ركوباً
 لم تر المرء قبلها قط شيباً
 إن تحاميت في الحياة العيوباً
 إذا عاش في الأثام معيماً
 في سباق العلى جزوعاً هيوباً
 أبداً ربه عليه غضوباً
 يتغيب غيبنا عليك سكوباً
 كل امرئ يلقي عليك الذنوباً
 آمين التبر يحصد التأديبا
 وهو يصلي طي الضلوع الهيما
 فهو في الأرض كوكب لن يغيبا
 في فؤاد التاريخ مسكاً وطيبا
 محزناً في الوري المقام الهيما
 منذ دعاه الندى قلبى مهيما
 وتو السعد في يديك ريبا
 بخنوة ينسبك حتى الحليما
 واحي في قطرك العزيز حسيبا
 وانشرن الآثار فيه طيوباً
 فمضى أن تكون اسمي نصيبا
 من ملذات ذي الحياة ضروباً
 عند قوم يؤلهون الأديبا

اليوبيل الذهبي

الاب لويس شيخو اليسوعي

كُلَّ اليراعُ وما كَلَّتْ فِقْفَ بِهِ
 ذِكْرُ يَحْيَاهُ الَّذِي صَنَعَتْهُ
 أَفْأَ لِعَضْبِكَ فِي حَيَاتِكَ رَاحَةً
 أَوْ مَا لِرَوْحِكَ مِنْ فِرَاحٍ سَاعَةً
 حَتَّى تَرَى أَنَّ الْبِلَادَ مُقَرَّةٌ
 أَيْ أَمْرِي فِي قُطْرَانَا لَمْ يَلْتَقِ
 لَفَةً حَمَلَتْ لَوَاءَهَا مِنْذُ الصَّبَا
 تَرْنُو إِلَيْكَ وَأَنْتَ تَنْظُمُ عَقْدَهَا
 كَمْ زَادَ رَوْنُهَا بِمَا نَسَقَتْهُ
 وَلَكُمْ عَلَا بَيْنَ اللُّغَاتِ مَقَامُهَا
 مَا «الْمَشْرِقُ» الْوَهَّاجُ الْأَكْوَكِبُ
 مَا «الْمَشْرِقُ» الصَّدَاحُ إِلَّا بَلْبَلُ
 تَصْبُو إِلَيْهِ نَفُوسُنَا كَلَفًا بِمَا
 أَنْشَأَتْ لِلْأَعْوَابِ أَنْفَسَ مَتَحَفٍ
 لَوْلَاكَ ظَلَّتْ تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى
 لَكَ فِي الصَّدُورِ مَهَابَةٌ قَامَتْ عَلَى
 فَالْتَفَتْ تَحْتَ لَوَاكِ أَشْرَفُ مُوَكِّبٍ
 وَعَزِيمَةٍ ذَابَ الْحَدِيدُ وَلَمْ تَذُبْ
 أَرْهَفَتْهَا فِي كُلِّ خُطْبٍ مُعْضَلٍ
 إِنَّ الْحِمِيَّةَ فِي فَوَادِكِ شِيدَتْ

وَانْظُرْ إِلَى الذِّكْرِ الَّذِي أَحْرَزَتْهُ
 وَجَعَتْهُ وَضَبَطَتْهُ وَشَرَحَتْهُ
 يَوْمًا فَيُنِى كُلَّ مَا حَمَلَتْهُ
 مِنْ بَعْدِ مَا جَاهَدَتْ مَا جَاهَدَتْهُ
 أَبَدًا بِفَضْلٍ طَالَمَا عَمَّتْهُ
 مِمَّا نَثَرَتْ مِنَ الْيِرَاعِ وَصُغَتْهُ
 وَنَشَرَتْهُ فِي الْخَافِقِينَ وَصُنَتْهُ
 فَتَقَرُّ مَقْلُهَا بِمَا نَظَّمَتْهُ
 وَزَهَا عَجَائِهَا بِمَا نَعَجَّتْهُ
 لَمَّا تَحَلَّتْ بِالَّذِي رَصَعَتْهُ
 مَلَأَ الْبِلَادَ هَدًى بِمَا أَوْدَعَتْهُ
 سَكِرَتْ بِهِ الْأَذَانُ مَذْ أَنْطَقَتْهُ
 حَبَّرَتْهُ فِيهِ وَمَا أَبْدَعَتْهُ
 نَمَّا اكْتَشَفَتْ لَهُمْ وَمَا اسْتَنْبَطَتْهُ
 آتَارُهُمْ فَاهِنًا بِمَا اسْتَخْرِجَتْهُ
 عَوْشٍ بِجَيْشِ الْمَسْكُومَاتِ خَفَرَتْهُ
 وَمَشَى وَرَاءَكَ فَيَلَقُ دَرَبَتَهُ
 وَبَدَا لَهَا الصَّعْبُ الْجَمُوحُ فُرُضَتْهُ
 فَتَضَا عَلَيْكَ حُسَامُهُ فَشَطَرَتْهُ
 مِنْذُ الْقَتْوَةِ مَعْقِلًا عَزَزَتْهُ

وحيته من كل طارئة ولم
 خمسين عاماً قد طويت محلقاً
 وشعارك الحق المبين يصونه
 غضب نبت كل الصوام دونه
 وشجذت بالحجج القواطع غربة
 لا تُعيد السيف الذي تلم الظبي
 لو كان يلقي ذو النور جزاءه
 لأعيد للشرقي غابر عزه
 أو كان ينصب في الحياة لمحسن
 نصبوا لك التمثال فوق منارة

تدعُ الفؤاد تدرك ما حصته
 كالنسر تهزأ بالذي عاركته
 قلم على الحق المبين وقفته
 لم ينل حذاءه مذ جردته
 فاندل جيش البطل حين شجذته
 ورفعتا فوق الرابي ورفعته
 وينال في دنياه ما قد نلته
 وأراك من آياته ما شئت
 أثر على ما شاد بما شدته
~~شما من مجموع~~ ما أنشأه



تحية « غورو » القائد الكبير

أيها القائد الكبير الخطير
 أقسم السيف أن يكون اميراً
 سر بجو العلى الى حيث تهوى
 ولك القلب أينما كنت برج
 كنت في الحرب آية الأس حتى
 فسحقت الجيوش تلو جيوش
 وحصون في رمس قامت جبالاً
 ما حمتها صحائف من حديد
 قلب غورو، والموت عذب لديه
 حمس الجند في المعارك حتى
 ما بناه الألمان في نصف قرن

أنت للسيف من صباك سمير
 إن نضاه على عداه الأمير
 فالمعالي تسير حيث تسير
 ولك الصدر منبر وسرير
 هابك القرن وهو ليث هصور
 وغدت تحتك الراسي طور
 شاهقات تهابهن النُشور
 بل حمتها من الجنود الصدور
 يوم يدعو الى الجهاد النفير
 بات كل الى المنون يطير
 زعزعت من أسه كف غورو

هيَ خَطَّتْ والنصر طوعٌ لما خَطَّتْ وربُّ النصر العزيزُ التقديرُ
مَنْ عليه عَوَّلَتْ في كلِّ خطبةٍ مستجيذاً به ونعمَ المجيرُ
ايها البوش لا تنوحوا فهذي شِمةُ الدهر والحظوظُ تدورُ
قد سكرتم عجباً وتهتم دلالاً فانظروا اليومَ كيف كان المصيرُ
كنتم سادةً فصرتم عبيداً وعقابُ الشعب العتيّ الثيرُ
يومَ طارت يمينُ غورو توتنحت سروراً وهل يليق السرورُ
كان ذا منكم غروراً وما يعلق الا بالأغبياء الغرورُ
انَّ يئناه ان تطير يبقَ فيه قلبُ ليثٍ على الليث يُغيرُ
أو ما فيه همةٌ لا تسامى أو ما فيه عزيمةٌ لا تخورُ
كانت الحرب بالسلاح فأمت جثت غورو لبنان والأمنُ فيه
جثت لبنان والمجازرُ فيه جثت لبنان والعيونُ دوامُ
فتدارك حشاشةً في بنيه إن جيراننا استطالوا علينا
وربضنا حولَ العرينِ أسوداً كيف نُغضي على الهوان وفينا
نحن قومٌ الى الضياعمِ نُغزي نحن لولا حُبُّ السلامِ لَطَرنا
نحن لولا هيامنا بفِرنا إن في صدرنا نفوساً كباراً
فأذخرنا لحادثات الليالي يا ابا الحزمِ عاجِ الداءِ فينا
فرَّقَ التركُ بينا من قرونِ إن عينَ السماءِ تقظى

من المهد الى اللحد

على صفحاتِ العمرِ خطَّت يدُ الدهرِ
عرفتُ بها سرَّ الحياةِ وكنهها
فما العمرُ الا مرحلاتٌ تجوزُها
تَشِيدُ لنا الأحلامُ بُرجَ سعادةٍ
عِظَاتِ لِيذِي الذِّكْرِ تُسَطِّرُ بِالْبَرِّ
وما تحتوي الدنيا من الحلوِّ والمرِّ
على الشوكِ أحياناً وحيناً على الزَّهرِ
فَتَنسِفُهُ الْآيَامُ بِالثُّوبِ الحُمْرِ

(الطفل)

ومهد به نَامَ الصغيرُ مَقْمَطاً
يُرِيدُ حراكاً والقياطُ يَصْدهُ
تُترجمُ عن لوعاته عَبْرَاتُهُ
إذا هزَّ صوتُ الطفلِ مهجةَ أمه
تُناغيه نشوى من ملامح وجهه
وَتُنشدُهُ شعرَ الهوى فيُعِيدُهُ
بِرآه يَفدُو الشَّهْدَ أَشهى من الكرى
تراه بِرآةِ الغرامِ كأنه
وطوراً تَحَالُ الدهرُ يَنْضُو حُسامُهُ
فِيثْبُتُ سُوسُ الهَمِّ جَذَعَ فَوَّادِها
ألا إِنَّ عِيشَ الأمِّ مرٌّ مَذَاقُهُ

كَأَنِّي بِهِ الْعَصْفُورُ يَرْقُدُ فِي الْوَكْرِ
فِيَلْبَثُ مَغْلُولَ الْيَدَيْنِ عَلَى قَسْرِ
فَتَنْتَرُّهَا عَيْنَاهُ دُرّاً عَلَى النَّحْرِ
فَيَفِرُّ الْهَوَى مَا بَيْنَ قَلْبَيْهِمَا يَجْرِي
فَيُضْعِي إِلَى أَنْغَائِيهَا بِاسْمِ الْغُرِّ
بِلَهْجَتِهِ الْعَجَاءِ سِحْرًا عَلَى سِحْرِ
أَلْيَا وَجَنَحُ اللَّيْلِ أَزْهَى مِنَ الْفَجْرِ
أَخُو الْبَدْرِ أَوْ إِهْيَ ضِيَاءُ مِنَ الْبَدْرِ
عَلَى عَصْنَةِ الْمَيَّاسِ فِي زَهْرَةِ الْعَمْرِ
وَيَقْدَفُ مِنْ حَوْلِهِ مَوْجاً مِنَ الذَّرْعِ
وَعِيشَ ابْنَيْهَا فِي الْمَهْدِ ضَرْبٌ مِنَ الْأَسْرِ

(الصبي)

ويوم به طابت عن الناس مهجتي
خرجتُ وفي صدري الهمومُ كأنها
فقد اشرفت عيني على زهرة الرُّبِّي
رَأَيْتُ جُيُوشَ الْبَشْرِ شَدَّتْ عَلَى الْأَسَى
هَنَالِكَ نَهْرٌ تَحْتَقِدُ الرِّيحُ فَوْقَهُ
فَلَمْ أَرَ لِّلْسُلُوى سَيْلًا سِوَى الْقَفْرِ
رِوَاثِ وَمَنْ يَقِيصِي الرِّوَاثِ عَنِ صَدْرِي
وَقَدْ كَلَّلْتُهَا بِالْبُجَانِ يَدُ الْقَطْرِ
فَلَمْ تُبْقِ لِلْأَتْرَاحِ فِي الصَّدْرِ مِنْ إِثْرِ
زُرُودَ لُجَيْنٍ أَوْ سِلَاسِلَ مِنْ دَرِّ

على ضَفْتَيْهِ الدَّوْحُ مدَّ ظِلَالَهُ
إِذَا بَغْرَاشٍ مَرَّ يَعْدُو وَرَاءَهُ
فَلَمْ يَرَ غَيْرَ الدَّوْحِ مِنْ مَلْجَأٍ لَهُ
وَقَدْ وَقَعَتْ عَيْنُ الْفَتَى بَعْدَ سَاعَةٍ
فَدَسَمَهُ ظُلْمًا وَشَتَّتْ شَمْلَهُ
فَقُلْتُ بِنَفْسِي هَذِهِ صُورَةُ الَّذِي
مَتَى أَلِفَ الْأَحْدَاثُ أَنْ يُنْزِلُوا الْأَذَى

لَهُ نَفَحَاتُ أَيْنَ مِنْهَا الْعَطَرُ
صَبِيٌّ ذَكَتْ فِي خَدَيْهِ جُدُوهُ الْعَطَرُ
فَلَاذَ بِهِ حَرَّانَ مِنْ يَشْدَةُ الْفَرِّ
عَلَى بَيْتِ غُلٍّ حَوْلَ كُدْسٍ مِنَ الْبُرِّ
وَأَتْلَفَ مَا فِيهِ مِنَ التَّمَلِّ وَالذُّخْرِ
يُذِيقُ الْوَرَى كَأْسًا أَمْرًا مِنَ الصَّبْرِ
بِأَعْجَزِ خَلْقٍ اللَّهُ شَبُّوا عَلَى الْغَدْرِ

(الشاب)

نَظَرْتُ إِلَى أَهْلِ الشَّيْبَةِ نَظْرَةً
لَهُمْ عَزَّةٌ قَعَسَاءُ تَأْتِي صَفَارَةً
يَغُوصُونَ فِي بَحْرِ الْمَفَاخِرِ جُهْدَهُمْ
الْأَسْوَدُ أَبَاهُ الصَّيِّمِ فِي سَاحَةِ الْوَعْيِ
وَأَوْطَانُهُمْ لَا يُسْتَبَاحُ ذِمَارُهَا
رَعَى اللَّهُ أَشْبَالَ الْعَرِينِ وَأُسْدَهُ
وَحَيًّا مَغَاوِرَ الْحُرُوبِ تَحِيَّةً
هُمْ عُدَّةُ الْأَوْطَانِ يَحْمُونَ عَزَّهَا

تَجَلَّتْ بِهَا شَمْسُ الْحَقَائِقِ فِي فِكْرِي
وَهَشَّتُمْ مِنْ دُونِهَا هِمَّةُ النَّسْرِ
لِيَسْتَخْرِجُوا الدَّرَّ الشَّيْنِ مِنَ الْقَعْرِ
لَهُمْ عَزَمَاتٌ لَا تَكِلُ عَنْ الصَّخْرِ
يُجَاهُونَ عَنْهَا بِالْمُتَّقَةِ السُّمْرِ
وَصَانَهُمْ مِنْ عَصَبَةِ الْحَتْلِ وَالْمَكْرِ
تُرَدِّدَهَا فِي غَايِبِهَا أَسْدُ الْخَدْرِ
بِبَاسٍ عَلَى حَدِّ الظُّبَى أَبَدًا يَجْرِي

(الكهل)

وَلَا نَالَتْ الْجَلَى الْكُهُولَ فَاوْنَهُمْ
لَهُمْ هِمَّةُ الْقِتْيَانِ لَكِنْ قَلْبُهُمْ
فَلَا تَسْتَفِزُّ الْمَطْرِبَاتُ قُلُوبَهُمْ
فَهُمْ بَيْنَ حَادِي خَفَقَةٍ وَرِزَانَةٍ
إِذَا رُزِقَ الْكَهْلُ الْبَنِينَ غَذَاهُمْ
يُلْقِنُهُمْ فِي الْمَهْدِ حَبَّ بِلَادِهِمْ
وَيُحْجِزُ عَنْ أَسْمَاعِهِمْ كُلَّ لَفْظَةٍ
وَيُجِبُّ عَنْ أَبْصَارِهِمْ كُلَّ مَشْهَدٍ

لِيَجْتَنُوا زَهْرَ الرُّشْدِ مِنْ قَنَنِ الْخُبْرِ
بَصِيرٌ بِأَخْلَاقِ الْوَرَى سَايِرُ الدَّهْرِ
وَلَيْسُوا أَوْانَ الْلَهْرِ كَالْحُودِ فِي الْخَدْرِ
فَمَا هُمْ بِأَطْوَادٍ وَلَا شَارِي خَمْرِ
بِأَدَابِهِ الْحَسَنِ وَأَخْلَاقِهِ الثَّوَرِ
وَيُجَلِّهِمْ مِنْ مَعَشَرِ السَّوَةِ فِي حِجْرِ
تَوَدِّي بِهِمْ يَوْمًا إِلَى هُوَّةِ الْوَزْرِ
يُثَبِّتُ فِي الْأَذْهَانِ جُرْثُومَةَ الشَّرِّ

السنابل ٢٠

إذا أعرجُ عُصْنٌ فِيهِمْ هَبْ مُسْرِعًا
وإنْ بَدَرْتُ مِنْهُمْ بِوَادِرٍ حَدَقَ
فَلِحِظَتُهُ أَمْضَى مِنَ السَّيْفِ عِنْدَهُمْ
وإنْ صَنَعُوا صُنْعًا جَمِيلًا جَزَاهُمْ
يُدِيرُ عَلَيْهِمْ مِنْ رَحِيقِ حَنَانِهِ
وَأَشْرَفُ مَا يَأْتِيهِ فِي جَنْبِ خَيْرِهِمْ
فَيُنْفِقُ فِي هَذَا السَّبِيلِ نُضَارَهُ

(الشيخ)

وشَيْخٌ جَلِيلٌ كَلَّلَ الشَّيْبُ رَأْسَهُ
إِذَا قَلَّتِ الْأَيَّامُ غَرَبَ مِثْلُ مِثْلِهِ
وإنْ جَنَّ لَيْلُ الْمَشْكَلاتِ تَأَلَّقَتْ
فَلَا تُخْطِئُ الْمَرْمَى سِهَامُ طُنُونِهِ
تَحْفُ بِهْ فِي كُلِّ نَادٍ مِهَابُهُ
وَمَجْلِسُهُ مَشْرُودَةٌ فِي أَدِيمِهِ
لَهُ مَطْلَعُ زَانَتِهِ هَالَةٌ حَكِيمَةٍ
أَلَا إِنَّ رَأْيَ الشَّيْخِ أَنْفَعُ لِلرُّدَى
فَكَمْ نَكْبَةٍ جَلَّى الشَّيْخُ عُيُومَهَا
وَكَمْ غَمْرَةٍ خَاضُوا عَلَى إِثْرِ غَمْرَةٍ
لَقَدْ صَقَلَتْ كَفَّ التَّجَارِبِ ذَهَنَهُمْ
فَبَاتُوا عَلَى نُجْبٍ بِأَطْوَارِ دَهْرِهِمْ
إِذَا كَرَّ جَيْشُ الْعُمَرِ جَرَّدَ فِكْرَهُمْ
عَلَى أَنَّ عَمَرَ الشَّيْخِ مَرٌّ وَلَوْ غَدَا
تَرَاهُ أَوَانَ الْقَرِّ يَهْتَدُ رِعْدَةً
يَنْوَحُ عَلَى عَهْدِ الشَّيْبَةِ نَادِبًا
فَلَا غُرُوَ إِنْ يَأْسَفُ عَلَى زَمَنِ الصَّبَا

كَتْكَلِيلُ عُصْنِ الرُّوضِ بِالنُّورِ وَالزُّهْرِ
فَأَرَاوُهُ تُعْنِيكَ عَنْ طَلْعَةِ الزُّهْرِ
لَهُ حَكِيمَةٌ أَزْهَى مِنَ الشُّهْبِ الثَّرَى
وَيَقْرَأُ مَا فِي صَفْحَةِ الْغَيْبِ بِالْفِكْرِ
كَأَنَّ حَقَّتِ الْأَبْطَالُ بِالْمَجْدِ وَالنَّصْرِ
عُقُودُ بُجَانٍ أَوْ سُذُورُ مَنْ التَّيْبِ
كَأَنِّي بِهَا مِنْ حَوْلِهِ هَالَةٌ الْبَدْرِ
مِنَ الْعُضْرِ فِي كَفِّ الْفَتَى الْبَاسِلِ الْقَرِّ
وَلَوْلَاهُمْ ضَاقَتْ بِهَا حِيلُ الْقَطْرِ
وَلَمْ يَحْفَلُوا يَوْمًا بِعَدَّةٍ وَلَا جُزْرِ
وَبِالصَّقْلِ يَغْدُو الذَّهْنُ أَجْلَى مِنَ الْفَجْرِ
وَعِلْمُهُ بِنَا فِيهَا مِنَ التَّنْفَعِ وَالضَّرِّ
عَلَيْهِ مِنَ الْآرَاءِ صِصَامَةٌ تَقْرِي
عَلَى عَرْشِ عَزَّةٍ فِي سَمَاءِ النَّهْيِ وَالْأَمْرِ
وَإِنْ حَلَّ فَصْلُ الْقَيْظِ ذَابَ مِنَ الْحَرِّ
قَوَاهُ وَقَدْ خَانَتْهُ فِي مَغْرِبِ الْعُمَرِ
فَقَدَّ بَاتَ مِثْلَ الْقَوْسِ مُحْدُودِ بَالِ الظَّهْرِ

وأبصاره كَلَّتْ واسنانه هَوَتْ
يرى حوله أن المايا رواصد
وفي يديها المنجاتُ تنجَتْ قَبْرَهُ
فليس يغيب الموت عن عين فكره
فتباً لدنيا يغمرُ الناسَ ههنا
إذا شئتَ أن تحيا حليفَ سعادة
غيرُ الوري مَنْ زانَ أيامَ عمره
وفي صدره همُّ احْرثُ من الجمر
لتنشبَ في احشائه مغلبَ الغدر
وتحفُّره كَفُّ الردى إيماءً حفر
ولا تُصرفُ الانظارُ عن لُجَّةِ القبر
ولذا أُنْثا فيها عصيرُ من الصّد
فأكثرُ من الخسنى وأقلُّ على البر
بما يُهيجُ الأبوابَ في موقفِ الحشر



تحية كليلة القديس يوسف

في يوبيلها الذهبي

في المشرقين نشرتِ نورَ هُذاكِ
يا جنةَ العلياء هل من جنةٍ
روحتِ صدرَ الدين حتى شاقَّة
من حولك الانهارُ يجري ماؤها
ولقد زكتِ فيكِ الفصونُ وصاغتِ
والعلمُ لاحت في البلاد بدورهُ
كم من فتى حاز العلى من بعد ما
كم من فتى نظم الخلى في نحوه
كم من فتى قد صار سيّدَ قومه
يُشني عليكِ وقلبه بكِ هائمٌ
لكِ مهجةُ الأمِّ الرومِ وطالما
إن يُكبرِ الناسُ الوفاءَ فأنهم

والغربُ عباقُ بطيبِ شذاكِ
تُهدي الى العلياء مثلَ جَنّاكِ
ما تحملُ السّماةُ من رِيّاكِ
مُتدافعَ الأمواج فوق تَراكِ
قَمَمَ الجبالِ وهامةَ الأفلاكِ
مُذ فاض في جوّ البلاد سَنّاكِ
أرواهُ من لبنِ العلى ثدياكِ
لماً ملأتِ من الجواهر فاكِ
وفؤادهُ يهفر الى مَراكِ
ولسانهُ لهجٌ يتشرّ حلاكِ
أنسى حَتانَ الأمّهات هواكِ
قد قدسوا عند البلاء وفاكِ

فلكم أَعْنَتْ عَلَى الزَّمانِ وَصَرَفِهِ
 أَوْ يُنْكَرُ الشَّرْقِيُّ مَا أَوْلَيْتِهِ
 أَوْ يَجْعَدُ الْإِبْناءَ فَضْلَكَ وَالْعَدَى
 كَمَ مِنْ يَتِيمٍ كَانَ عَيْلَ قَوْمِهِ
 كَمَ جَاهِلٍ أَمْسَى مَنَارَ بِلادِهِ
 رَشَفَ الْمَعَارِفَ وَهُورِيَّانُ الْحَشَى
 كَمَ تَائِهٍ أَمْسَى عَلَى نَهْجِ الْهُدَى
 كَمَ مِنْ غَوِيٍّ مَا مَضَى فِي غَيْهِ
 لِلْحَكْمَةِ الْقَرَاءُ فِيكَ مَنَاورٌ
 لِلْعِلْمِ وَالْآدَابِ فِيكَ مِشارِعٌ
 سَقِيًّا لِمَنْ تَرَعَاهُ عَيْنُكَ فِي الدَّجَى
 وَمَقْتَكِ لِحَظَةِ السَّاءِ مِنَ الصَّبَا
 فَهَجَّتْ فِي دُنْيَاكَ أَقْوَمَ مَنَهْجٍ
 مَنْ يَتَّبِعِ الْحَقَّ الْمُبِينُ فَاثِمًا
 يَا غَابَةَ الْأَسَادِ كَمَ مِنْ جَعْفَلٍ
 خَاضَ الْمَاعِمْ بَيْنَ أَطْرَافِ الطُّبَى
 أَمْتَارَةَ الْإِبْجَادِ هَلْ مِنْ مَرْكَبٍ
 فَلَأَنْتِ مَرْفَأًا الْأَمِينُ فَإِنْ سَطَا
 وَلَأَنْتِ مَعْقِلُنَا الْحَرِيْزُ إِذَا عَدَا
 طَارَدَتْ أَدْوَاءَ النُّفُوسِ فَأَدِيرَتْ
 يُعْيِي الْأَسَاءَةَ الدَّاءُ إِنْ يُزِمَنَّ وَمَا
 لَمْ تَحْفَلِي بِالنَّازِلَاتِ صَوَاعِقًا
 قَدْ كَانَ قَلْبُكَ فِي النَّوَابِ جَنْدَلًا
 يَا نَجْمَةَ زَانَتْ حَاسِنُهَا الْعُلَى
 آتَاكِ الْحُسْنَاءُ قَدْ رُقِمَتْ عَلَى

وَبَذَلَتْ فِي مَدَدِ الضَّعِيفِ قُورًا
 مِمَّا يُخْلَدُ فِي الْوَرَى ذِكْرًا
 شَهِدُوا بِمَا جَادَتْ بِهِ كَفَّاكَ
 فَقَدْ إِمَامُهُمْ بِفَضْلِ غَدَاكَ
 بَعْدَ اقْتِبَاسِ الْعِلْمِ فِي مَعْنَاكَ
 حَتَّى ارْتَوَى مِنْ غَادِيَاتِ سَمَاكَ
 لَمَّا تَكَلَّلَ طَرْفُهُ بِهَدَاكَ
 حَتَّى طَعَنْتِ فَوَادَهُ بِقَسَاكَ
 وَهَاجَةٌ تَهْدِي إِلَى مِيسَاكَ
 سَكَرَتْ بِسَلْسَلِ مَانِهَا أَبْنَاكَ
 وَتَقَوُّهُ لِلْمُنْفُخَاتِ يَدَاكَ
 وَوَقْتُ مِنَ الزَّلْزَلِ الذَّمِمْ حُطَاكَ
 وَفَعَلْتَ مَا يَرْضَى بِهِ مَوْلَاكَ
 يَطَأُ الثَّرَاةَ كَمَا وَطِنْتَ عِدَاكَ
 قَدْ سَارَ لِلْهَيْجَاءِ تَحْتَ لَوَاكَ
 تَحْمِيهِ مِنْ عُصْبِ الْفَسَادِ طُبَاكَ
 إِلَّا اهْتَدَى فِي شَرْقِنَا بَضْيَاكَ
 جَيْشُ الْمَعَاظِ نَحْتَمِي بِجَهَاكَ
 يَوْمًا عَلَيْنَا فِي الْوَعْيِ اْعْدَاكَ
 وَجُنُودُهَا لَمْ تَحْشَ غَيْرَ دَوَاكَ
 أَعْيَاكَ دَاءُ عَاجَتِهِ نُهَاكَ
 وَالْعَاصِفَاتِ تَهَبُ حَوْلَ فِنَاكَ
 أَفَيَسْتَطِيعُ الْمَرْحِفُونَ أَذَاكَ
 إِنَّ الْعُلَى مِنْذُ الصَّبَا تَهَوَاكَ
 أَلْبَابُنَا تُخْزِي الَّذِي عَادَاكَ

لو لم يكن للماتين غشاوة
سيري على منحك تحرسك العلى
واطوي من الأعصار ما شاء الألى
ابداً تتوق الى لقاء عيوننا
وعلى رضاك دماؤنا موقوفة
نفديك بالأرواح غالية ولا
يوبيلك الذهبي فاض شعاعه
تعمي العيون لأعظموا مساك
فالرشد كل الرشد في منحك
يرعون بالتهجات عهد ولاك
وقلوبنا تحلو لها نجواك
والموت عذب في سبيل رضاك
تهوى سوى أن نستमित فداك
في كل قلب شاعر بنداك

تهنئة بوسام

صدرك الرّحْبُ والمناقب فيه
قد أرانا من البيان شعاعاً
وسقانا من نثره سلسيلاً
إن صدرًا رصعته بالمعالي
وفؤاداً ارويته في صباه
لحري بأن يكون مناراً
عرفتك البلاد من رُبْع قرن
مطرباً مستمع العلى بقواف
حولك النّشء يشربون غيراً
حملوا راية الجهاد ونالوا
ان تكن واحداً فحولك جيش
لغة العرب قد حميت حماها
أينما كنت ينشق الناس عرفاً
زاهيات مثل النجوم المضية
ومن الفضل حلة سندسيه
ومن النظم خمرة بابلية
لجدير بالشارة الذهبية
من زلال المعارف العصرية
وحقيق بالتهنئات السنية
بليلاً في ربوعها الأدبية
غرّدت فوق غصنها الشاعرية
من مجاري آدابك الكثرية
قصب السبق في مجال الحمية
دربتة اقوالك الحكيمية
ببراع أمضى من المشرقية
من أزاهير أصغريك الذكية

واذا كانتِ النفوسُ سَكَارَى
فالرِسامُ الخطيرُ يَهْدُ خَرّاً
فهَيْثَا لَكَ الرِسامُ وأولى
كلُّ من يزرعُ الجليلَ كَبِيراً
يا فِرْنا وأنتِ في كلِّ عصرٍ
عَلِمْنَا كيف التَّبُوغُ يُجَازَى
بالتَّهَانِي تُهْدَى اليك نَقِيه
فوقَ صدرِ تَرْيُّنُهُ الأَرِيحِيه
بالتَّهَانِي آتَاكَ الوطنِيه
يُحْصِدُ الشُّكْرَ من قلوبٍ وفيه
آيَةُ الله في سما العَبْقَرِيه
فَنَرَاهُ في الأُمّةِ العَرَبِيه

(١) العقد بين المهجّتين

عَقْدَ الإِلفَانِ عَقْدَ التَّرْقَدَيْنِ
وحريّ بهما بُرْجُ العُلَى
غَادَةً هَيْفَاءَ قَدْ أَبْدَعَهَا
جَمَعَتْ خَلْقًا وَخُلُقًا سَلِماً
أَشْرَبَتْهَا أَثْمًا حُبَّ العُلَى
حِكْمَةً التَّقْوَى وَهَلْ مِنْ حِكْمَةٍ
حِكْمَةُ العِلْمِ الَّذِي يَرْفَعُهَا
يَا ابْنَ بَيْتِ الْفَضْلِ طِبْ نَفْسًا بَا
قَدْ رَشَقْتَ الْجُودَ مِنْ مَنبَعِهِ
وَوِثَّقْتَ الْغَزَا عَنْ خَيْرِ آبٍ
لَيْسَ يُعْلِي الْمَرَّةَ فِي الدُّنْيَا سِوَى
يَوْمَ تَمَّ الْعَقْدُ بَيْنَ الْمُهْجَتَيْنِ
بَعْدَ أَنْ حَلَّاءَ سَمَاءِ الْمُقَلَّتَيْنِ
مَنْ بَرَاهَا آيَةُ لِلْأَدْبَيْنِ (١)
وَكَمَالَ الْحُسْنِ جَمْعُ الْجَلِيلَتَيْنِ
وَأَبُوها قَدْ سَقَاهَا الْحِكْمَتَيْنِ
مِثْلُهَا تُسَعِّدُهَا فِي الْعَالَمَيْنِ
بَيْنَ أَرَابِ الثُّهَى فِي الْخَافَتَيْنِ
خُزْنَتُهُ مِنْ شِيمٍ لَا مِنْ لُجَيْنِ
وَالْعُلَى اسْتَصْفَيْتَهَا مِنْ مَعْدِنَيْنِ
وَأَبَاءَ النَّفْسِ عَنْ مَأْسَدَتَيْنِ
حَسَبَ قَدْ نَالَهُ بِالْأَصْفَرَيْنِ

(١) نظمتها بلسان صديق لي ههنا فيها الشاب الاديب الشيخ ميشال الجميل احد تلامذتي القدماء باقتراحه بالأسسه المهدية املي كريمة الحكيم النطاسي الدكتور امين الجميل

(٢) ادب النفس وادب الجسد او ادب الدين والدنيا

كلُّ مجدٍ لم يشم يوماً على
كان لي والدك البرُّ أباً
ولأنت اليومَ لي أوفى أخ
فاحي يا «ميشال» في روض الهنا
إنما لبنا يُزهي بكما
قد رأى في صدره زنبقتين
إن تباهى أو تهادى طرباً
فالمعالي أرختها يده
أسـ فضلـ كان واهي الجانبين
كاد يُنسيني حسان الأوبين
وكفانا أننا كالأخوين
أبدًا مع «أملي» كالزهرتين
مثلاً تُرهي السما بالنديين
ورأى في نحره لؤلؤتين
بكما ما بين أهل المشرقين
وحلاه صاغ من جوهرتين
سنة ١٩٢٥

أقول النجم

في رثاء المرحوم المطران يوسف ابي نجم

أنجمَ الكمال وبدر السِّداد
أقلتَ فغابت نُجومُ العُلى
عهدناكَ أحنى الأنام فوَّاداً
وأرثاهمُ للعيون الدوامي
فلمْ بنتَ عناً فأدميت مناً
رحلتَ ونحنُ أشدُّ افتقاراً
فبتنا حيارى حِيالَ الرِّزايا
ولو كنتَ تُفدى لكنتَ المُفدى
تزلتَ ضريحاً دَجِيَّ الحواشي
بلى انت في كلِّ قلبٍ مُقيمٌ
سيدُكُركُ النَّاسُ ذِكْراً يسودُ
قليلٌ على القُطر بُسُّ الجِدادِ
وغتَ فنامت أمانى البلادِ
وأرعاهمُ لندام الوِّدادِ
وأشعرهمُ بالخطوب السِّدادِ
القلوبُ فرقَ لهنَّ الجِدادِ
إليك فكيف نُطيقُ العِبادِ
وبتنا كأنا نهم يوادِ
بألقي همام وألقي جوادِ
ولو انصفوا اتزولك الفوَّادِ
وحبك يبقى ليوم المعادِ
كما ذكرُ يوسفَ في مصرَ سادِ

فيوسفُ صدَّ المجاعة حيناً
 لقد كان ذِكْرُكَ مِلَّ البلاد
 وقد كان فضلك صافي الزلال
 وقد كان رأيك في المشكلات
 فمُنْذِغْتَ ذُبْنًا أَسَى والتباعاً
 وكيف تطبق العيون الكرى
 عزيزٌ علينا المصابُ بنجم
 عزيزٌ على الدين أن يُبتلى
 فيا دهرُ كُنْ آمناً فالذي
 فتكت به في الدجى غيلةٌ
 فكيف جرحت قلوب الوردى
 أليس من الجوران تُجتنى
 فما كان أفجعَ خطباً أَرَأنا ان
 سمعنا له في البلاد دويّاً
 سمعنا له في قلوب الاعادي
 اذا الرُزّة أدمى قلوب العدى

.....

ألبنانُ سُحَّ الدُموعَ عِزاراً
 وأجر المناحات في كلِّ صوب
 ألبنانُ سُحَّ النَوَادِ على
 ألبنانِ خُطِّ المصابِ الجسيم
 بلِ أَحقره في الصّدر واجعل له
 ألبنان وجدّاً على والدٍ
 فَمَنْ للمشاكل إن اعضلت
 وَمَنْ للخطوب اذا استحكمت

وشاركُ نجومَ الدجى في الشهاد
 ولا تخْلَعْنِ ثِيَابَ السَّوَادِ
 حكيم به قد بلغت المراد
 على القلب بالدّمع لا بالمداد
 إطار الأَسَى من نجيع السَّوَادِ
 فقتت به في البلايا العتاد
 ومن يُصلح الدهر وقت الفساد
 ومن للقضاء اذا العدل باد

فيا لهفَ قلبي على راحلٍ فقدنا به السيف وقت الجلال
إذا الصبر عزَّ لمصرعه فسوق الهنا أصبحت في كساد
أهل الاله على رسمه عهاداً من الغفر تلو عهاد
ويوآه في جنان العلي مقاماً علياً جزاء الجهاد



نكبة القطرين

في رثاء المرحوم المطران يوسف دريان

مُصابٌ أسال سوادَ المثلِّ	وأدمى القلوبَ غداةَ نزلِ
فما أبصرتَ مصرُ من مثلهِ	وقد فُجِّعتَ في العُصورِ الأوَّلِ
ألا ودِّعي يا نفوسُ المنى	فقد غار بعدَ الفقيـدِ الأملِ
هوى من سماءِ فكان دويُّ	كما لو هوى في خضمِّ جبلِ
لقد شكَّته الكنانةُ فذاً	كما شكَّته جميعُ النحلِ
فيا لهفَ نفسي على راحلِ	بعيدِ المرادِ قصيرِ الأجلِ
فقدناه بجرأءٍ وفقدُ البحارِ	عزيزُءٍ ولم يبقَ إلَّا الوشلِ
لقد كانَ أصفى من الفجرِ ذهناً	وقد ضربوا بذكاهُ المثلِ
ولو لم يكن كوكباً نيراً	لما ألبس الشرقَ أدهى النحلِ
فكيف ثوى في ضريحِ صغيرِ	وقد كان دون مداهُ رُحلِ
وكيف حوى الثُربُ صدرَ أرحبِ	تضيق به شامخاتُ القلِّ
لقد ألَّفَ الرُّشدُ منذ الصبا	وما عرفتَ قدماهُ الرُّلِّ
وقد كان في عصره أوحداً	فريدَ الخصالِ جليلِ العملِ
إذا انتَ عاشرتَه خلتهُ	أخا اللبثِ حيناً وحيناً حملِ
يُديرُ عليك الحديثَ سَلافاً	ويُنسيكَ وقتَ الحديثِ العسلِ
عزيزتهُ ما نبا غربها	وهمتُهُ ما اعتراها مثلِ

قضى العمرَ وهو جريءُ الجنان
 وقد كان حراً الضمير أياً
 وقد كان في نفسه دولةً
 وقد كان في رأيه جحفاً
 وخيرُ الورى عالمٌ لا يُبارى
 فهل عرف الرمسُ أيَّ حكيمٍ
 وهل عرفت مصرُ ما نابها
 يحقُّ لها أن تنوح عليه
 فمن للحصافة من بعده
 ومن للجلال ومن للمعالي
 سيرته لبناننا كلماً
 أيوسف من ذا يُرينا الصواب
 أيوسف من ذا يُعيدُ الرجاء
 ومن ذا يسدُّ الفراغ الذي
 تركتَ ومن ذا يسدُّ الخلل
 فما شعرت نفسه بالوجل
 تزيه الفؤاد بدون دحل
 تدن له في النضال الدول
 يفل الجيوش بدون أسل
 وأجدرهم بالشا من بذل
 طوى في ثراه واي بطل
 وهل شعرت بالمصاب الجلل
 بدمع سخين يذنب المقل
 ومن ذا يعالج متاً العلل
 ومن للبيان ومن للجدل
 أصيب فضاقت عليه الخيل
 اذا ما تفتى وباء الخطل
 البنا ومن ذا يقينا الفشل
 تركتَ ومن ذا يسدُّ الخلل

أنت ملهوف

في رثاء المرحوم خليل باخوس صاحب جريدة الروضة

قضى حياةً بين الطروس خليل
 تسابقاً في الوجد حتى كالتبا
 سوادكما مذ ذاب فاض سواده
 فأغناه عن لبس الجداد تلهفاً
 فليس يبدع أن يذوب كلاكما
 نعماء لي الناعي فأكبرت نعيه
 اذا أن صدري أنه إثر أنه
 فيا قلب دع طرفي عليه يسيل
 فأيكما في ذا السباق قتيل
 على جسدي حيث الهوم تجول
 على بدر فضل قد عراه أقول
 وقد حل في بطن الصريح خليل
 وقلت له ان المصاب ثقل
 فان انين الموجهين يطول

يطيب لها بعد الفقيد رحيل
 «مُصايي جليلاً فالغزاء جميل»
 وليس الى مرأى الجيب سيل
 وما هوَ إلا في القلوب تزيل
 وفي كل وجه من نواه ذبول
 وما كان عن نهج السداد يحول
 كأنني به للمكرّمات سليل
 فأتارُهُ الحُسنى عليه دليل
 وكم من إمامٍ مع هواه يميل
 بجِدِّ يرَاعِ ما اعتراه قُلول
 ورأيك في كل الخطوب أصيل
 وانت علينا بالوداع بخيل
 وفي كل صدر من نواك غليل
 كما يسقطُ المغوارُ حين يحول
 وقلوبهم ممّا دهاك عليل
 وأعينهم شكري عليك تسيل
 نظمتُ لآلي الدمع وهي سُيول
 بكاء اليأ ما بكتُهُ ذُكُول
 وابتوا وكلُّ عن أبيه سَوُول
 وفي كل قلب لوعةٌ وعويل
 وليس لنا في الناس عنك بديل
 عليها وقتت العمر وهو طويل
 ويُذوي حَيَّاهَا الوسمِ نُحُول
 تركت من الآتار وهو جليل
 وذكرك حيٍّ والزمانُ كفيل

كأنني بروحي وهي في غمرة الأسى
 فقلت لها يا روح صبراً فإن يكن
 فقلت وكيف الصبرُ والرُزء هائلُ
 ترى صاحب النفس الكبيرة في الثرى
 مضى وله في كل صدر مناحةٌ
 عرفناه حرّاً الفكر في كل موقفٍ
 واخلقه كانت ارق من الصبا
 اذا كان خُلقُ المرد عُنوان فضله
 لقد كان مطواعاً لصوت ضميره
 فيا راحلاً عن موطنٍ قد حميته
 لقد خضت ميدان التّضالِ مُجاهداً
 فكيف رحلت اليوم يا صاحب الوفا
 غلّقت في الأبواب أذع لوعةٍ
 سقطت بساحات الجهاد من العنا
 وفارقت إخواناً عليك تلهّثوا
 مشوا كلهم من حول نعشك حُشّماً
 فإن يرثك الحُللان نثراً فإنني
 عليك بكت يوم الرحيل عقيلةٌ
 وغادرت أيتاماً عليك تحسّروا
 لقد هالهم ذاك المصاب فاصحوا
 عزيزٌ علينا أن يُواروك في الثرى
 عزيزٌ علينا أن نرى «الروضة» التي
 ينوح على غريدها بلبلُ العلى
 إذا ما طواك الرمسُ ينشرك الذي
 وفضلك يبق في القلوب مُخلّداً

وحشة الداء

أنشب الداء مخليبه بقلبي
 ويح طرفي فأبي ذنبي جناهُ
 ناوأني الأيام حتى دهنتي
 من مجري من وحشتي ومعيدي
 فكان النهار ليل بهيم
 كل نور في مقلتي ظلام
 عيل صبري وأي صبر لمضي
 فاذا الجور بالعام تغنى
 لعبت بي الغيوم حتى كآني
 وكآني بمقلتي وهي حيرى
 كلما ساور الكرى محجريا
 كم ليال طويتها وفؤادي
 أرقب النجم وهو مثلي مغشى
 لا انيس به أداوي كلومي
 كنت في عزاتي كآني بسجن
 ما صفا لي في علمي قط عيش
 كيف تقوى على الهجود عيوني
 لم أعني طيف الردى نصب عيني
 ضرب الدهر بيننا فافتقنا
 حال بعد الديار دون التلاقي
 تابع الجو غيئه نحو شهر
 وذعرنا من الرعود غضابا

وأمض الأدواء داء الفؤاد
 فيقاسي الشهاد تلو الشهاد
 بخطوب تفت قلب الجهاد
 من مقام به أضعت رشادي
 أو كآني في ظلمة الأخاد
 كل أنس علي صعب المقاد
 زاده الهم وهو اخبث زاد
 صحت يا جو لا تعذب فؤادي
 كره في يد الدواهي الشداد
 في لجاج الدجى الشديد السواد
 شردته بسلال الشهاد
 فوق جمر الغضا وشوك القتاد
 بغلام ارسى من الأطواد
 لا سير يوي فؤادي الصادي
 أو كآني أهي في كل واد
 وحرمت الجفون طعم الرقاد
 والمنايا تطوف حول مهادي
 كفراقي للحافظين ودادي
 مدة خلها من الآباد
 وأطراد الأنواء اى أطراد
 فتشكت حتى النفوس الصوادي
 ومللنا المقام في كل ناد

يا رعى الله من رعى عهدَ حي
قد أعانوا على الشفاء فؤادي
لو جفوني كما جفاني سواهم
إن بعدَ الاحباب انجعُ خطب
فإذا ما نصرت بعد ذبولي
وإذا ما حيثُ كانت حياتي
كان لي في السقام أمهر آس
خجراه الإله خير جزاء

من كرام الزوار والعواد
وهم منة في مقام السواد
لأيتُ الجعيم تحت وسادي
والليل المهجور اشقى العباد
فنضوري من جود تلك القوادي
من طيب المدور الجواد
وبعيد السقام اقوى عماد
وأبال الخلان كل مراد

وقفه بين عامين

بين عام مضى و عام جديد
يصرف الغر عمره في الملاهي
وأمر الأيام ما كان فيها
خل عنك الهوى وعش عيش حر
أي ذكر يبقى لمن عاش ميتاً
إنما العاقل الذي يتباهى
وبنو العزم فخرهم بجلاهم
إصنع الخير ما استطعت فلا خير
وتعطف على اخي البؤس حتى
كل يوم يُقضى بصنع جميل
والذي يزرع العوارف يجني
تتوالى الأعوام والناس ضم
كلما أوعده الزمان بنيه
عبدوا المال وهو رب كذوب

مزعطات تبدو لعين الرشيد
وهو في قيد عتبه كالبيد
قدم المرء في أذل القيود
تحي بالذكر بين اهل الخلود
وطواه الخمول قبل اللعود
بالخلال الحسان لا بالنقود
لا بمجد يروونه عن جدود
يتأسى عن حظّه المنكود
فموا أبيه من عقد ذر نصيد
في اوان الحصاد خير الحصيد
عن خطوب دوتها كالوعود
بلماته ازدروا بالوعيد
يجمل القلب كالشريد الطريد

اي نفع يُجديهم يومَ يغدو عابدُ المالِ بينَ اهلِ الوقود
يا عبيدَ الاهواءِ لا تتأدوا في الهوى واتَّقوا تعديَّ الحدود
انَّ من يعصي مَنْ يراهُ يقاسي ما يُقاسي الشريدُ بعدَ الشُّرود
والذي يغمطُ الجليلَ كُنودٌ وأخسُ الأخلاقِ خلُقُ الكنود
ايُّ خيرٍ ما استزلتهُ البرايا من سماءِ الرحمنِ ربَّ الجود
افا جادَ بالوجودِ علينا أيُّ برٍّ يفوقُ برَّ الوجود
هوذا العامُ فاتحاً يسفرُ فضلُه فأملأوه من كلِّ مسعى حميد
هالكةٌ ما رآه في كلِّ قطرٍ من زحامٍ على التُّقودِ شديد
فصى اللهُ أنْ يَنَّ علينا بسلامٍ بعدَ الحروبِ مديد
فقلوبُ الوري الى السِّلَمِ ظمأى وهي تصبو الى وئامٍ اكيد
تلكَ آمألتنا عسى أنْ زأها مُشمراتٍ في عامِنَا ذا الجديد

❦ اصلاح الغلط ❦

وجه	سطر	الخطأ	الصواب
٣	١٠	صنيعك	صنيعك
٤	٥	ما	مأ
٤٢	٣	وحوه	في وجوه
٨	١٩	محادرة	حذرًا من
٦١	٢٥	مدر	قدر
٨٨	٢٥	والنايين	والمبرزين
١٠٥	٣	التشوش اداراتا	التشوشُ الانتظامَ في اداراتا
١٢٥	٣	والاعجاب	والاعجاز
١٦٢	٨	بَرْنَه	بُرْنَه
١٦٧	٣	بتوفروا	تتوفروا
٢٢٩	١٢	تحسينه	تحسينه
٢٤٠	٥	يُبحن	يُنحن
٢٤٠	٩	بخدمتهم	بخدمتهم

فهرس الكتاب

وجه	وجه
١٢١ الترتيب	١ العصاميّ خير من المظاميّ
١٢٨ حسن الادارة وسداد التدبير	٥ التسامح والمخالقة
١٣٣ الثبات والادمان	٨ الأنفة والاياء
١٣٧ الإقدام والإحجام	١٥ سرعة التصديق
١٤٠ الاحكام والإبداع	١٩ عبر الدهر
١٤٩ تصفح الاعمال والاقوال	٢٢ تنازع البقاء
١٥٣ الامانة	٢٦ الهوى يعمي والغرض يُصمّ
١٦٣ الاعتماد على النفس	٢٨ الاحلام الذهبيّة
١٦٩ المروءة	٣١ النخاسة العلنيّة
١٧٥ الوطن نعيم ارضيّ	٣٧ النخاسة السريّة
١٨٠ الغيرة الوطنيّة	٤٩ منافع الروايات ومضارّها
١٨٢ المرأة الادبية	٥٤ اركان النجاح
١٨٧ الانتقاد	٥٧ الثقة بالنفس
١٩٠ آداب الانتقاد	٦٤ الثقة بالغير
١٩٤ الوقت اثن من الذهب	٧٤ الضبط والتدقيق
٢٠٣ العزم والحزم	٨٥ التنشيط وإثارة الهمم
٢٠٦ العفو والحلم	٩٨ التيقظ والتحفظ
٢١٠ منافع الاتحاد	١٠٥ التروي والتأني
٢١٤ عرفان الجميل	١١٠ الاعتدال
٢١٨ الصحة	١١٧ المنافسة

وجه	وجه
٢٢٠ المدرسة منبت الرجال المطام	٢٩٢ مضار السكرات
٢٢٤ المهنة	٢٩٤ باب الشعر
٢٢٧ اقسام المهنة والحكمة في اختيارها	الملاحة الجوية
٢٣٠ الزراعة حياة الامم	٢٩٥ وطني المفدى
٢٣٣ شرف المحراث	٢٩٧ اللغة العربية على منبر الخطابة
٢٣٦ الشفقة البشرية	٢٩٨ الهزار الصداح
٢٤٤ الاقتصاد	٣٠١ يوبيل الأب شيخو الذهبي
٢٤٩ الاسراف	٣٠٢ تحية غورو
٢٥٢ التفتير	٣٠٤ من المهد الى اللحد
٢٥٥ المدنية العصرية	٣٠٧ تحية كلية القديس يوسف
٢٦٦ الانتقياد الاعمى	٣٠٩ تهنته يوسام
٢٧٢ المداهنة	٣١٠ العقد بين المهجتين
٢٧٥ التزلف الذميم	٣١١ افول النجم
٢٧٧ التهؤ والاستهتار	٣١٣ نكبة القطرين
٢٨١ آفات المناصب	٣١٤ انة ملهوف
٢٨٥ العجب بالنفس	٣١٦ وحشة الداء
٢٨٩ الاستنثار والعلو في حب النفس	٣١٧ وقفة بين عامين

